الرسالة الثامنة

من الجسمانيات الطبيعيات في كيفية تكوين الحيوانات وأصنافها

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿الْحَمْدُ لِلهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾

(١) فصل

اعلم أيها الأخ البار الرحيم — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أنه لما فرغنا من ذكْر النباتات، وبيَّنَّا طرفًا من كيفية تكوينها ونشوئها ونموها وكمية أجناسها وفنون أنواعها، وخواص طباعها ومنافعها ومضارها في رسالة لنا وبيَّنَّا فيها أيضًا بأن أول مرتبة النبات متصلة بآخر مرتبة الجواهر المعدنية، وأن آخرها متصل بأول مرتبة الحيوان، فنريد أن نذكر في هذه الرسالة أيضًا طرفًا من كيفية تكوين الحيوانات وبدء كونها ونشوئها ونمائها وكمية أجناسها وفنون أنواعها وخواص طباعها واختلاف أخلاقها، ونبيِّن أيضًا بأنَّ آخِر مرتبة الحيوان متصل بأول مرتبة الإنسان، وآخِر مرتبة الإنسان متصل بأول مرتبة الملائكة الذين هم سكان الهواء والأفلاك وأطباق السموات ليكون في ذلك بيان، ودليل لَمن كان له قلب صافٍ ونفس زكية وعقل راجح على كيفية ترتيب الموجودات ونظام الكائنات عن علة واحدة ومبدأ واحد، وأنها كترتيب العدد عن الواحد الذي قبل الاثنين، ونبيِّن أيضًا بأن نسبة صورة الإنسانية إلى صور سائر الحيوانات كنسبة الرأس من الجسد ونفسه كالسائس وأنفسها كالمسوس.

وقد بيَّنَّا في رسالة الأخلاق بأن صورة الإنسانية هي خليفة الله في أرضه، وبيَّنَّا فيها أيضًا كيف ينبغي أن تكون سيرة كل إنسان حتى يستأهل أن يكون من أولياء الله ويستحق الكرامة منه، وبيَّنَّا أيضًا في أكثر رسائلنا فضيلة الإنسان وخصاله المحمودة وأخلاقه المرضية ومعالمه الحقيقية وصنائعه الحكمية وتدابيره المرضية وسياسته الربانية، ونريد أن نذكر في هذه الرسالة طرفًا من فضائل الحيوانات وخصالها المحمودة وطبائعها المرضية وشمائلها السليمة، ونبيِّن أيضًا طرفًا من طغيان الإنسان وبغيه وتعدِّيه على ما سواه ممَّا سُخِّر له من الأنعام والحيوانات أجمع، وكفرانه النِّعَم وغفلته عمَّا يجب عليه من أداء الشكر، وأن الإنسان إذا كان فاضلًا خيِّرًا فهو مَلَك كريم خير البرية، وإن كان شرِّيرًا فهو شيطان رجيم شر البرية، وجعلنا بيان ذلك على ألسنة الحيوانات؛ ليكون أبلغ في المواعظ وأبْيَن في الخطاب وأعجب في الحكايات وأظرف في المسامع وأطرف في المنافع وأغوص في الأفكار وأحسن في الاعتبار.

فصل

واعلم أيها الأخ — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الجواهر المعدنية هي في أدون مراتب المولدات من الكائنات، وهي كل جسم متكوِّن منعقِد من أجزاء الأركان الأربعة التي هي النار والهواء والماء والأرض، وأن النبات يُشارك الجواهر في كونها من الأركان ويزيد عليها وينفصل منها بأنه كل جسم يتغذَّى من الأركان وينمو ويزيد في أقطارها الثلاثة طولًا وعرضًا وعمقًا، وأن الحيوان أيضًا يُشارك النبات في الغذاء والنمو، ويزيد عليه وينفصل عنه بأنه جسم متحرك حساس، والإنسان يشارك النبات والحيوان في أوصافها ويزيد عليها وينفصل عنها بأنه ناطق مميِّز جامع لهذه الأوصاف كلها.

فصل

ثم اعلم يا أخي بأن النبات متقدِّم الكون والوجود على الحيوان بالزمان؛ لأنه مادة لها كلها وهَيُولَى لصورها وغذاء لأجسادها، وهو كالوالدة للحيوان — أعني النبات — وذلك أنه يمتص رطوبات الماء ولطائف أجزاء الأرض بعروقه إلى أصوله، ثم يُحيلها إلى ذاته ويجعل من فضائل تلك المواد ورقًا وثمارًا وحبوبًا نضيجًا ويتناول الحيوان غذاءً صافيًا هنيئًا مريئًا كما تفعل الوالدة بالولد فإنها تأكل الطعام نضيجًا ونِيئًا وتُناوِل ولدَها لبنًا

خالصًا سائغًا للشاربين، فلو لم يكن النبات يفعل ذلك من الأركان لكان يحتاج الحيوان إلى أن يتغذَّى من الطين صرفًا، ومن التراب سفًّا، ويكون منغَّصًا في غذائه وملاذِّه، فانظر يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — إلى معرفة حكمة الباري — جلَّ ثناؤه — كيف جعل النبات واسطة بين الحيوان وبين الأركان حتى يتناول بعروقه لطائف الأركان وعصاراتها ويهضمها وينضجها ويصفِّيها ويُناوِل الحيوان من لطائف لبابها وحبوبها وقشورها وورقها وثمارها وصموغها ونَوْرها وأزهارها لطفًا من الله — تعالى — بخلْقه وعناية منه ببريَّتِه، فتبارك الله أحسن الخالقين، وأحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين.

فصل

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن من الحيوان ما هو تام الخلقة كامل الصورة، كالتي تَنْزُو وتَحبَل وتَلِد وتُرضِع، ومنها ما هو ناقص الخلقة، كالتي يتكوَّن من العفونات، ومنها ما هو كالحشرات والهوامِّ بين ذلك كالتي تنفذ وتبيض وتحضن وتربِّي.

ثم اعلم بأن الحيوانات الناقصة الخِلْقة متقدِّمة الوجود على التامة الخلقة بالزمان في بدء الخلق؛ وذلك أنها تتكون في زمان قصير، والتي هي تامة الخلقة تتكون في زمان طويل لأسباب وعلل يطول شرحها، وقد ذكرنا طرفًا منها في رسالة مسقط النطفة ورسالة الأفعال الروحانية، ونقول أيضًا إن حيوان الماء وجوده قبل وجود حيوان البر بزمان؛ لأن الماء قبل التراب، والبحر قبل البَرِّ في بدء الخلق.

فصل

واعلم يا أخي بأن الحيوانات التامة الخِلْقة كلها كان بدء كونها من الطين أولًا من ذكر وأنثى، توالدت وتناسلت وانتشرت في الأرض سهلًا وجبلًا وبرًّا وبحرًا من تحت خط الاستواء حيث يكون الليل والنهار متساويين والزمان أبدًا معتدلًا هناك بين الحر والبرد والمواد المتهيئة لقبول الصورة موجودة دائمًا، وهناك أيضًا تكوَّن أبونا آدم أبو البشر وزوجته، ثم توالد وتناسلت أولادهما وامتلأت الأرض منهم سهلًا وجبلًا وبرًّا أو بحرًا إلى يومنا هذا.

ثم اعلم يا أخي بأن الحيوانات كلها متقدِّمة الوجود على الإنسان بالزمان؛ لأنها له ولأجله، وكل شيء هو من أجْل شيء آخر فهو متقدِّم الوجود عليه، هذه الحكمة في أولية

العقل لا تحتاج إلى دليل من المقدمات ونتائجها؛ لأنه لو لم يتقدَّم وجود هذه الحيوانات على وجود الإنسان لما كان للإنسان عيش هنيء ولا مروَّة كاملة، ولا نعمة سائغة؛ بل كان يعيش عيشًا نكدًا فقيرًا بائسًا بسوء الحال كما سنبيِّن بعد هذا في فصل آخَر عند فراغ زعيم أهل المدن من خطابهم وكيفية أحوالهم كيف تكون عند فقدان الحيوانات.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن صور النبات منكوسة الانتصاب إلى أسفل؛ لأن رءوسها نحو مركز الأرض ومؤخرها نحو محيط الأفلاك، والإنسان بالعكس من ذلك؛ لأن رأسه مما يلي الفلك ورجليه مما يلي مركز الأرض في أي موضع وقف على بسيطها شرقًا وغربًا وجنوبًا وشمالًا من الجوانب كلها، ومن هذا الجانب ومن ذلك الجانب والحيوانات متوسِّطة بين ذلك لا منكوسة كالنبات ولا منتصبة كالإنسان، بل رءوسها إلى الآفاق ومؤخَّرها إلى ما يُقابله من الأفق الآخر، كيفما دارتْ وتصرفت في جميع أحوالها، وهذا الوضْع والترتيب الذي ذكرنا من أمرِ النبات والحيوانات والإنسان أمر إلهي بواجب الحكمة الإلهية والعناية الربانية ليكونَ في ذلك دلالة وبيان لأولي الأبصار والناظرين في أسرار الخِلْقة والباحثين عن حقائق الأشياء والمعتبرين بما في الأرض من الآيات والعلامات والدلالات بأن قُوَى النفس الكلية المنبثَّة في العالَم من أعلى فلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض بعضها منتصب نحو المركز، وبعضها منصرف إلى المركز المحيط، وبعضها منبثٌّ متوجِّه نحو الآفاق على المركز، في كل فجٍّ منها جنود الله منصرفين لحفظ العالم وتدبير الخلائق والسياسة الكلية ومآرب أخرى لا يعرف كنه معرفتها أحد إلا الله عزَّ وجلَّ.

وقد بيَّنَّا في رسالة لنا بأن قوى النفس الكلية أول ما تبتدئ تسري في قعر الأجسام من أعلى سطح فلك المحيط إلى نحو مركز الأرض، فإذا سَرَتْ في الأفلاك والكواكب والأركان والمولدات، وبلغتْ إلى مركز الأرض من أقصى مدى غايتها ومنتهى نهاياتها عطفتْ عند ذلك راجعة نحو المحيط وهو المعراج والبعث والقيامة الكبرى.

فانظر الآن يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — كيف يكون انصراف نفسك من هذا العالم إلى هناك، فإنها هي إحدى تلك القوى المنبثَّة من النفس الكلية السارية في العالم، وقد بلغتْ إلى المركز وانصرفتْ ونَجَتْ من الكون في المعادن أو في النبات أو في الحيوان، وقد جاوزتِ الصراط المنكوس والصراط المقوس، وهي الآن على صراط مستقيم

آخِر درجات جهنم، وهي الصورة الإنسانية، فإن جاوزتْ وسلمتْ من هذه دخلت الجنة في أحد أبوابها، وهي الصورة الملكية التي تكسبها بأعمالك الصالحة وأخلاقك الجميلة وآرائك الصحيحة ومعارفك الحقيقية وبحسن اختيارك، فاجتهد يا أخي قبل الفوت وفناء العمر وتقارب الأجل، واركب مع إخوانك في سفينة النجاة يرحمك الله برحمته، ولا تكن مع المغرقين وإخوان الشياطين.

فصل

واعلم يا أخي بأن الحيوان هو جسم متحرِّك حساس يتغذَّى وينمو ويحس ويتحرك حركة مكان وأن من الحيوان ما هو في أشرف المراتب مما يلي رتبة الإنسانية، وهو ما كانت له الحواس الخمس والتمييز الدقيق وقبول التعليم، ومنه ما هو في أدون رتبة مما يلي النبات، وهو كل حيوان ليس له إلا حاسة اللمس حسب، كالأصداف وما كان كأجناس الديدان كلها، تتكوَّن في الطين أو في الماء أو في الخلِّ أو في الثلج أو في لبِّ الثَّمَر أو في الحبِّ أو لبِّ النبات والشجر أو في أجواف الحيوانات الكبار الجثة وما أشبهها.

وهذا النوع من الحيوانات أجسامه لحمية وبدنه متخلخل وجلده رقيق، وهو يمتص المادة بجميع بدنه بالقوة الجاذبة، ويحس اللمس، وليس له حاسة أخرى لا الذوق ولا الشم ولا السمع ولا البصر غير اللمس وحسب، وهو سريع التكوُّن وسريع الهلاك والفساد والبِلَى، ومنها ما هو أتمُّ بنية وأكمل صورة، وهو كل دودة تتكوَّن وتدبُّ على ورق الشجر والنبات ونَوْرها وزهرها، ولها ذوق ولمس، ومنها ما هو أتم وأكمل وهو كل حيوان له لمس وذوق وشم وليس له سمع ولا بصر، وهي الحيوانات التي تعيش في قعر البحار والمياه والمواضع المُظلِمة، ومنها ما هو أتم وأكمل وهو كل حيوان من الهوامِّ والحشرات التي تدبُّ في المواضع المُظلِمة، له لمس وذوق وسمع وشم، وليس له بصر مثل الحلمة، فباللمس قوام جثته وبالذوق يميِّز الغذاء من غيره، وبالشم يعرف مواضع الغذاء والقوت، وبالسمع يعرف وطأ المؤذيات له، فيحترَّز قبل الورود والهجوم عليه، ولم يجعل له البصر؛ لأنه يعيش في المواضع المظلمة، ولا يحتاج إلى البصر ولو كان له بصر لكان ذلك وبالًا عليه من حفظه، ففي إغماض العين من القذي ضرورة؛ لأن الحكمة الإلهية لم تُعطِ الحيوان عضوًا ولا حاسة لا يحتاج إليها، ولا ينتفع بها، ومنه ما هو أتم بنية وأكمل صورة وهو ما له خمس حواس كاملة، وهي اللمس والذوق والشم والسمع والبصر ثم يتفاضل في الجودة والدون.

فصل

ومن الحيوانات ما يتدحرج كدودة الثلج، ومنها ما يزحف كدودة الصدف، ومنها ما ينساب كالحية، ومنها ما يدبُّ كالعقارب، ومنها ما يعدو كالفأر، ومنها ما يطير كالذباب والبقِّ، ومما يدبُّ ويمشي ما له رجلان، ومنها ما له أربع أرجل، ومنها ما له ست أرجل، ومنها ما له أكثر كالدخال، ومما يطير من الحشرات ما له جناحان، ومنها ما له أربعة أجنحة، ومنها ما له ست أرجل وأربعة أجنحة ومشفر ومخالب وقرون كالجراد، ومنها ما له خرطوم كالبقِّ والذباب، ومنها ما له مشفر وحُمَة كالزنابير، ومن الهوام والحشرات ما له فِكْر وروية وتمييز وتدبير وسياسة مثل النمل والنحل، يجتمع جماعة منهم ويتعاونون على أمر المعيشة واتخاذ المنازل والبيوت والقُرَى وجمع الذخائر والقُوت للشتاء، ويعيش حولًا وربما زاد، وما كان غير هذين من الهوامِّ والحشرات مثل البقِّ والبراغيث والذباب والجراد وما شاكلها فإنها لا تعيش حولًا كاملًا؛ لأنه يُهلِكها الحرُّ والبرد المفرطان، ثم يتكون في العام القابل مثلها.

فصل

ومن الحيوان ما هو أتم بنية مما ذكرنا، وأكمل صورة منها، وهو كل حيوان بدنه مؤلَّف من أعضاء مختلفة الأشكال، وكل عضو مركب من عدة قطعات من العظام، وكل قطعة منها مفننة الهيئات من الطول والقصر والدقة والغلظ والاستقامة والاعوجاج، ومؤلَّفة كلها بمفاصل مهندمة التركيب مشدودة الأعصاب والرباطات، محشوة الخلل باللحم، منسوجة بالعروق، محصنة بالجلدة، مغطاة بالشعر والوبر والصوف والريش أو الصَّدَف أو الفلوس، وفي باطن أجسادها أعضاء رئيسية كالدماغ والرئة والقلب والكبد والطحال والكليتين والمثانة والأمعاء والمصارين والأوراد والمعدة والكرش والحوصلة والقانصة وما شاكلها.

وفي ظاهر البدن أرجل وأيد وأجنحة وذنب ومخالب ومناقير وحافر وظلف وخفٌّ وما شاكلها، كل ذلك لمآرب وخصال عدة ومنافع جمَّة، لا يعلمها إلا الذي خلقها وصوَّرها وأنشأها وأتمَّها وأكملها وبلَّغها إلى أقصى غاياتها وتمام نهاياتها.

وهذه كلها أوصاف الأنعام والبهائم والسباع والوحوش والطيور والجوارح وبعض حيوان الماء وبعض الهوام كالحيات، والأنعام وهو كل ما له ظلف مشقوق.

والبهائم ما كان لها حافر، والسباع ما كان لها أنياب ومخالب، الوحوش ما كان مركبًا بين ذلك.

والطيور ما كان لها أجنحة وريش ومنقار، والجوارح ما كان لها أجنحة ومنقار مقوس ومخالب معقفة معقربة.

وحيوان الماء ما يُقيم فيه ويعيش، والحشرات ما يطير وليس لها ريش، والهوام ما يدبُّ على رجلين أو أربعة أو يزحف أو ينساب على بطنه أو يتدحرج على جنبيه.

فصل

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية التي لها عظام كبار وجلود ثخان وأعصاب غلاظ وعروق واسعة وأعضاء كبيرة مثل الفيل والجمل والجاموس، وغيرها تحتاج أن تمكث في الرحم زمانًا طويلًا إلى أن تَلِد لعلَّتين اثنتين؛ إحداهما: كيما تجتمع في الرحم تلك المواد التي تحتاج إليها الطبيعة في تتميم البنية وتكميل الصورة.

والعلة الأخرى: كيما تدور الشمس في الفلك وتقطع البروج المثلثات المشاكلات الطباع وتحط من هناك قوى روحانيات الكواكب إلى عالم الكون والفساد التي تحتاج إليها في تتميم قوى النفس النامية النباتية وقوى النفس الحيوانية الحاسة ليَقبَل مِن كل جنس من الكائنات المولَّدات ما له أن يَقبَل مِن تلك القُوَى، كما بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة مسقط النطفة.

ثم اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الحيوانات التامة الخلقة الكبيرة الجثة العظيمة الصورة كلها كُوِّنتْ في بدء الخلق ذكرًا وأنثى من الطين تحت خط الاستواء؛ حيث يكون الليل والنهار هناك متساويين، والحر والبرد معتدلين، والمواضع الكنينة من تصاريف الرياح موجودة هناك، والمواد كثيرة متهيئة لقبول الصورة.

ولَمَّا لم يكن في الأرض مواضع موجودة بهذه الأوصاف جُعلتْ أرحام إناث هذه الحيوانات على هذه الأوصاف من اعتدال الطباع لكيما إذا انتشرتْ في الأرض تناسلتْ وتوالدتْ حيث كانوا، وأكثر الناس يتعجَّبون من كون الحيوانات من الطين ولا يتعجبون من كونها في الرَّحِم من ماء مهين، وهي أعجب في الخلقة، وأعظم في القدرة؛ لأن من الناس مَن يَقدِر أن يصوِّر حيوانًا من الطين أو من الخشب أو من الحديد أو من النحاس كما هي موجودة مشاهدة في أيدي الناس من خلقة الأصنام.

ولا يمكن لأحد أن يصوِّر حيوانًا من الماء؛ لأن الماء جسم سيَّال لا تتماسك فيه الصورة، فتكون هذه الحيوانات في الأرحام أو في البيض من ماء مهين أعجب في الخلقة، وأعظم في القدرة من كونها من الطين.

وأيضًا إن أكثر الناس يتعجبون من خِلْقة الفيل أكثر من خِلْقة البقَّة، وهي أعجب خلقة وأظرف صورة؛ لأن الفيل من كبر جثته له أربع أرجل وخرطوم ونابان خارجيان، والبقة مع صغر جثتها لها ست أرجل وخرطوم وأربعة أجنحة وذنب وفم وحلقوم وجوف ومصارين وأمعاء وأعضاء أخرى لا يُدرِكها البصر، وهي مع صِغَر جثَّتها مسلَّطة على الفيل بالأذيَّة، ولا يقدر عليها، ولا يمتنع بالتحرُّز منها، وأيضًا فإن الصانع البشري يقدر على أن يصوِّر فيلًا من الخشب أو من الحديد أو من غيرها بكماله ولا يقدر أحدٌ من الصناع أن يصور بقَّة لا من الخشب ولا من الحديد بكمالها.

وأيضًا فإن كون الإنسان من النطفة بديئًا، ثم في الرحم جنينًا، ثم في المهد رضيعًا، ثم في المكتب صبيًّا، ثم في تصاريف أمور الدنيا رجلًا حكيمًا أعجب أحوالًا وأعظم اقتدارًا من كونه يُبعَث من تراب قبره يوم القيامة وخروج الناس كأنهم جراد منتشر.

وهكذا أيضًا مشاهدة خروج عشرين فرخة من تحت حضن دجاجة واحدة أو ثلاث دراجات من تحت حضن دراجة واحدة ينفضُّ عنها قشور بيضها في ساعة واحدة وعَدْو كل واحدة في طلب الحَبِّ وفرارها وهربها من الطالب لها، حتى ربما لا يقدر عليها أعجب من خروج الناس من قبورهم يوم القيامة، فما الذي منع المنكرين من الإقرار بذلك، وهم يشاهدون مثل هذه التي أعجب هي منها وأعظم في القدرة لولا جريان العادة بها.

فصل

اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن مشاهدة جريان الأمور دائمًا إذا صارت عادة قلَّ تعجب الناس منها والفكر فيها، والاعتبار لها ويعرض لهم من ذلك سهو وغفلة ونوم النفس وموت الجهالة.

فاحذر من هذا الباب يا أخي، ولا تكن من الغافلين، وكن من الذين ذكرهم الله في كتابه ومدحهم بقوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾، وذمَّ الذين بخلافهم بقوله: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن أبدان الحيوانات التامة الخلقة والناقصة الخلقة جميعًا مؤلَّفة ومركبة من أعضاء مختلفة الأشكال والمفاصل مفننة الهيئات كالرأس واليد والرِّجْل والظهر والبطن والقلب والكبد والرئة وغيرها، كل ذلك لأسبابٍ وعلل وأغراض لا يعلم كنه معرفتها إلا الله الذي خلقها وصوَّرها كما شاء وكيف شاء.

ولكن نذكر منها طرفًا ليتبيَّن صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا؛ وذلك أنه ما من عضو في أبدان الحيوانات صغيرًا كان أو كبيرًا إلا وهو خادم لعضو آخر ومعين له، إما في بقائه وتتميمه أو في أفعاله ومنافعه، مثال ذلك الدماغ في بدن الإنسان، فإنه مَلِك الجسد ومَنشَأ الحواس ومعدن الفكْر وبيت الرويَّة وخزانة الحفظ ومسكن النفس ومجلس محل العقل.

وإن القلب خادم للدماغ ومعينه في أفعاله، وإن كان هو أمير الجسد ومدبِّر البدن ومنشأ العروق الضوارب وينبوع الحرارة الغريزية، وخادم القلب ومعينه في أفعاله ثلاثة أعضاء أخرى وهي الكبد والعروق الضوارب والرئة.

وهكذا حكم الكبد بيت الشراب يخدمه ويُعينه في أفعاله خمسة أعضاء أخرى، وهي المعدة والأوراد والطحال والمرارة والكليتان.

وهكذا أيضًا حكم الرئة بيت الريح يخدمها ويُعينها في أفعالها أربعة أعضاء أخرى وهي الصدر والحجاب والحلقوم والمنخران؛ وذلك أن من المنخرين يُدخل الهواء المستنشق إلى الحلقوم، ويعتدل فيه مزاجه، ويصل إلى الرئة، ويتصفَّى فيها ثم يدخل إلى القلب ويروح الحرارة الغريزية هناك وينفذ من القلب إلى العروق الضوارب، ويبلغ إلى سائر أطراف البدن الذي يسمَّى النبض، ويخرج من القلب الهواء المحترق إلى الرئة، ومن الرئة إلى الحلقوم، ومن الحلقوم إلى المنخرين، أو إلى الفم، والصدر يخدم الرئة في فتحه لها عند استنشاق الهواء وضمِّه إياها عند خروج النفس، والحجب تحفظ الرئة من الآفات العارضة لها عند الصدمات والدفعات واضطراب أحوال البدن.

وهكذا حكم الكبد تخدمه المعدة بإنضاج الكيموس قبل وصوله إليه، وتخدمه الأوراد بمصِّها وإيصالها إليه بحال يجذب عكر الكيموس من الأخلاط الغليظة المحترقة منها إلى نفسها، وتخدمه المرارة بجذب المرة الصفراء إلى نفسها وتصفية الدم منها، وتخدمه الكليتان بجذب الرطوبة الرقيقة اللينة منها إلى نفسها، وهو الذي يكون منه البول،

وتخدمه العروق المجوفة بجذب الدم إليها وإيصاله إلى سائر أطراف الجسد الذي هو مادة لجميع أجزاء البدن.

وهكذا يخدم المريء والأسنان والفم المعدة؛ وذلك أن الفم هو باب الجسد الذي يدخل منه الطعام والشراب إلى عمق الجسد، والأسنان تخدمها بالطحن أو الدقِّ، والمريء يَزْدَرِد ويبْلَع ويوصلها إلى المعدة، والأمعاء تجذب الثقل وتخرجه من الجسد.

وعلى هذا المثال والقياس ما من عضو في بدن الحيوان إلا وهو يخدم البدن في أفعاله ويخدمه عضو آخر ويُعينه في أفعاله، والغرض الأقصى منها كلها هو بقاء الشخص وتتميمه وتبليغه إلى أكمل حالاته، إما بذاته أو ببقاء نسله أطول ما يمكن في جنس جنس، ونوع نوع، وشخص شخص.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن من الحيوانات ما هو أخرس لا منطق له ولا صوت كالسرطان والسلاحف والسمك، وبالجملة أكثر حيوان الماء إلا القليل منها مثل الضفدع والراديا، ومنها ما له صوت، وهو كل حيوان يستنشق الهواء ويُسمَع له دويٌّ وزَمْر كالبقِّ والذباب والزنابير والصراصير والجراد وما شاكلها، ويكون ذلك من تحريك أجنحتها.

واعلم بأن أصوات الحيوانات المتنفسة متفننة كثيرة الاختلاف من الطول والقصر والغلظ والعظم والصغر والجهير والخفيف وفنون الطنين والزمير والألحان والنغم، كل ذلك بحسب طول أعناقها وقصرها وسعة مناخيرها وحلاقيمها وضيقها وصفاء طبائعها وغلظها وشدة قوة استنشاقها الهواء وإرسالها وتعديل أنفاسها بعد ترويح الحرارة الغريزية التي في قلوبها أو في عمق أجسادها.

والعلة في أن حيوانات الماء أكثرها لا أصوات لها؛ لأنها لا رئات لها، ولا تستنشق الهواء، ولم يجعل لها ذلك؛ لأنها لا تحتاج إليها؛ وذلك أن الحكمة الإلهية والعناية الربانية جعلتْ لكل حيوان من الأعضاء والمفاصل والعروق والأعصاب والغشاوات والأوعية بحسب حاجته إليه في جر المنفعة أو دفع المضرة في بقاء شخصها وتتميمه وتكميله وبلوغه إلى أقصى مدى غاياته، ولسبب بقاء نسلها من آلات السفاد واللقاح وتربية الأولاد، وكل حيوان هو أتم بنية وأكمل صورة فهو أكثر حاجة إلى أعضاء كثيرة وآلات مختلفة وأدوات

مُعِينة في بقاء شخصه ونتاج نسله، وكل حيوان أنقص بنية وأدون صورة، فهو أقل حاجة إلى أعضاء مختلفة وأدوات مفننة في بقاء شخصه ودوام نسله.

بيان ذلك أن الحيوانات ثلاثة أنواع: فمنها ما هو أتم وأكمل، وهو كل حيوان ينزو ويَحبَل ويُرضِع ويُربِّي الأولاد، ومنها ما دون ذلك وهو كل حيوان يسفد ويبيض ويفرخ، ومنها دون ذلك وهو كل حيوان لا يسفد ولا يبيض ولا يلد، بل يتكون في العفونات ولا يعيش سنة كاملة؛ لأن الحر والبرد المفرطين يُهلِكانِها؛ لأن أجسادها متخلخلة مفتحة المسامِّ، وليس لها جلد ثخين ولا صوف ولا شعر ولا وبر ولا صدف ولا عظام ولا عصب ولا فلوس، فهي لا تحتاج إلى الرئة ولا الطحال ولا المرارة ولا الكلى ولا المثانة ولا استنشاق الهواء لترويح الحرارة الغريزية، إذ كان نسيم الهواء يتصل إلى عمق أبدانها لصغر جثتها وفتح مسامِّها ويحفظ الحرارة الغريزية التي في مزاج أبدانها وتركيب طبائعها.

وأما الحيوانات الكبيرة الجثة، العظيمة البنية، التي عليها جلود ثخان، ولحوم كثيرة، وغشاوات وعروق وأعصاب وعظام مصمتة ومجوفة، وأضلاع ومصارين وأمعاء وكروش ومعدة وقلب ورئة وطحال وكليتان ومثانة وقحف الرأس والشعر والوبر والصوف والريش والصدف وما شاكلها، مما يمنع وصول نسيم الهواء إلى عمق أبدانها وترويح الحرارة الغريزية فيها، فقد جعل لبعضها رئة وحلقوم ومجارٍ للنفس لكيما يصل نسيم الهواء إلى عمق أبدانها ومحابس قعر أجسادها، ويروِّح الحرارة الغريزية فيها ويحفظ الحياة عليها إلى وقت معلوم، فهذا الذي ذكرناه هو حكم الحيوانات التامة الخِلْقة الكاملة الصورة، التي تستنشق الهواء وتتنفس منه وتعيش فيه.

وأما أجناس الحيوانات التي تعيش في المياه ولا تخرج منها فإنها لا تحتاج إلى استنشاق الهواء ولا التنفس منه؛ لأن البارئ الحكيم — جلَّ ثناؤه — لَمَّا خلقها في الماء وجعل حياتها منه وفيه جعلها على طبيعة واحدة، وهي طبيعة الماء، وركَّب أبدانَها تركيبًا يصل برد الماء ورطوبته إلى قعر أبدانها وعمق أجسادها، وتروح الحرارة الغريزية التي في طباع تركيبها وتنوب عن استنشاقها الهواء وتنفسها منه، وجعل لكل نوع منها أعضاء مشاكِلة لبدنه ومفاصل مناسبة لجثته، وجعل على أبدانها من أنواع الصدف وفنون الفلوس وما شاكلها لباسًا لها ودثارًا من الحر والبرد وغطاء ووطاء ووقاية لها من الآفات العارضة، وجعل لبعضها أجنحة وأذنابًا تسبح بها في الماء مثل الطيور في الهواء، وجعل بعضها آكِلًا، وبعضها مأكولًا، وجعل نسل مأكولها أكثر عددًا من نسل

آكِلها، كل ذلك غرضًا لبقاء أشخاصها ودوام نسلها زمانًا طويلًا أطول ما يمكن في حياتها وطبائعها.

وأما أجناس الطيور التي هي سكان الهواء وقاطنوه، فإن الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — جعل أبدانها مختصرة من أعضاء كثيرة مما في أبدان الحيوان البري الذي يَحبَل ويَلِد ويُرضِع ليخفِّف عليها النهوض في الهواء والطيران فيه، وذلك أن الباري لم يجعل للطير أسنانًا ولا أذنًا بيِّنة ولا معدة ولا كرشًا ولا مثانة ولا خرزات الظهر ولا جلدًا ثخينًا ولا على أبدانها شعرًا ولا صوفًا ولا وبرًا؛ بل جعل بدل ذلك ريشًا لباسًا لها ودثارًا من الحر والبرد وغطاءً ووطاء ووقاية من الآفات العارضة ويُعينها على النهوض والطيران، وبدل الأسنان منقارًا، وبدل المعدة حوصلة وبدل الكرش قانصة.

وعلى هذا القياس بدل كل عضو عدم منه عضوًا آخر مشاكِلًا لأبدانها ومناسبًا لأجسادها بحسب مآربها ومنافعها ودفع المضارِّ عنها، كل ذلك أسباب وعلل لبقاء أشخاصها ودوام نسلها مدة ما أطول ما يمكن في طبائعها وجِبِلَّتها.

وأما أجناس الحيوانات البرِّيَّة الآكِلة منها العشب فإن الباري الحكيم جعل لها أفواهًا واسعة تتمكَّن من القبض على الحشيش والكلأ في الرعي، وجعل لها أسنانًا حِدَادًا تَقطَع بها وأضراسًا صِلابًا تَطحَن بها الصلب من العشب والحب والورق والقشر والنوى، وجعل مريًّا واسعًا زلقًا تزدرد به ما تمضغه، وكروشًا واسعة محملة تملؤها وتحمل فيها زادَها، فإذا اكتفتْ رجعتْ إلى أماكنها ومرابطها وبركتْ واستراحتْ.

ومنها ما تَجتَرُّ وتسترجع ما بلعتْه وتطحنه ثانية وتبلع وتزدرد إلى مواضع أُخَر من كروشها خِلْقتها غير خِلْقة الأولى متهيِّئة لطَبْخ الحرارة الغريزية لها والتمكُّن من نضجها؛ لكيما تستمرئ بها الطبيعية، وتميِّز ثقلها من لطيفها، وتدفع الثقل إلى الأمعاء والمصارين، ويخرج من الثقب والمواضع المُعَدَّة لذلك، وترد اللطيف الصافي إلى الكبد لتطبخها ثانية وتصفِّيها وتفيض أخلاطها على الأوعية المُعدَّة لقبولها مثل الطحال والمرارة والقلب والكليتين والعروق المجوفة التي هي كالأنهار والجداول في أبدانها ليجري ذلك الدم الصافي فيها إلى سائر أطراف أجسادها، وتخلف بدلًا عمَّا تحلَّل من أبدانها إذ كانتْ أجساد الحيوانات كلها في الذوبان والسيلان من أسباب داخلة، ومن أسباب خارجة.

وما يفضل من تلك المواد في أبدان الذَّكَر فقد جعل الباري الحكيم لها أعضاء وأوعية ومجاريَ يحصل فيها وهي النطفة تجري منها إلى أرحام الإناث عند السفاد والنزو والجماع.

وجُعل في أبدان الإناث أعضاء وأوعية ومجارٍ يحصل فيها وينضاف إليها ما يفضل في أبدان الإناث من الرطوبات المشاكِلات لها على ممر الأيام والشهور، وتجتمع وتكثر ويخلق الباري الحكيم منها صورة مثل أحد الزوجين كما شاء، وكيف شاء كما بيَّنَّا طرفًا من ذلك في رسالة مسقط النطفة، وكل هذه الأسباب والعلل عناية من الباري الحكيم — جلَّ ثناؤه — لبقاء أشخاصها ودوام نسلها زمانًا طويلًا أطول ما يمكن، ويتهيَّأ في ذلك النوع من الحيوان، تبارك الله أحسن الخالقين وأحكم الحاكمين وأرحم الراحمين.

فصل

وأما السباع الآكِلة اللحمان، فإن خِلْقتها وطباعها وتركيب بعض أعضائها الظاهرة والباطنة وأمزجتها وشهواتها مخالِفة لما عليه الحيوانات الآكلة العشب؛ وذلك أن الباري لَمَّا خَلَقها، وجعل غذاءها من أكل اللحمان ومادة أبدانها من جثة الحيوانات جعل لها أنيابًا صِلابًا ومَخَالب مقوَّسة قويَّة وزندات متينة ووَثَبَات خفيفة وقَفَزات بعيدة شديدة تستعين بها على قبض الحيوانات وضبطها وخرق جلودها وشق أجوافها وكسر عظامها ونَهْش لحومها من غير رحمة لها ولا شفقة عليها.

وقد تحيَّر أكثر العقلاء وتاه أكثر العلماء والفلاسفة الحكماء من المحقِّقين بفكرتهم في هذا وبحثهم عن عِلَلها، وما وَجْه الحكمة والصواب في هذا؟ وقد بيَّنَّا نحن ما الحكمة وما الصواب في ذلك في رسالة العِلَل والمعلولات وسنذكر طرفًا منه في هذه الرسالة في فصل آخر إن شاء تعالى.

فصل

اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن الباري الحكيم لَمَّا خلق أجناس الحيوانات المختلفة الصُّوَر والطِّباع والمتصرفات قسَّمها أربعةَ أقسام: فمنها سكان الهواء، وهي أنواع الطيور أكثرها والحشرات جميعها.

ومنها سكان الماء، وهو كل حيوان يسبح في الماء كالسمك والسرطان والضفادع والصدف ونحو ذلك.

ومنها سكان البر، وهي البهائم والأنعام والسباع، ومنها سكان التراب وهي الهوام، وجعل في كل قسم منها بعضًا آكِلًا وبعضًا مأكولًا.

وذلك أن من الطير ما يأكل الحبَّ والثَّمَر، ومنها ما يأكل اللحم وهي الجوارح وكل ما له مخلب ومنقار مقوس لا يقدر أن يلتقط الحَبَّ أو يأكل الثمر.

وهكذا حكم حيوان الماء، بعضه آكِلٌ وبعضه مأكول، وهكذا حكم حيوان التراب من الهوام كالحيات والضبِّ والقَطَايا وأشباهها.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — أن الباري الحكيم لَمَّا خلق الحيوانات التامَّة البنية، قسَّم بنية أجسادها نصفين اثنين يمنة ويسرة، ليكون مطابقًا لأول العدد وللأمور المثنوية العنصرية التي ذكرناها في رسالة المبادئ، وجعلها ثلاث طبقات؛ وسطًا وطرفين؛ ليكون مطابقًا لأول عدد فرد وللأمور ذوات الأوساط والطرفين، وجعل مزاج أبدانها من أربعة أخلاط مطابقًا لأول عدد مجذور، ومطابقًا أيضًا لأربع طبائع بعدد الأركان الأربعة، وجعل لها خمس حواس درَّاكة لصور المحسوسات ومطابقًا لأول عدد دائر ولعدد الطبائع الأربع والخامسة الطبيعة الفلكية، وجعل فيها قوة تتحرك بها إلى ست جهات مطابقًا لأول عدد تام، ولعدد سطوح المكعب وجعل في أبدانها سبع قوًى فعَّالة مطابقًا لأول عدد كامل ولعدد الكواكب السيارة، وجعل في أبدانها ثماني مزاجات؛ أربعة مفردة وأربعة مزدوجة مطابقًا لأول عدد مكعب ولعدد مناسبات الموسيقى، وجعل تركيب أبدانها وتأليف أجسادها من تسع طبقات مطابقًا لأول عدد فرد مجذور، ولعدد طبقات الأفلاك المحيطات، وجعل في أبدانها اثني عشر ثقبًا أبوابًا لحواسها ومآربها مطابقًا لأول عدد زائد ولعدد بروج الفلك، وأسَّس بناء أجسادها على أعمدة ظهورها ثمانٍ وعشرون خرزة مطابقًا لعدد تام ولمنازل القمر، وجعل في أبدانها ثلاثمائة وستين عرقًا لجريان الدم إلى سائر أطراف أبدانها مطابقًا لعدد درج بروج الفلك ولعدد أيام السنة، وعلى هذا القياس والمثال إذا عد واعتبر وجد عدد كل عضو مطابقًا لعدد جنس من الموجودات، فقد تبيَّن بما ذكرنا معنى قول الحكماء الفيثاغوريين إن الموجودات بحسب طبيعة العدد، وذلك تقدير العزيز العليم.

(٢) فصل

في ذكر تصانيف أحوال الطيور وأوقات الطيور وأوقات هيجانها وسفادها، وكيفية اتخاذها أعشاشها، وإصلاح أوكارها، وكمية بيضها ومدة حضانتها، وكيفية تربيتها لأولادها.

فنقول: اعلم يا أخي — أيَّدك الله وإيَّانا برُوح منه — بأن مِن الطيور ما يتزاوج ويتعاشق ويهيج ويسفد في سائر فصول السنة ويعاون الذكر منها الأنثى في تحضين البيض وفي تربية الأولاد كالحمام، ومنها ما لا يعاون لا في الحضانة ولا في تربية الأولاد كالديك، ومنها ما لا يهيج في السنة إلا مرتين عند الفصلين المعتدلين — الربيع والخريف — وفي الصيف، وأكثر الطيور لا تهيج ولا تسفد إلا في آخر الشتاء عند استقبال الربيع، وتبيض فيه وتحضن وتربِّي أولادها لعلمها بطيب الزمان واعتدال الهواء وكثرة الريف والقوت الموجود في أكثر الأماكن.

ومن الطيور ما تتخذ عشاشها بين أغصان الشجر وأوراقها، ومنها ما تتخذه في الأرضين الدغلة بين الحشيش والشوك كالقيج والدُّرَّاج والطَّيْهوج، ومنها في ثقب الحيطان أو في أصول الأشجار، ومنا تحت السقوف، ومنها على رءوس الحيطان والخرابات، ومنها على رءوس الجبال والتلال، ومنها على شطوط الأنهار وسواحل البحار، ومنها ما تتخذ في البراري والقفار وبين الأحجار، ومن طيور الماء ما يأخذ بيضها بإحدى رجليه على صدره ويسبح بالأخرى إلى أن تحضن وتخرج فراخها.

ومن الطيور ما يبيض ويحضن بيضتين، ومنها أربع، ومنها ست، ومنها ثماني، ومنها عشرة، واثنتي عشرة وعشرين وثلاثين.

ومن الطيور ما يربِّي فراخه مما في حوصلته من الحب المنقوع، ومنها ما تُلقِم أفراخَها بمنقارها من الصيد والحب والثمر، ومنها ما تفقص من بيضها بعضًا وتُحسِّيه أفراخَها كالنعامة، ومنها ما يبحث في الأرض ويُلقِي إلى أفراخه الحب والدبيب كالدراج والدَّجَاج.

ومن الطيور ما هو سريع الطيران دائمًا طول النهار كالخطاف، ومنها ما هو ثقيل الطيران قليلًا كالسمان، ومنها بعيد الورد كالقَطَا، ومنها بعيد الأسفار كالغراب، ومنها ما لا يفارق الموطن كالعصافير، ومنها ما تطير في أسفارها قطارًا كقطار الجمال كالكُرْكِيِّ، ومنها ما يطير مصطفًّا متحاذيًا كصف المصلِّين، ومنها ما يطير جماعات مختلطات ملتئمة، ومنها ما يطير مستقبلًا للريح، ومنها ما يطير مستدبرًا لها، ومنها

ما يطير موربًا على الجانب، ومنها ما يطير متوهجًا قاصدًا، ومنها ما يطير مرتفعًا ومنخفضًا ويمنة ويسرة، ومنها ما يطير مستقيمًا قاصدًا، ومنها ما إذا نهض للطيران عدا على وجه الأرض خطوات ثم استعلى في الجو، ومنها ما ينهض منتصبًا دفعة واحدة، ومنا ما يرتقي في جو الهواء مختلفًا مستديرًا كالصاعد إلى المنابر، ومنها ما إذا استقل استقل منعرجًا منعطفًا كالصاعد للعقبة، ومنها ما إذا استقل في جو الهواء أمسك عن تحريك جناحيه، ومنها ما يمسكها تارةً ويحركها تارةً أخرى، ومنها ما إذا أراد النزول إلى الأرض نكس رأسه وزجَّ نفسه منقضًّا ومصوبًا كالمطر يوم الريح، ومنها ما ينزل برفق ملويًّا كما ينزل من المنارة، ومنها ما ينزل منعطفًا يمنة ويسرة كما تنزل الدواب من العقبة، ومنها ما ينزل مدليًا رجليه ضامًّا جناحيه أو مدليًا مرسلًا، وكل واحد من الطيور متناسب الجناحين من الطول والعرض والوزن والعدد، وفي كل جناح أربع عشرة طاقة ريش صلبة قصباتها مجوفة خفاف مصطفَّة من جانب ومتوازية من جانب، وتمامها طاقات أُخَر أقصر منها موفور الدثار من الجانبين يسد خللها طاقات، وعلى أبدان الطائر طاقات من الريش أقصر من ذلك، وهو لباس لها، وفي خللها طاقات أخرى صغار لينة الزبر بينة الريف هي دثار لها، ووطاء وغطاء من الحر والبرد وزينة لها.

وأيضًا أكثر الطير ذنبه مناسب لجناحيه وعدده اثنتا عشرة طاقة أو أنقص.

ومن الطير ما ذنبه أوفر من جناحية كالطاووس، ومنها ما جناحاه وافران طويلان، وذنبه قصير كالكراكي.

ومن الطير ما ينقض عن فرخه البيض، وهو موفَّر عليه ريشه كالدُّرَّاج والدَّجاج، ومنها ما يكون معرًّى من الريش، ثم يخرج ريشه في أيام التربية كفراخ الحمام.

ومن الطير ما على ريشه دهن فلا يبتلُّ كطير الماء، ومنها ما يرمي بريشه في كل سنة ويخرج له غيره، ومنه ما بين أصابع رجليه غشاوات.

ومن طير الماء ما ينهض من الماء في طيرانه، ومنها ما يخرج من الماء إلى الأرض ثم يطير.

ومن الطير ما هو طويل الرجلين والجناحين والعنق والمنقار، ومنها قصير الرقبة طويل المنقار، وأكثر الطيور في طيرانه يجمع رجليه إلى صدره، ومنها ما يمدُّها إلى خلفه مع ذنبه كالكراكي واللقالق.

ومن الطير ما يكون طويل العنق يطوي عنقه في طيرانه، ومنها ما هو يمدُّه إلى قدَّامه كمَالِك الحَزِين.

ومن الجوارح من الطير ما يقبض على الطيور في جو الهواء ويأخذها في طيرانها، ومنها ما إذا لحقها في طيرانها دخل من تحتها مستلقيًا على ظهره وقبض عليها فقَلَبَها، ومنها ما ينحطُّ عليها ويخطفها من وجه الأرض، ومنها ما يقع على رءوس الغزلان وحمير الوحش، وينشب مخالبه فيها ويرفرف بجناحيه على أعينها ويقتلها، والحمام الهادي يَعرِف سمت البلد المقصود بالنظر في جو الهواء إلى جريان الأنهار وميل الأودية ثم ينحو السوادات ويتيامن عن الجبال ويتياسر عنها وعن مهبِّ الرياح في تصاريفها.

وهكذا تَعرِف الطيور التي تشتي في البلاد الدفيئة وتصيف في البلدان الباردة مواقعَها، وأكثر الطيور لها جودة البصر والشم والذوق والسمع، وأما اللمس فدون ذلك من أجْل الريش الذي على جلودها والجوارح من الطيور كلها وافية الجناحين عريضة الأذناب شديدة الطيران قصيرة الرجلين والرقبة طويلة الأفخاذ قوية المخاليب معقربة المناقير، لا تقدر على الْتِقاط الحبوب، بل تأكل اللحمان وتصطاد غيرها.

ومن الطيور ما يلقط الحب ويأكل الثمر، أو يصطاد الحشرات والهوامَّ ويأكل النبت والحشيش.

ومن الطيور ما يطير بالليل والنهار ويسافر ويتعيش.

ومن الطيور ما يطير بالليل دون النهار، وأما أكثرها فبالنهار دون الليل.

ومن الطيور ما يأوي بالليل إلى رءوس الأشجار وبين أغصانها وأوراقها، ومنها ما يأوي إلى رءوس الجبال والتلال والحيطان والقلاع، ومنها ما يأوي إلى الآجام والدغل، ومنها ما يأوي إلى الثقب والأعشاش والأجحرة وتحت السقوف، ومنها ما يأوي إلى الجزائر بين الأنهار والمياه، ومنها ما يبيت في الصحاري وعلى الشطوط ويتحارس بالنُّوَب وعلى السواحل، ومنها ما يبيت في الجو.

ومن الطيور ما ينتبه بالأسحار ويترنَّم ويسبح، ومنها ما يُبكِّر في طلب القُوت، ومنها ما يُسفِر ويتصبَّح ويُضحِي، ثم يمرُّ وينصرف في طلب القوت «تغدو خماصًا وتروح بطانًا.»

ومن الطيور ما يفرِّخ وينشر بالغدوات، ومنها بالعشيات، ومنها في أنصاف النهار، ومنها في يوم الغيم، ومنها في يوم الصحو، ومنها في يوم المطر، ومنها في شدة الحر، ومنها في شدة البرد، ومنها في يوم الريح.

فصل

واعلم يا أخي — أيَّدك اللهُ وإيَّانا برُوحٍ منه — أن من الطيور ما إذا نهض واستقلَّ في جو الهواء في طيرانه يكون كشكل المثلث يبسط بجناحين وافيين منشورَيْن وذنب مثل ذلك مناسب لهما مثل الزرازير والخطاطيف، ومنها ما يكون كشكل المربع بجناحين وافيين منشورين وعنق طويل ممتد من قدام ورجلين طويلتين ممتدتين من خلف وذنب قصير مثل الكراكي واللقالق، ومن الحشرات ما يكون في طيرانه كشكل المسدَّس له أربعة أجنحة من الجانبين ورأس قدام وذنب خلف كالجراد والبقِّ والزنابير.

واعلم يا أخي بأنك إذا تأملتَ واعتبرتَ أبدان الطيور والحشرات وجدتَها كلَّها متزنة الجانبين طولًا وعرضًا، خفَّة وثقلًا، يمنة ويسرة، وخلفًا وقدامًا، ومن أجل هذا إذا نُتف من إحدى جناحيه طاقات ريش اضطرب في طيرانه كرَجُل أعرج في مِشْيَتِه إذا كانت إحدى رجلَيْه أطول والأخرى أقصر، ومن أجْل ذلك أيضًا متى نُتف من ذنبه طاقات ريش اضطرب في طيرانه مكبوبًا على رأسه كمثال زورق أو سمارية في الماء في ثقل صدرها وخفَّة كوائلها، ومن أجْل هذا صار بعض الطيور إذا مدَّ رقبته إلى قدَّام مدَّ رجلَيْه إلى خلف ليتوازن ثقل رجليه بثقل رقبته كالكراكي، ومن الطير ما يطوي رقبته إلى صدره ويجمع رجليه تحت بطنه في طيرانه كمَالِك الحزين، وعلى هذا المثال حكم سائر الطيور والحشرات في طيرانها.

(٣) فصل في بيان بدء الخلق

يُقال إنه لما توالدت أولاد بني آدم وكثرت وانتشرت في الأرض برًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا متصرِّفين فيها في مآربهم آمنين بعدما كانوا قَلِقين خائفين مستوحشين من كثرة السباع والوحوش في الأرض، وكانوا يأوون في رءوس الجبال والتلال متحصِّنين فيها، وفي المغارات والكهوف ويأكلون من ثمر الأشجار وبُقُول الأرض وحب النبات، وكانوا يستترون بأوراق الشجر من الحر والبرد ويشتون في البلدان الدفيئة، ويصيفون في البلدان الباردة، ثم بَنَوْا في سهول الأرض الحصون والقرى والمدن وسكنوها.

ثم سخَّروا من الأنعام البقر والغنم والجِمَال، ومن البهائم الخيل والبغال والحمير وقيَّدوها وألْجَموها وصرَّفوها في مآربهم من الركوب والحمل والحرس والدراس وأتْعَبوها في استخدامها وكلَّفوها أكثر من طاقتها ومنعوها من التصرف في مآربها بعدما كانت

مخلَّيات في البراري والآجام والغياض تذهب وتجيء حيث أرادت في طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها، ونَفَرَتْ منهم بقيَّتُها من حُمُر الوحوش والغزلان والسباع والوحوش والطيور، بعدما كانت مستأنِسة متوالِفة مطمئِنَّة في أوطانها وأماكنها، وهربتْ من ديار بني آدم إلى البراري البعيدة والآجام والدحال ورءوس الجبال، وشمَّر بنو آدم في طلبها بأنواع من الحِيَل والقَنْص والشِّباك والفِخَاخ، واعتقد بنو آدم فيها أنها عبيد لهم، هربتْ وخلعتِ الطاعة وعصَتْ، ثم مضتِ السنون والأيام على ذلك إلى أن بعث الله محمدًا — صلَّى الله عليه وآله — ودَعَا الإنس والجن إلى الله ودِين الإسلام، فأجابتْه طائفة من الجن وحسُنَ إسلامُها، ومضتْ على ذلك مدة من الزمان.

ثم إنه وَلِيَ على بَنِي الجانِّ مَلِك منها يُقال له بيراست الحكيم لقبه شاه مردان، وكانت دار مملكته مردان في جزيرة يُقال لها صاغون في وسط البحر الأخضر مما يلي خط الاستواء، وهي طيِّبة الهواء والتربة فيها أنهار عذْبة وعيون جارية، وهي كثيرة الريف والمرافق وفنون الأشجار وألوان الثمار والرياض والأنهار والرياحين والأنوار، ثم إنه طرحتِ الرياح العاصفة في وقت من الزمان مركبًا من سفن البحر إلى ساحل تلك الجزيرة، وكان فيها قوم من التجار والصُّنَّاع وأهل العِلْم وسائر أغنياء الناس، فخرجوا إلى تلك الجزيرة وطافوا فيها، فوجدوها كثيرة الأشجار والفواكه والثمار والمياه العذبة والهواء الطيب والتربة الحسنة والبقول والرياحين وأنواع الزرع والحبوب مما تنبته أمطار السماء، ورأَوْا فيها أصناف الحيوانات من البهائم والأنعام والطيور والسباع والوحوش والهوامِّ والحشرات أجمع، وهي كلها متآلِفة بعضها في بعض مستأنِسة غير متنافِرة.

ثم إن أولئك القوم استطابوا ذلك المقام، واستوطنوا وبنَوْا هنالك البنيان وسكنوا، ثم إنهم أخذوا يتعرَّضون لتلك البهائم والأنعام التي هناك يُسخِّرونها ليركبوها ويحملوا عليها أثقالَهم على المنوال الذي كانوا يفعلون في بلدانهم، فنفرت منهم تلك البهائم والأنعام التي كانت هناك، وهربتْ وشمَّروا في طلبها بأنواع من الحِيَل في أخذها، واعتقدوا فيها أنها عَبِيد لهم، هربتْ وخلعتِ الطاعة وعصتْ، فلمَّا علمتْ تلك البهائم والأنعام هذا الاعتقاد منهم فيها جمعتْ زعماءَها وخطباءَها، وذهبتْ إلى بيراست الحكيم مَلِك الجن وشكَتْ إليه ما لَقِيَتْ من جَوْر بني آدَمَ وتعدِّيهم عليها واعتقادهم فيها، فبعث ملك الجن رسولًا إلى أولئك القوم ودعاهم إلى حضرته، فذهب طائفة من أهل ذلك المركب إلى هناك، وكانوا نحوًا من سبعين رجلًا من بلدان شتَّى، فلما بلغه قدومُهم أمَرَ لهم بطرح الإنزال والإكرام، ثم أوصلهم إلى مجلسه بعد ثلاثة أيام.

وكان بيراست الحكيم عادلًا كريمًا منصفًا سمحًا يَقرِي الأضياف ويؤْوِي الغُرَباء ويَرحَم المُبتَلَى ويمنع الظلم ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولا يبتغي بذلك غير وجه الله — تعالى — ومرضاته، فلما وصلوا إليه ورأَوْه على سرير ملكه حيَّوْه بالتحية والسلام، فقال لهم الملك على لسان الترجمان: ما الذي جاء بكم إلى بلادنا؟ وما دعاكم إلى جزيرتنا من غير مُراسَلة قبلَ ذلك؟

قال قائل من الإنس: دعانا ما سمعنا من فضائل المَلِك، وما بلغنا من مناقبه الحِسَان ومكارم أخلاقه الجِسَام، وعدله وإنصافه في الأحكام، فجئناه ليسمع كلامنا ويتبيَّن حجَّتَنا، ويحكم بيننا وبين عبيدنا الآبقين، وخَوَلِنا المُنكِرين وِلايتَنا، والله يوفِّق المَلِك للصواب ويسدِّده للرشاد، وهو أحكم الحاكمين.

فقال الملك: قولوا ما تريدون، وبيِّنوا ما تقولون، قال زعيم الإنس: نعم أيها الملك، نقول: إن هذه البهائم والأنعام والسباع والوحوش أجمع عبيد لنا، ونحن أربابها وهي خَوَلٌ لنا ونحن مواليها، فمنها هاربٌ آبِقٌ عاصٍ، ومنها مُطيعٌ كارِهٌ منكِر للعبودية، قال المَلِك للإنسي: ما الدليل والحجة على ما زعمتَ وادَّعَيْتَ؟ قال الإنسي: نعم أيها الملك، لنا دلائل شرعية سمعية على ما قُلْنا، وحُجَج عقلية على ما ادَّعَيْنا، فقال الملك: هاتِ، أوْرِدْها، فقام الخطيب من الإنس من أولاد العباس، ورَقِيَ المنبر وخطب الخطبة وقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلَّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيِّين وإمام المرسلين وصاحب الشفاعة يوم الدِّين، وصلوات الله على ملائكته المقرَّبين، وعلى عباده الصالحين من أهل السموات والأرضين من المؤمنين والمسلمين، وجعلنا وإياكم منهم برحمته وهو أرحم الراحمين.

الحمد لله الذي خلق من الماء بَشَرًا، فجعله نسبًا وصهرًا، وخلق منه زوجة، وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وأكرم ذريَّتَهما وحمَلَهم في البرِّ والبحر، ورزقهم من الطيبات، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ * وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ﴾، وقال: ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾، وقال: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً﴾، وقال: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ﴾، وآيات كثيرة في القرآن والتوراة والإنجيل تدل على أنها خُلقتْ لنا ومن أجلنا، وهي عبيد لنا، ونحن أربابها، وأستغفر الله لي ولكم.

فقال الملك: قد سمِعْتُم يا معشر البهائم والأنعام ما قال الإنسي من آيات القرآن، فاستدلَّ بها على دعواه، فأيُّ شيءٍ لكم وعندكم فيما قال؟ فقام عند ذلك زعيمُها وهو البغل، فقال: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم السرمد الذي كان قبل الأكوان بلا زمان ولا مكان، ثم قال: كن، فكان نورًا ساطعًا أظهره من مكنون غيبه، ثم خلق من النور بحرًا من النار أُجَاجًا، وبحرًا من الماء رجراجًا، ذا أمواج ثم خلق من الماء والنار أفلاكا ذوات أبراج وشهابًا وهَّاجًا، والسماء بناها والأرض دحاها والجبال أرساها وجعل أطباق السموات مسكن العليين وفسحة الأفلاك مسكن الملائكة المقربين، والأرض وضعها للأنام وهو النبات والحيوان، ثم خلق الجان من نار السموم، وخلق الإنسان من طين، ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين في قرار مكين، وجعل ذريته في الأرض يخلفون ليعمروها ولا يُخرِّبوها ويحفظون الحيوانات وينتفعون بها ولا يظلمونها ولا يجورون عليها، أستغفر الله لي ولكم.

ثم قال: ليس في شيء مما قرأ هذا الإنسي من آيات القرآن أيها الملك دلالة على ما زعم أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، إنما هي آيات تذكار بإنعام الله عليهم وإحسانه، فقال لهم: ﴿سَخَّرَهَا لَكُمْ﴾ كما قال سخَّر الشمس والقمر والسحاب والرياح، أفترى أيها الملك بأنها عبيد لهم ومماليك وأنهم أربابها؟

واعلم أيها الملك بأن الله خلق كل ما في السموات والأرض، وجعلها مسخَّرة بعضها لبعض، إما لجَرِّ منفعتِها إليها أو دفْع مضرَّتِها، فسخَّر الله الحيوان للإنسان بما هو لإيصال المنفعة إليها ودفع المضرة عنها، كما سنبيِّن بعد هذا الفصل، لا كما ظنوا وتوهَّموا، وما قالوه من الزور والبهتان بأنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم.

فصل

ثم قال زعيم البهائم: أيها الملك، كنا نحن وآباؤنا سكان الأرض قبل خلق آدم أبي البشر قاطنين في أرجائها، ظاعنين في فِجَاجِها، تذهب وتجيء كل طائفة منَّا في بلاد الله في طلب معائشها، وتتصرف في صلاح أمورها، كل واحد مقبل على شأنه في مكان موافق لمآربه من برية أو أجمة أو جبل أو ساحل أو تلال أو غياض أو رمال، كل جنس منَّا مؤالِف لأبناء جنسه مشتغلين باتخاذ نتاجنا وتربية الأولاد في طيب من العيش بما قدَّر الله لنا من المآكل والمشارب والتمتُّع آمنين في أوطاننا معافَيْنَ في أبداننا نسبِّح الله ونقدِّسه ونوحِّده ليلًا ونهارًا، ولا نعصيه ولا نشرك به شيئًا، ومضتْ على ذلك الدهور والأزمان.

ثم إن الله — جلَّ ثناؤه — خلق آدم أبا البشر، وجعله خليفة في الأرض وتوالد أولاده، وكثرت ذريته وانتشرت في الأرض برًّا وبحرًا وسهلًا وجبلًا، وضيَّقوا علينا الأماكن والأوطان، وأُخذ منَّا مَن أُخذ أسيرًا من الغَنَم والبَقَر والخَيْل والبِغَال والحَمِير، وسخَّروها واستخدموها وأتْعَبوها بالكدِّ والعَنَاء في الأعمال الشاقَّة من الحمل والركوب في السفر والحضر والشدِّ في الفدن والدواليب والطواحين بالقَهْر والغَلَبة والضرب والهوان وألوان من العذاب طول أعمارنا، فهرب منَّا مَن هرب في البراري والقفار ورءوس الجبال، وشمَّر بنو آدم في طلبنا بأنواع من الحِيَل، فمَن وقع منَّا في أيديهم شدُّوه بالغلِّ والقَيْد والقنص والذبح والسلخ وشقِّ الأجواف، وقطع المفاصل ونتف الريش وجزِّ الشعر والوبر، ثم نار الطبخ والوقد والتشوية وألوان من العذاب ما لا يبلغ الوصف كنهها.

ومع هذه الأحوال كلها لا يَرضَى منَّا هؤلاء الآدميون حتى ادَّعَوْا علينا أن هذا حق واجب لهم علينا، وأنهم أرباب لنا ونحن عبيد لهم، فمَن هرب منَّا فهو آبقٌ عاصٍ تارك الطاعة، كل هذا بلا حجة لهم علينا، ولا بيان ولا برهان إلا القهر والغلبة.

فلما سمع الملك هذا الكلام وفهم هذا الخطاب أمر مناديًا فنادى في مملكته، ودعا الجنود والأعوان من قبائل الجن من بني ساسان وبني خاقان وأولاد شيصبان والقضاة العدول والفقهاء من آل إدريس وبني بلقيس وقعد لفصل القضاء بين زعماء الحيوانات والجدليين من الإنس، ثم قال لزعماء الإنس: ما تقولون فيما تحكي هذه البهائم والأنعام من الجَوْر وما يشكون من الظلم والتعدِّي منكم؟

فقال زعيم الإنس: نقول: إن هؤلاء عبيدٌ لنا، ونحن مواليها، ولنا أن نتحكَّم عليها تحكُّم الأرباب ونتصرَّف فيها تصرُّف المُلَّاك كيف شاء، فمَن أطاعنا طاعتُه لله، ومَن عصانا وهَرب فمعصيتُه لله، فقال الملك للإنسي: إن الدَّعاوَى لا تصحُّ عند الحكام إلا بالبيِّنات، ولا تُقبل إلا بالحجَّة الواضحة فيما قلتَ وادَّعَيْتَ، فقال الإنسي: إن لنا حججًا عقلية ودلائل فلسفية تدل على صحة ما قلنا، قال الملك: ما هي؟ بيِّنْها لنعلمها! قال: نعم؛ حُسْن صورتنا، وتقويم بنية هيكلنا وانتصاب قامتنا وجَوْدة حواسِّنا ودقة تمييزنا وذكاء نفوسنا ورجحان عقولنا، كل هذا يدل على أنَّا أرباب وهم عبيد لنا، فقال الملك لزعيم البهائم: ما تقولون فيما قال الإنسي؟ قال: ليس شيء مما قال بدليل على ما ادَّعى هذا الإنسي، قال الملك: أليس انتصاب القيام واستواء الجلوس من شِيَم الملوك؟ وانحناء الأصلاب والانكباب على الوجوه من صفات العبيد؟! قال الزعيم: وفقك الله أيها الملك للصواب، وصرف عنك سوء الأمور، استمع لما أقول.

اعلم بأن الله — جلَّ ثناؤه — ما خلقهم على تلك الصورة ولا سوَّاهم على هذه البنية لتكون دلالة على أنهم أرباب، ولا خلقنا على هذه الصورة وسوَّانا على هذه البنية لتكون دلالة على أننا عبيد، ولكن لعلمه واقتضاء حكمته بأن تلك البنية هي أصلح لهم، وهذه أصلح لنا.

(٤) فصل في بيان علة اختلاف صور الحيوانات

بيان ذلك أن الله — عزَّ وجلَّ — لما خلق آدم وأولاده عُرَاةً بلا ريش على أبدانهم ولا وَبَر ولا صوف على جلودهم يَقِيهم من الحر والبرد، وجعل أرزاقهم من ثمر الأشجار ودثارهم من أوراقها، وكانت الأشجار منتصبة في جو الهواء، جعل أيضًا قامتهم منتصبة ليسهل عليهم تناول الثمر والورق منها، وهكذا لما جعل أرزاقنا من حشيش الأرض جعل بنية أبداننا منحنية ليسهل علينا تناول العشب من الأرض، فلهذه العلة جعل صورهم منتصبة، وصورنا منحنية، لا كما توهَّموا، فقال الملك: ما تقولون في قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟ قال الزعيم: إن للكتب النبوية تأويلات وتفسيرات غير ما يدل عليه ظاهر ألفاظها، يعرفها العلماء الراسخون في العلم، فليسأل الملك أهل الذكر، قال الملك لحكيم الجن: ما معنى قوله: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾؟ قال: في اليوم الذي خُلق فيه آدم كانت الكواكب في إشراقها وأوتاد البروج قائمة، والزمان معتدلًا كثير المواد، وكانت متهيِّئة لقبول الصور، فجاءت بنيته في أحسن صورة وأكمل هيئة، قال الملك: وكفى بهذه الفصيلة كرامة وافتخارًا. قال الحكيم: إن لها معنًى غير ما ذُكر وتبين ذلك بقوله: ﴿فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، يعني لم يجعلك طويلًا دقيقًا ولا قصيرًا لزيقًا؛ بل ما بين ذلك، فقال زعيم البهائم: ونحن كذلك فُعل بنا أيضًا، لم يجعلنا طوالًا ولا دقاقًا ولا قصارًا ولا صغارًا؛ بل بين ذلك، فنحن وهم في هذه الصورة والفضيلة والكرامة بالسوية، فقال الإنسي لزعيم البهائم: مِن أين لكم اعتدال القامة واستواء البنية وتناسب الصورة وقد نرى الجَمَل عظيم الجثة طويل الرقبة صغير الأذنين قصير الذنب، ونرى الفيل عظيم الخلقة طويل النابين واسع الأذنين صغير العينين، ونرى البقر والجاموس طويل الذنب غليظ القرون ليس له أنياب من فوق، ونرى الكبش عظيم القرنين كبير الألية ليس له لحية، والتيس طويل اللحية ليس له ألية مكشوف العورة، ونرى الأرنب صغير الجثة كبير الأذنين؟ وعلى هذا المثال والقياس نجد الحيوانات والسباع والوحوش والطيور والهوام مضطربات البنية غير متناسبة الأعضاء.

فقال زعيم البهائم: هيهات، ذهب عليك أيها الإنسي أحسنها، وخفي عليك أحكمها، أما علمتَ أنك لَمَّا عِبْتَ المصنوعَ فقد عِبتَ الصانع؟! أولا ترى وتعلم بأن هذه كلها مصنوعات الباري الحكيم، خلقها بحكمته لعلل وأسباب وأغراض لجر المنفعة إليها ودفع المضرة عنها، ولا يعلم ذلك إلا هو والراسخون في العلم؟ قال الإنسي: فخبِّرْنا أيها الزعيم إذا كنتَ حكيمَ البهائم وخطيبها، ما العلة في طول رقبة الجمل؟ قال: ليكون مناسبًا لطول قوائمه لينال الحشيش من الأرض ويستعين به على النهوض بحمله، وليبلغ مشفره إلى سائر أطراف بدنه فيحكَّها.

وأما خرطوم الفيل فعِوَض عن طول الرقبة وكبر أذنيه ليذبَّ البقَّ والذباب عمَّا في عينيه وفمه؛ إذ كان فمه مفتوحًا أبدًا لا يمكنه ضم شفتيه لخروج أنيابه منه، وأنيابه سلاح له يمنع بها السباع عن نفسه.

وأما كبر أذن الأرنب فهو من أجْل أن تكون دثارًا لها ووطاءً وغطاءً في الشتاء والصيف؛ لأنه رقيق الجلد تَرِف البدن، وعلى هذا القياس نجد كل حيوان جعل الله — عزَّ وجلَّ — له من الأعضاء والمفاصل والأدوات بحسب حاجته إليه لجر المنفعة أو دفع المضرة، وإلى هذا المعنى أشار موسى — عليه السلام — بقوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

وأما الذي ذكرتَ أيها الإنسيُّ من حسن الصورة وافتخرتَ به علينا، فليس فيه شيء من الدلالة على ما زعمتَ بأنكم أرباب، ونحن عبيد، فإذا كان حسن الصورة شيئًا مرغوبًا فيه عند أبناء الجنس من الذكور والإناث ليدعوهم ذلك إلى الجماع والسفاد والنتاج والتناسل لبقاء النسل، فإننا لا نرغب في محاسن إناثنا ولا إناثنا في محاسن ذكراننا، كما لا يرغب السود في محاسن البيض، ولا البيض في محاسن السود، وكما لا يرغب اللُّوَّاط في محاسن الجواري ولا الزُّناة في محاسن الغلمان، فلا فخرَ لكم علينا بمحاسن الصور أيها الإنسي.

(٥) فصل في بيان جودة الحواس في الحيوانات

وأما الذي ذكرتَه من جودة حواسكم ودقة تمييزكم وافتخرتم به علينا، فليس ذلك لكم خاصة دون غيركم من الحيوانات؛ لأن فيها ما هو أجود حاسة منكم وأدق تمييزًا، فمن ذلك الجَمَل فإنه مع طول قوائمه ورقبته وارتفاع رأسه من الأرض في الهواء يُبصِر ويرى موضع قدَمَيْه في الطرقات الوعرة والمسالك الصعبة في ظُلَم الليل ما لا يرى ولا يبصر

أحدكم إلا بسراج أو مشعل أو شموع، وترى الفرس الجواد يَسمَع وطء الماشي من البعد في ظلمة الليل، حتى إنه ربما نبَّه صاحبه من نَومِه بركضة رجليه حذرًا عليه مِن عدوٍّ أو سبع، وهكذا نجد كثيرًا من الحَمِير والبقر إذا سلك بها صاحبها طريقًا لم يسلكها قبلُ خلاها، ثم رجعتْ إلى مكانها ومعقلها وموضعها المألوف، فلا تَتِيه، وقد يوجد من الإنس مَن قد يسلك طريقًا دفعات ثم إنه يضلُّ فيه ويَتِيه، ونجد من الغنم والشاء ما يَلِد منها في ليلة واحدة عددًا كثيرًا وتسرح من الغد إلى الرعي وتروح بالعشي وتُخلى من الوثاق مائة من البهائم وأكثر، فيذهب كل واحد إلى أمه لا يُشكِل عليها أمهاتها ولا تشتبه، وكذلك أولادها على أمهاتها، والإنسي ربما يمرُّ به الشهر والشهران أو أكثر وهو لا يعرف والدته من أخته، ولا والده من أخيه، فأين وجود الحاسة ودقة التمييز الذي ذكرتَه وافتخرتَ به علينا أيها الإنسي؟!

وأما الذي ذكرتَه من رجحان العقول، فلسنا نرى له أثرًا أو علامة؛ لأنه لو كان لكم عقول راجحة لما افتخرتُم علينا بشيء ليس هو من أفعالكم ولا اكتساب منكم، بل هي مواهب من الله — جلَّ ذِكْرُه — لتعرفوا مواقع النعم وتشكروا له، ولا تعصوه، وإنما العقلاء يفتخرون بأشياء هي مِن أفعالهم من الصنائع المحكمة والآراء الصحيحة والعلوم الحقيقية والمذاهب المرضية والسُّنَن العادلة والطرق المستقيمة، ولسنا نراكم تفتخرون بشيء منها غير دعوى بلا حجة وخصومة بلا بينة.

(٦) فصل في بيان شكاية الحيوان من جَوْر الإنس

قال الملك للإنس: قد سمعتَ الجواب، فهل عندك شيء غير ما ذكرت؟ قال: نعم أيها الملك، هنالك مسائل أُخَر ومناقب غير ما ذكرتُ تدل على أنَّا أرباب وهم عبيد لنا؛ فمن ذلك بَيْعُنا وشراؤنا لها وإطعامنا وسقيانا لها، ونكسوها ونكفيها من الحر والبرد، وندفع عنها السباع أن تفترسها ونداويها إذا مرضت وننفق عليها إذا اعتلَّتْ، ونعلِّمها إذا جَهِلَتْ ونُخليها إذا أَعْيَتْ، ونُعرِض عنها إذا جُنَّتْ، كل ذلك إشفاقًا عليها ورحمة لها، وتحننًا عليها، وكل هذا من أفعال الأرباب بعبيدها والموالي بخولها.

قال الملك للزعيم: قد سمعتَ ما ذكر، فأيُّ شيءٍ عندك؟ أجب! قال زعيم البهائم: أما قوله: إنَّا نبيعها ونشتريها، فهكذا يفعل أبناء فارس بأبناء الروم، وأبناء الروم بأبناء فارس إذا ظَفِر بعضهم ببعض، أفترى أيهم العبيد وأيهم الموالي والأرباب؟! وكذلك يفعل أبناء الهند بأبناء السند، وأبناء السند بأبناء الهند، فأيهم الموالي وأيهم العبيد؟!

وهكذا يفعل أبناء الحبشة بأبناء النوبة، وأبناء النوبة بأبناء الحبشة، وكذلك يفعل أبناء الأعراب والأكراد والأتراك بعضهم ببعض، فأيهم — ليتَ شِعرِي! — العبيدُ وأيهم الموالي بالحقيقة؟! وهل هي أيها الملك العادل إلا دُوَل ونُوَب تدور بين الناس بموجبات أحكام النجوم والقرانات كما ذكر الله تعالى ذلك: وتلك الأيام نداولها بين الناس وما يعقلها إلا العالمون، وأما الذي ذكر بأنَّا نطعمها ونسقيها ونكسوها، وما ذكره من سائر ما يفعلون بنا، فليس ذلك شفقة علينا منهم ولا رحمة لنا، ولا تحننًا علينا ولا رأفةً بنا؛ بل مخافة أن نَهلِك فيخسرون أثماننا وتفوتهم المنافع منَّا من شرب ألباننا ودثارهم من أصوافنا وأوبارنا وأشعارنا وركوبهم ظهورنا وحملهم أثقالهم علينا، لا شفقةً ولا رحمةً كما ذكر، ثم تكلم الحمار، فقال الحمار: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم موقرة ظهورنا بأثقالهم من الحجارة والآجرِّ والتراب والخشب والحديد وغيرها، ونحن نمشي تحتها ونجهد بكدٍّ وعناء شديد وبأيديهم العصا والمقارع يضربون وجوهنا وأدبارنا بحنق وعنف وضجر وصخب، لرَحِمْتَنا ورَثَيْتَ لنا وبكيتَ علينا. أيها الملك، فأين الرحمة؟ وأين الشفقة والرأفة منهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟! ثم تكلم الثور فقال: لو رأيتَنا أيها الملك ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم مقرَّنين في فدانهم مشدودين في دواليبهم وأرحيتهم مغطَّاة وجوهنا مشدودة أعيننا وهم يضربوننا مع ذلك لرحمْتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا، فأين الرحمة والشفقة والرأفة منهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الكبش فقال: أيها الملك لو رأيتَنَا ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم يأخذون صغار أولادنا من الجدي والحملان فيفرِّقون بينها وبين أمهاتها ليستأثروا بألباننا لأولادهم ويجعلوا أولادَنا مشدودة أرجلها وأيديها محمولة إلى المذابح والمسالخ جائعة عطشانة تَصِيح فلا تُرحم، وتصرخ وتستغيث فلا تُغاث، ثم نراها مذبوحة مسلوخة مشقوقة أجوافها مفرَّقة أعضاؤها ورءوسها وكروشها ومصارينها وأكبادها في دكاكين القصَّابين مقطَّعة بالسواطير مطبوخة في القُدُور مشوية في التَّنُّور، ونحن سكوت ولا نبكي ولا نشكو، وإنْ شَكَوْنا أو بكَيْنا لم نُرحَم، فأية رحمة وأية رأفة لهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الجمل فقال: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أُسارى في أيدي بني آدم مخزومة أنوفنا، بأيدي جمَّاليهم خطامنا، يجرُّوننا على كُرْه منَّا محمَّلة ظهورنا بأثقالهم نُقاد ونُساق في ظلم الليل في القفار والفلوات والمسالك الوعرة والحيوانات قائمة في أوطانها، ونحن نمشي بأثقالهم نصدم الصخور والحجارة والدكادك بأخفافنا مقرَّحة جنوبنا

وظهورنا من احتكاك أقتابنا، ونحن جِيَاع عِطَاش لرحمتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك، فأين الرحمة والرأفة علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الفيل فقال: لو رأيتَنا أيها الملك ونحن أُسارَى في أيدي بني آدم والقيود في أرجلنا والقلوس في رقابنا وكلاليب الحديد في أيديهم يضربون بها في أدمغتنا، يضربوننا يمنة ويسرة على كُرْه منَّا، مع كبر جثَّتنا وعظم خلقتنا وطول أنيابنا وشدة قوانا لا نقدر على دفْع ما نَكْرَه لرحمتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك، فأين الرحمة؟ وأين الرأفة لهم علينا كما زعم هذا الإنسي؟!

ثم تكلم الفرس فقال: أيها الملك، لو رأيتَنا ونحن أسارى في أيدي بني آدم واللجم في أفواهنا والسروج على ظهورنا والبطرنجات والحزم مشدودة على أوساطنا والفرسان المدرعة على ظهورنا تزجُّ وتهجم بنا في الغبار عواري جياعًا وعطاشًا، والسيوف في وجوهنا والسهام في نحورنا والرماح في صدورنا، نخوض المياه ونسبح الدماء لرحمْتَنا ورثيتَ لنا وبكيتَ علينا أيها الملك.

ثم تكلم البغل فقال: لو رأيتنا أيها الملك ونحن أسارى في أيدي بني آدم والشكال في أرجلنا واللجم في أفواهنا والحكمات في أحناكنا والأقفال على فروجنا ممنوعين عن شهوات نتاجنا، والأكف على ظهورنا، وسفهاء الإنس من الساسة والركابة فوق ذلك، وبأيديهم العصي والمقارع يضربون وجوهنا وأدبارنا ويشتمونا بأقبح ما يقدرون عليه من الشتم والفحشاء بحنق وغيظ وسفاهة، حتى إنه ربما بلغ به السفه منهم أن يشتموا أنفسهم وأخَوَاتهم وأمَّهاتهم وبناتهم ويقولون: أَيْر الحمار في است مَن باعه واشتراه أو ملكه، يعني به صاحبه، كل ذلك راجع إليهم وهم به أولى.

فإذا فكَّرتَ أيها الملك فيما هم فيه من هذه الأوصاف من السفاهة والجهالة والفحشاء والقبيح من الكلام رأيتَ منهم عجبًا من قلة التحصيل لما هم فيه من الأحوال المذمومة والصفات القبيحة والأخلاق الرديئة والأعمال السيئة والجهالة المتراكمة، والآراء الفاسدة والمذاهب المختلفة، ثم لا يتوبون ولا هم يذَّكَّرون، ولا يتعظون بمواعظ أنبيائهم، ولا يأتمرون بوصية ربهم حيث يقول: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللهُ لَكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إلا على الله رزقها﴾، وقوله تعالى: ﴿لِتَسْتَوُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا

نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ * وَإِنَّا إِلَى رَبِّنَا لَمُنْقَلِبُونَ﴾.

فلما فرغ البغل من كلامه الْتَفَتَ الجمل إلى الخنزير فقال له: قُمْ وتكلَّم واذكر ما تَلقَوْن معشر الخنازير من جور بني آدم، واشكُ إلى الملك الرحيم، فلعله يرقُّ لنا ويرحمنا ويفك أسرنا من أيدي بني آدم، فإنكم من الأنعام.

فقال حكيم من حكماء الجن: لا لعمري، ليس الخنزير من الأنعام، بل من السباع؛ ألا ترى أن له أنيابًا ويأكل الجِيَف؟

وقال قائل آخَر من الجن: بل هو من الأنعام، ألا ترى أن له ظلفًا، ويأكل العشب والعلف؟ وقال الآخَر: لا، بل هو مركَّب من السباع والأنعام والبهائم، مثل الفيل والزرافة مركبة من الحمار والجمل.

ثم قال الخنزير للجمل: والله، ما أدري ما أقول! وعمَّن أشكو من كثرة اختلاف القائلين في أمرنا!

أما حُكَماء الجن فقد سمعتَ ما قالوا، وأما الإنس فهم أكثر اختلافًا في أمرنا وأبعد رأيًا ومذهبًا؛ وذلك أن المسلمين يقولون إنَّا ممسوخون ملعونون، ويستقبِحُون صورتَنَا ويستثقلون أرواحنا ويستقذرون لحومنا، ويتشاءمون من ذِكْرِنا، وأما أبناء الروم فيتنافسون في أكل لحومنا في قرابينهم ويتبرَّكون بها إلى الله.

أما اليهود فيُغضبوننا ويشتموننا ويلعنوننا من غير ذنب منَّا إليهم، ولا جنايةً عليهم، لكنْ لعداوة بينهم وبين النصارى، وأبناء الروم وأبناء الأرمن، فحُكْمنا عندهم كحكم البقر والغنم عند غيرهم يتبرَّكون بنا من خصب أبداننا وسمن لحومنا وكثرة نتاجنا وغزارة ألباننا.

وأما الأطباء من اليونانيين، فيتداوَوْن بشحومنا ويتواصفونها في أدويتهم وعلاجاتهم.

وأما ساسة الدواب فيُخالطوننا بدوابِّهم وعلفها؛ لأن حالها يصلح عندهم بمخالطتنا وشمِّها روائحَنا.

وأما الأساكفة والجرازون فيتنافسون في شعر أعرافنا ويتبادرون في نتْف أسلتنا في شدة حاجتنا إليها، فقد تحيَّرنا، لا ندري لَمن نشكر وممَّن نشكو وممَّن نتظلم؟!

فلما فرغ الخنزير من كلامه التفتَ الحمار إلى الأرنب، وكان واقفًا بين قوائم الجمل، فقال له: قمْ فتكلَّم، واذكر ما تلقَوْن معشر الأرانب من جور بني آدم! واشكُ إلى الملك الرحيم؛ لعله يرحمنا وينظر في أمرنا ويفك أسرنا من أيدي بني آدم!

فقال الأرنب: أمَّا نحن فقد هربنا من بني آدم وتركنا دخول ديارهم وأوينا إلى الدِّحال والغِياض، وسلِمْنا من شرورهم، ولكنَّا بُلِينا بالكلاب والخيل والجوارح ومعاونتهم لبني آدم علينا، وحملهم إلينا وطلبهم لنا ولإخواننا من الغزلان وحُمُر الوحوش وبقرها وإبلها والوعول الساكنة في الجبال اعتصامًا بها.

ثم قال الأرنب: أما الكلاب والجوارح وتعاونهم لبني آدم فهم معذورون في معاونة الإنس علينا، لما لها من النصيب في أكل لحومنا؛ لأنها ليست من أبناء جنسنا، بل من السباع.

أما الخيل فلأنها منَّا، معاشِرَ البهائم، وليس لها نصيب في أكل لحومنا، فما لها ومعاونة الإنس علينا لولا الجهالة وقلة المعرفة وقلة التحصيل للأمور والحقائق؟

فصل في بيان تفضيل الخيل على سائر البهائم وغيرها

قال الإنسي للأرنب: أقصِرْ! فقد أكثرتَ اللَّوْم والذمَّ للخيل، ولو علمتَ أنها خير حيوان سخَّرتْه الإنس لما تكلَّمتَ بهذا الكلام، قال الملك للإنسي: وما تلك الخيرية التي قلتَها؟ اذكرها! قال: خصال محمودة، وأخلاق مَرْضِيَّة، وسيرة عجيبة، من ذلك حُسْن صورتها وتناسُب أعضاء أبدانها، وبنية هيكلها، وصفاء لونها، وحسن شعرها، وسرعة عَدْوِها، وطاعتها لفارسها، كيف شاء وكيف أراد صرفَها انقادتْ له يمنة ويسرة وقدامًا وخلفًا في الطلب والهرب، وذكاء نفسها وجودة حواسِّها، وحُسْن آدابها، ربما لا تبول ولا تروث مادام راكبها عليها، ولا تحرِّك ذنَبَها إذا ابتلَّ شعر ذنبها؛ لئلا يصيب صاحبها، ولها قوة الفيل وتحمِل راكبها بخوذته وجوشنه وسلاحه، مع ما لها من السرج واللجام والتجافيف وآلة الحديد نحو ألف رطل عند سرعة العدو، ولها صبر الحمار عند اختلاف الطعن في صدرها ونحْرِها في الهيجاء وسرعة عدوها في الغارات والطلب كحملات السرحان، وتمشي كمشي السِّنَّوْر في التبختُر، وهرولة كذئب يتنقل، وعطفات أيضًا كعطفات جلمود الصخر إذا حطَّه السيل، ومبادرة للعَدْو في الرِّهان كمَن يطلب الحلبة، قال الأرنب: نعم، ولكنْ لها مع هذه الخصال المحمودة والأخلاق الجميلة عيبٌ كبير يغطِّي هذه الخصال كلها.

فقال الملك: ما هو؟ بيِّن لي! قال: الجهالة، وقلَّة معرفة بالحقيقة؛ وذلك أنه يعدو تحت صاحبه الذي لم يَرَهُ قطُّ في الهرب مثل ما يعدو تحت صاحبه الذي وُلِد في داره وتربَّى في منزله في الطَّلَب، ويحمل عدوَّ صاحبه إليه في طلَبِه كما يحمل صاحبه في طلب عدوِّه، وما مثله في هذه الخصال إلا كمثل السيف الذي لا روح فيه ولا حس ولا شعور

ولا معرفة، فإنه يقطع عنق صيقله كما يقطع عنق مَن أراد كسرَه وتعويجه وعيبه أنه لا يعرف الفرق بينهما.

ثم قال الأرنب: ومثل هذه الخصال موجودة في بني آدم، وذلك أن أحدهم ربما يُعادي والدَّيْه وصاحبَه وإخوانه وأقرباءه، ويكيدهم ويسيء إليهم مثل ما يفعله بالعدوِّ البعيد الذي لم يَرَ منه برًّا ولا إحسانًا قط، وذلك أن هؤلاء الإنس يشربون ألبان هذه الأنعام كما يشربون ألبان أمَّهاتهم، ويركبون ظهور هذه البهائم كما يركبون أكتاف آبائهم صغارًا، وينتفعون بأصوافها وأوبارها وأشعارها أثاثًا ومتاعًا إلى حين، ثم آخِرَ الأمْرِ يذبحونها ويسلخونها، أو يشقون أجوافها ويقطعون مفاصلها ويذيقونها نار الطبخ والشَّيِّ، ولا يرحمونها ولا يذكرون إحسانها إليهم، وما نالوا من فضلها وبركتها.

فلما فرغ الأرنب من لَوْمه الإنس والخيل وما ذكر من عيوبهم، قال الحمار: لا تُكثِر من اللوم، فإنه ما من أحد من الخلق أُعطِيَ فضائل ومواهب جمَّة إلا وقد حُرم ما هو أكثر منها، وما من أحد حُرم مواهب إلا وقد أُعطِيَ شيئًا لم يُعطَه غيره؛ لأن مواهب الله كثيرة لا يستوفيها كلها شخص واحد، ولا نوع ولا جنس واحد؛ بل فُرِّقت على الخلق طرًّا، فمُكثِر ومُقِلٌّ، وما مِن شخص آثار الربوبية فيه أظْهَر إلا ورقُّ العبودية عليه أبْيَن، مثل ذلك نَيِّرا الفلك وهما الشمس والقمر، فإنهما لما أُعطِيا من مواهب الله حظًّا جزيلًا من النور والعظمة والظهور والجلالة حتى إنه ربما توهَّم قوم أنهما ربان إلهان لبيان آثار الربوبية فيهما حُرِما بدلَ ذلك التحرُّز من الكسوف ليكون دليلًا لأولي الألباب على أنهما لو كانا إلهين لما انكسفا، وهكذا حكم سائر الكواكب الفلكية لَمَّا أُعطِيَت الأنوار الساطعة والأفلاك الدائرة والأعمار الطويلة، حرمت التحرُّز من الاحتراق والرجوع والهبوط لتكون آثار العبودية عليها ظاهرة، وهكذا حكم سائر الخلق من الجن والإنس والملائكة، فما منها أحد أُعطِيَ فضائل جمَّة ومواهب جزيلة إلا وقد حُرم ما هو أكبر وأجلُّ، وإنما الكمال لله الواحد القهار العزيز الغفار الشديد العقاب، ومن أجْل ما ذكرنا قيل:

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخًا لا تَلُمُّه على شعثٍ أيُّ الرِّجالِ المُهَذَّبُ؟

فلما فرغ الحمار من كلامه تكلم الثور وقال: لكن ينبغي لَمَن وفر حظُّه من مواهب الله — تعالى — أن يؤدِّي شكرَها، وهو أن يتصدَّق من فضل ما أُعطِي على مَن قد حُرم ولم يُرزَق منها شيئًا.

أما ترى الشمس لما وفر حظُّها جزيلًا من النور كيف تفيض من نورها على الخلق ولا تمُنُّ عليهم، وكذلك القمر والكواكب، كل واحد على قدره، وكان سبيل هؤلاء الإنس لما أعطوا من مواهب الله — تعالى — ما قد حُرم غيرهم من الحيوان أن يتصدَّقوا عليها ولا يمنون.

ولما فرغ الثور من كلامه ضجَّتِ البهائم والأنعام وقالت جميعًا: ارحمنا أيها الملك العادل الكريم، وخذْ بأيدينا وخلِّصْنا من جور هؤلاء الإنس الآدميين الظلمة، فالْتَفَتَ الملك عند ذلك إلى جماعة ممَّن حضر من حكماء الجن وعلمائهم فقال: ألا تسمعون شكاية هذه البهائم والأنعام وما يصفون من جور بني آدم عليها وظلمهم لها وتعدِّيهم عليها وقلة رحمتهم بها؟!

قالوا: قد سَمِعْنا كلَّ ما قالوا، وهو حقٌّ وصدق، ومُشاهَد منهم ليلًا ونهارًا لا يَخفَى على العقلاء ذلك، ومن أجْل ذلك هربتْ بنو الجان من بين أيديهم وظهرانَيْهِم إلى البراري والقفار والمفاوز والفلوات ورءوس الجبال والتلال وبطون الأودية وسواحل البحار لما رأَوْا من قبيح أفعالهم وسوء أعمالهم ورداءة أخلاقهم، وتركت أن تأوي ديار بني آدم، ومع هذه الخصال كلها لا يتخلَّصون من سوء ظنهم ورداءة أخلاقهم واعتقادهم في الجن، وذلك أنهم يقولون ويعتقدون أن للجن في الإنس نزغات وخبطات وفزعات في صبيانهم ونسائهم وجُهَّالهم، حتى إنهم يتعوَّذون من شر الجن بالتعاويذ والرُّقَى والأحراز والتمائم وما شاكلها، ولم يَرَوْا قط جنيًّا قتل إنسيًّا أو جرحه أو أخذ ثيابه أو سرق متاعه أو نقب داره أو فتق جيبه أو بتر كمَّه أو فشَّ قفل دكَّانه أو قطع على مسافر أو خرج على السلطان أو أغار غارة أو أخذ أسيرًا، وكل هذه الخصال توجد فيهم، ومنهم بعضًا لبعض ليلًا ونهارًا، ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون.

فلما فرغ القائل من كلامه نادى منادٍ: ألا أيها الملأ، أمسيتم! فانصرفوا إلى مساكنكم مكرمين، لتعودوا غدًا آمنين.

(٧) فصل في بيان منفعة المشاورة لذوي الرأي

ثم إن الملك لما قام من المجلس خلا بوزيره بيراز، وكان رجلًا عاقلًا رزينًا فيلسوفًا حكيمًا، فقال له الملك: قد شاهدتَ المجلس وسمعتَ ما جرى من هؤلاء الطوائف الوافدين من الكلام والأقاويل، وعلمتَ فيما جاءوا له، فبماذا تُشِير أن نفعل بهم؟ وما الرأي الصواب الذي عندك؟

قال الوزير: أيَّد الله الملك وسدَّده وهداه الرشاد، الرأي الصواب عندي أن يأمر الملك قُضاة الجن وفقهاءها وحكماءها وأهل الرأي أن يجتمعوا عنده ويستشيرهم في هذا الأمر، فإن هذه قصة عظيمة وخطب جليل وخصومة طويلة، والأمر فيها مُشكِل جدًّا، والرأي مشترك، والمشاورة تزيد ذوي الرأي الرصين بصيرة، وتُفيد المتحيِّر رشدًا، والحازم اللبيب معرفة ويقينًا.

فقال الملك: نِعْمَ ما رأيتَ، وصوابٌ ما قلت، ثم أمر الملك بعد ذلك بإحضار قضاة الجن من آل جرجيس والفقهاء من بني ناهيد، وأهل الرأي من بني بيران الحكيم، والحكماء من آل لقمان، وأهل التجارب من بني هامان، والحكام والفلاسفة من بني كيوان، وأهل الصرامة والعزيمة من آل بهرام، فلما اجتمعوا عنده خلا بهم، ثم قال لهم: قد علمتم وُرُود هذه الطوائف إلى بلادنا، ونزولهم بساحتنا، ورأيتم حضورهم مجلسنا، وسمعتم أقاويلهم ومناظراتهم وشكاية هذه البهائم الأسيرة من جور بني آدم، وقد استجاروا بنا واستذمُّوا بذمامنا، وتحرَّموا بطعامنا، فماذا ترون؟ وما الذي تشيرون أن نفعل بهم؟ قال رأس الفقهاء من أهل ناهيد: بسط الله يد الملك بالقدرة، ووفقه للصواب، أما الرأي عندي أن يأمر الملك هذه البهائم أن يكتبوا قصتهم، ويذكروا فيها ما يَلْقَوْن من جور بني آدم ويأخذون فيها فتاوى الفقهاء، فإن في هذا خلاصًا لهم ونجاة من الظلم، فإن القاضي سيحكم لهم إمَّا بالبيع أو بالعتق أو بالتخفيف والإحسان إليهم، فإن لم يفعل بنو آدم ما حكم به، وهربت هذه البهائم منهم، فلا وِزْرَ عليها، فقال الملك للجماعة: ماذا تَرَوْن فيما قال وأشار؟ فقالوا: صوابًا ورشادًا، ثم أشار غير صاحب العزيمة من آل بهرام، فإنه قال: أرأيتم إنِ استباعتْ هذه البهائم وأجابتْها بنو آدَم إلى ذلك، مَن ذا الذي يَزِن أثمانها؟ قال الفقيه: المَلِك، قال: مِن أين؟ قال: مِن بيت مال المسلمين من الجن، قال صاحب الرأي: ليس في بيت المال ما يَفِي بأثمان هذه البهائم، وخصلة أخرى: أن كثيرًا من بني آدم لا يرغبون في بيعها لشدة حاجتهم إليها واستغنائهم عن أثمانها؛ مثل الملوك والأشراف والأغنياء، وهذا أمر لا يتم، فلا تُتعِبوا أفكارَكم في هذا، فقال الملك: فما الرأي الصواب عندك؟ قل لنا. قال: الصواب عندي أن يأمر الملك هذه البهائم والأنعام الأسيرة في أيدي بني آدم أن تُجمِع رأيَها وتهرب كلها في ليلة واحدة، وتبعد من ديار بني آدم كما فعلت حُمُر الوحْش والغزلان والوحوش والسباع وغيرها، فإن بني آدم إذا أصبحوا لم يجدوا ما يركبون ولا ما تحمل أثقالهم امتنعوا عن طلبها لبُعْد المسافة ومشقَّة الطريق، فيكون هذا نجاةً لها وخلاصًا من جور بني آدم، فعزم الملك على هذا

الرأي، ثم قال لَمن كان حاضرًا: ماذا تَرَوْن فيما قال وأشار؟ قال رئيس الحكماء من آل لقمان: هذا عندي أمرٌ لا يتم، فلا تُتعِبوا أنفسَكم، فهو بعيد المرام؛ لأن أكثر هذه البهائم لا تكون بالليل إلا مقيدة أو مُغلَّلة، والأبواب عليها مغلقة، فكيف يتسنَّى لها الهرب في ليلة واحدة؟!

قال صاحب العزيمة: يبعث الملك تلك الليلة قبائل الجن يفتحون لها الأبواب ويحلُّون عُقُلَها وأوثاقها، ويُخبِلون حرَّاسها إلى أن تبعد البهائم، واعلم أيها الملك بأن لك في هذا أجرًا عظيمًا، وقد محضتُك النصيحة لما أدركني من الرحمة لها، وإن الله — تعالى — لما علم من الملك حسن النية وصحة العزيمة، فإنه يُعينه ويؤيِّده وينصره إذا شكر نعمته بمعاونة المظلومين، وتخليص المكروبين، فإن في بعض كتب الأنبياء — عليهم السلام — مكتوبًا يقول الله عز وجل: أيها الملك، إنِّي لم أسلِّطْك لتجمع المال وتتمتع وتشتغل بالشهوات واللذات، ولكن لتردَّ عني دعوة المظلوم، فإني لا أردُّها ولو كانت من كافر، فعزم الملك إلى ما أشار به صاحب الرأي، ثم قال لَمن حوله من الحضور: ماذا تَرَوْن فيما قال؟ قالوا: محَّض النصيحة وبذل المجهود، فصدَّقوا رأيَه جميعًا غير حكيم من آل كيوان، فإنه قال: بصَّرك الله أيها الملك خفِيَّات الأمور، وكشف عن بصرك مشكلات الأسباب والدهور، إن في هذه الأسباب والعمل خَطْبًا جليلًا لا تؤمن غائلة عاقبته، ولا يُستدرَك إصلاح ما فات منه، ولا ما فرط، فقال الملك: عرِّفنا يا حكيم ما الرأي؟ وما الذي يُخاف ويُحذر؟ بيِّن لنا لنكون على علم وبصيرة، قال: نعم، أرأيتَ أيها الملك إن تمَّ ما أُشير به عليك من وجْه نجاة هذه البهائم من أيدي بني آدم وهربها من أيديهم، أليس بنو آدم من الغد يُصبِحون وقد رَأَوْا حادثًا عظيمًا من فرار هذه البهائم وهربها من ديارهم فيعلمون يقينًا بأن ذلك ليس من فعل البهائم ولا من تدبير الإنس، بل لا يشكُّون بأن ذلك من فعل الجن وحيلتهم! قال الملك: لا شك فيه، قال: أليس بعد ذلك كلما فكَّر بنو آدم فيما فاتها من المنافع والمرافق بهربها منهم امتلأت حزنًا وغيظًا وغمًّا وأسفًا على ما فاتها وحقدت على بني الجان عداوة وبغضًا، وأضمرت لهم حيلًا ومكائد ويطلبونهم كل مطلب، ويرصدونهم كل مرصد، ويقع بنو الجان عند ذلك في شغل وعداوة ووَجَل كانوا في غنًى عنه.

وقد قالت الحكماء: إن اللبيب العاقل هو الذي يُصلِح بين الأعداء، ولا يَجلِب إلى نفسه عداوة، ويجر المنافع إلى غيره ولا يضر نفسه، قالت الجماعة: صدق الحكيم الفيلسوف الفاضل، ثم قال القائل من الحكماء: ما الذي يُخاف ويُحذر من عداوة الإنس لبني الجان

أيها الحكيم أنْ ينالوهم من المكاره، وقد علمتَ بأن الجان أرواح خفيفة نارية تتحرك علوًّا طبعًا، وبنو آدم أجساد أرضية ثقيلة تتحرك بالطبيعة سفلًا، ونحن نراهم ولا يَرَوْنا، ونسير فيهم ولا يُحِسُّون بنا، ونحن نُحيطهم وهم لا يمسوننا، فأي شيء يُخاف منهم علينا أيها الحكيم؟ فقال له الحكيم: هيهات، ذهب عنك عظامها، وخفي عليك أجسامها، أما علمتَ أن بني آدم وإن كانت لهم أجساد أرضية ثقيلة؛ فإن لهم أرواحًا فلكية ونفوسًا ناطقة ملكية بها يفضلون عليكم ويمتازون عنكم؟! واعلموا أن لكم فيما مضى من أخبار القرون الأولى معتبرًا ومختبرًا، وفيما جرى بين بني آدم وبين بني الجان في الدهور السالفة دليلًا واضحًا، فقال الملك: أخبرنا أيها الحكيم كيف كان؟ وحدِّثْنا بما جرى من الخطوب، وكيف تم ذلك؟

(٨) فصل في بيان العداوة بين بني الجان وبين بني آدم وكيف كانت

قال الحكيم: نعم، إنَّ بين بني آدم وبني الجان عداوة طبيعية، وعصبية جاهلية، وطباعًا متنافرة يطول شرحها، قال الملك: اذكرْ منها طرفًا، وابتدِئ من أوَّله، قال الحكيم: فاعلم أن بني الجان كانتْ في قديم الأيام والأزمان قبل آدم أبي البشر — عليه السلام — سكان الأرض وقاطنيها، وكانوا قد طبَّقوا الأرض برًّا وبحرًا، سهلًا وجبلًا، فطالَتْ أعمارُهم وكثرت النعمة لديهم، وكان فيهم المُلْك والنُّبُوَّة والدِّين والشريعة، فطَغَتْ وبَغَتْ وتركتْ وصية أنبيائها وأكثرتْ في الأرض الفساد، فضجَّتِ الأرض ومَن عليها من جورهم، فلما انقضى الدور واستؤنف القِرَان أرسل الله — تعالى — جندًا من الملائكة نزلت من السماء فسكنتِ الأرض، وطردتْ بني الجان إلى أطراف الأرض منهزمة، وأخذت سبيًا كثيرًا منها، وكان فيمن أُخذ أسيرًا عزازيل إبليس اللعين فرعون آدم، وهو إذ ذاك صبيٌّ لم يُدرِك.

فلما نشأ مع الملائكة تعلَّم من علمها وتشبَّه بها في ظاهر الأمر، وأخذ من رسومه وجوهره غير رسومها وجوهرها، ولما طالتِ الأيام صار رئيسًا فيها آمرًا ناهيًا متبوعًا حينًا ودهرًا من الزمان والدهر، فلما انقضى الدور واستؤنف القِرَان أَوْحَى الله إلى أولئك الملائكة الذين كانوا في الأرض فقال لهم: إني جاعلٌ في الأرض خليفة من غيركم، وأرفعكم إلى السماء»، فكرهَتِ الملائكة الذين كانوا في الأرض مفارقة الوطن المألوف، وقالتْ في مراجعة الجواب: أتجعلُ فيها مَن يُفسِد فيها ويسفك الدماء كما كانت بنو الجان، ونحن نسبِّح بحمدك ونقدس لك؟! قال: «إني أعلم ما لا تعلمون؛ لأنِّي آلَيْتُ على نفسي أنْ لا أترك على وجه الأرض أحدًا من الملائكة، ولا من الإنس ولا من سائر الحيوان»، ولهذا

اليمين سرٌّ قد بيَّناه في موضع آخَر، فلما خلق الله — تعالى — آدم وسوَّاه ونفخ فيه من روحه، وخلق زوجته حواء أَمَرَ الملائكة الذين كانوا في الأرض بالطاعة، فانقادتْ لهما جميعًا ما عدا عزازيل، فإنه أَنِفَ وتكبَّر وأخذتْه الحَمِيَّة حميَّة الجاهلية والحسد لما رأى أن رياسته قد زالتْ ويحتاج أن يكون تابعًا بعدما كان متبوعًا، ومرءوسًا بعدما كان رئيسًا، فأمر أولئك الملائكة أن يصعدوا بآدم عليه السلام فأدخلوه الجنة، وهي بستان من الشرق على رأس جبل الياقوت الذي لا يقدر أحد من البشر أن يصعد هنالك وهي طيبة التربة معتدلة الهواء شتاءً وصيفًا، ليلًا ونهارًا كثيرة الأنهار مخضرة الأشجار مفننة الثمار والفواكه والرياض والرياحين والأنهار والأزهار كثيرة الحيوانات غير المؤذية والطيور الطيبة الأصوات اللذيذة الألحان والنغمات، وكان على رأس آدم وحواء شعر طويل مدلًّى كأحسن ما يكون على الجواري والأبكار، يبلغ قدميهما ويستر عورتيهما، وكان دثارًا لهما وسترًا لهما وزينة وجمالًا، وكانا يمشيان على حافات تلك الأنهار، ويشمَّان من الرياحين والأزهار، ويأكلان من ثمار تلك الأشجار ويشربان من مياه تلك الأنهار بلا تعبٍ من الأبدان، ولا عناءٍ من النفوس، ولا مشقة من كدِّ الحرث والنسل والزرع والسقي والحصاد والدراس والطحن، والخبز والغزل والنسج والخياطة والغسل، وما اليوم أولادهما به مبتلَوْن من شقاوة أسباب المعاش في هذه الدنيا، وكان حكمهما في تلك الجنة حكم الحيوانات التي هناك مستودعين مستريحين متلذِّذين، وكان الله — تعالى — أَلْهَمَ آدم أسماء تلك الأشجار والثمار والرياحين وأسماء تلك الحيوانات التي هناك.

فلما نطق آدم سأل الملائكة عنها، فلم يكن عندها جواب، فغدا عند ذلك آدم معلِّمًا يُعرِّفها أسماءها ومنافعها ومضارَّها، فانقادت الملائكة لأمره ونهيه لما تبيَّن لها فضله عليها.

ولَمَّا علم عزازيل ذلك ازْداد بُغْضًا وحسدًا لهما بالمكر والخديعة والحِيَل والدغل والغِشِّ، ثم أتاهما بصورة الناصح فقال لهما: لقد فضَّلَكما ربكما بما أنعم به عليكما من الفصاحة والبيان، ولو أكلتما من هذه الشجرة، لازددتما علمًا وبقيتما ها هنا خالدين آمنين لا تموتان، فاغترَّا بقوله لَمَّا حلف لهما: إني لكما لمن الناصحين، وحملهما الحِرصُ، فتسابقا وتناولا ما كان منهيَّيْن عنه.

فلما أكلا منها تناثرتْ شعورهما وانكشفتْ عوراتهما وبقيا عريانين، وأصابهما حر الشمس فاسودَّتْ أبدانهما وتغيَّرتْ ألوان وجوههما، ورأتِ الحيوان حالهما فأنكرتْهما ونفرَتْ منهما واستوحشَتْ من سوء حالهما، وأمر الله — تعالى — الملائكة أنْ أخرِجوهما

من هناك، فرَمَوْهما إلى أسفل الجبل، فوقعا في برِّيَّة قفراء، لا نبت فيها ولا ثمر، وبقيا هناك زمانًا طويلًا يبكيان وينوحان حزنًا وأسفًا على ما فاتهما نادمين على ما كان منهما.

ثم إن رحمة الله — تعالى — تداركتْهما، فتاب الله — تعالى — عليهما، وأرسل ملكًا يعلِّمهما الحَرْث والزَّرْع والدِّرَاس والحَصَاد والطَّحْن والخَبْز والغَزْل والطَّبْخ والخياطة واتخاذ اللباس.

ثم لَمَّا توالدا وتناسلا وكثرت ذريتهما خالَطَهم أولاد بني الجان، وعلَّموهم الصنائع والحرث والغرس والبنيان والمنافع والمضارَّ وصادقوهم، وتودَّدوا إليهم وعاشروهم مدة من الزمان بالحُسْنى، ولكن كلما ذكر بنو آدم ما جرى على أبيهم من كيد عزازيل وعداوته لهم امتلأتْ قلوب بني آدم غيظًا وحقدًا على بني الجان، فلما قتل قابيل هابيل اعتقدتْ أولاد هابيل بأن ذلك من تعليم بني الجان، فازدادوا غيظًا وعداوة، وطلبوهم كل مطلب واحتالوا عليهم بكل حيلة من العزائم والرُّقَى والمَنَادِل والدخن ودخان النفط والكبريت والحبس في القوارير والعذاب بألوان الدخان والبخارات المؤذية لأولاد بني الجان المنفِّرة لهم، المُشَتِّتة لأغراضهم، فكان ذلك دأبهم إلى أن بعث الله إدريس النبي — عليه السلام — وهو هرمس بلغة الحكماء، فأصلح بين بني الجان وبين أولاد آدم — عليه السلام — بالدِّين والشريعة والإسلام والملة وتراجعت بنو الجان إلى ديار بني آدم وخالطوهم وعاشوا فيها معهم بخير إلى أيام الطوفان، وبعد ذلك إلى أيام إبراهيم، فلما طُرح في النار اعتقد بنو آدم بأن تعليم المنجنيق كان من بني الجان لنمرود الجبار، فلما طرح إخوة يوسف — عليه السلام — أخاهم في الجُبِّ نُسب ذلك إلى نزغات الشيطان من أولاد الجان.

فلما بعث الله موسى — عليه السلام — أصلح بين بني الجان وبني إسرائيل بالدِّين والشريعة، ودخل كثير من الجن في دين موسى عليه السلام.

فلما كان أيام سليمان بن داود — عليهما السلام — شيَّد الله ملكه وسخَّر له الجن والشياطين، وغلب سليمان — عليه السلام — على ملوك الأرض، افتخرت الجن على الإنس بأن ذلك كان من معاونة الجن لسليمان وقالت: لولا معاونة الجن لسليمان كان حكمه حكم أحد ملوك بني آدم، وكانت الجن تُوهِم الإنس أنها تعلم الغيب.

فلما كان موت سليمان — عليه السلام — والجن في العذاب المُهِين لم تشعر بموته، فتبيَّن أنها لو كانتْ تعلم الغيب ما لبثوا في العذاب المهين.

وأيضًا لما جاء الهدهد بخبر بلقيس وقال سليمان — عليه السلام — ما قال للملأ من الجن والإنس: أيكم يأتيني بعرشها؟ افتخرتِ الجن، قال عفريتٌ من الجن وهو أضطر بن مايان من آل كيوان: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك؛ أي مجلس الحكمة، قال سليمان: أريد أسرع من هذا، قال الذي عنده علم من الكتاب: «أنا آتيك به قبل أن يرتدَّ إليك طرفك»، وهو آصف بن برخيا.

فلما رآه مستقرًّا عنده خرَّ سليمان — عليه السلام — ساجدًا لله — تعالى — وتبيَّن فضْل الإنس على الجن، وانقضى المجلس وانصرفت الجن من المجلس من هناك خجلين منكِّسين رءوسهم وغوغاء الإنس يتغطغطون في أثرهم، ويستقفون أثرهم شامتين بهم.

فلما جرى ما ذكرتُه هربتْ طائفة من الجن من سليمان، وخرج عليهم خارج منهم، فوجَّه سليمان — عليه السلام — في طلبهم من جنوده، وعلَّمهم كيف يأخذونهم بالرُّقَى والعزائم والكلمات والآيات المنزَّلات، وكيف يحسبونهم بالمنادل، وعمل في ذلك كتابًا وُجد في خزانته بعد موته، وشغل سليمانُ — عليه السلام — طغاة الجن بالأعمال الشاقَّة إلى أن مات.

ثم لما بُعث المسيح — عليه السلام — دعي الخلق من الجن والإنس إلى الله — تعالى عزَّ وجلَّ — ورغَّبهم في لقائه، وبيَّن لهم طريق الهدى، وعلَّمهم كيف الصعود إلى ملكوت السموات، فدخل في دينه طوائف من الجن وترهَّبتْ وارتقتْ إلى هناك، واستمعتْ من الملأ الأعلى الأخبار، وألقتْ إلى الكهنة.

فلما بعث الله محمدًا — صلى الله عليه وآله — مُنعتْ من استراق السمع، وقالت: «لا ندري أشرٌّ أُريد بمَن في الأرض أم أراد بهم ربهم رشدًا؟» ودخلت قبائل من الجن في دينه وحسن إسلامُها وانصلح الأمر بين بني الجان وبين المسلمين من أولاد آدم — عليه السلام — إلى يومنا هذا.

ثم قال الحكيم: يا معشر الجن! لا تتعرَّضوا لهم ولا تفسدوا الحال بينكم وبينهم، ولا تحرِّكوا الأحقاد الساكنة، ولا تثيروا الأضغان الكامنة والبغضاء والعداوة القديمة المركوزة في الطباع، والجِبِلَّة، فإنها كالنار الكامنة في الأحجار تَظهَر عند احتكاكها، فتشتعل بالكباريت، فتحترق المنازل والأسواق، ونعوذ بالله من ظفر الأشرار ودولة الفُجَّار والعار والبوار، فلما سمع الملك والجماعة هذه القصة العجيبة أطرقتْ مفكِّرة فيما سمعتْ.

ثم قال الملك الحكيم: فما الرأي الصواب عندك في أمر هذه الطوائف الواردة المستجيرة بنا؟ وعلى أي حال نصرفهم من بلادنا راضين بالحكم الصواب؟

قال الحكيم: الرأي الصواب لا يسنح إلا بعد التثبُّت والتأنِّي بالفكْر والرويَّة والاعتبار بالأمور الماضية، والرأي عندي أن يجلس الملك غدًا في مجلس النظر ويحضر الخصوم ويسمع عنهم ما يقولون من الحجة والبيان، ليتبيَّن له على مَن يتوجَّه الحُكْم، ثم يدبِّر الرأي بعد ذلك.

قال صاحب العزيمة: أرأيتم إنْ عجزتْ هذه البهائم عن مقاومة الإنس في الخطاب بقصورها عن الفصاحة والبيان، واستظهرت الإنس عليها بذرابة ألسنتها وجودة عبارتها وفصاحتها، أترى أن تبقَى هذه البهائم أسيرة في أيديهم ليسوموها سوء العذاب دائمًا؟ قال: لا، ولكن تَصِير هذه البهائم في الأَسْر والعبودية إلى أن ينقضي دور القِرَان، ويُستَأْنَف نشوء آخَر، ويأتي الله لها بالفرج والخلاص كما نجَّى آل إسرائيل من عذاب فرعون، وكما نجَّى آل داود من عذاب بختَ نصر، وكما نجَّى آل حِمْيَر من عذاب آل تُبَّع، وكما نجَّى آل ساسان من عذاب اليونان، وكما نجَّى آل عمران من عذاب أزدشير.

فإن أيام هذه الدنيا دُوَل بين أهلها، تدور بإذن الله — تعالى — وسابِق علمه ونفاذ مشيئته بموجبات أحكام القرانات والأدوار في كل ألف سنة مرة، أو في كل اثنتي عشر ألف سنة مرة، أو في كل ستة وثلاثين ألف سنة مرة، أو في كل ثلاثمائة ألف وستين ألف سنة مرة، أو في كل يوم مقداره خمسين ألف سنة مرة، فاعلم جميع ذلك.

(٩) فصل في بيان كيفية استخراج العامة أسرار الملوك

فنقول: اعلم أن الملك لما خلا بوزيره ذلك اليوم اجتمعتْ جماعة الإنس في مجلسهم، وكانوا سبعين رجلًا من بلدان شتَّى، فأخذوا يرجمون الظنون، فقال قائل منهم: قد رأيتم وسمعتم ما جرى اليوم بيننا وبين هؤلاء عبيدنا من الكلام الطويل، ولم تنفصل الحكومة فترى أي شيء رأى الملك في أمرنا؟ فقالوا: لا ندري، ولكن نظن أنه قد لحق الملك من ذلك ضَجَرٌ وشغل قلب، وأنه لا يجلس غدًا للحكومة بيننا وبينهم، قال الآخر: لكنْ أظن أنه يخلو غدًا مع وزيره ويشاوره في أمرنا، قال الآخر: بل يجمع غدًا الفقهاء والحكماء ويشاورهم في أمرنا، قال الآخر: ترى ما الذي يُشيرون به في أمرنا، فأظن أن الملك حسن الرأي فينا، ولكنْ أخاف أن الوزير ربما يَمِيل علينا ويَحِيف في أمرنا، قال الآخر: أمرُ الوزير سهل، نحمل إليه شيئًا من الهدايا يَلِين جانبُه ويَحسُن رأيُه، وقال الآخر: ولكنْ أخاف من شيء آخر، قالوا: وما هو؟ قال: فتاوى الحكماء والفقهاء وحكم الحاكم، قال: هؤلاء أمرهم أيضًا سهل نحمل إليهم شيئًا من التُّحَف والرشوة فيحسن

رأيهم فينا ويطلبون لنا حيلًا فقهية، ولا يُبالون بتغيير الأحكام، ولكن بليتنا والذي نخاف منه صاحب العزيمة فإنه صاحب الرأي والصواب والصرامة صلب الوجه وَقِح لا يُبالِي بأحد، فإن استشاره أخاف أن يُشِير عليه بالمعاونة لعبيدنا علينا ويعلمه كيف ينتزعها من أيدينا.

وقال آخر: القول كما ذكرتَ، ولكنْ إنِ استشار الملك الفلاسفة والحكماء يُخالِفونه في الرأي؛ فإن الحكماء إذا اجتمعتْ ونظرتْ في الأمور سَنَحَ لكل واحد منهم وجه من الرأي غير الذي يسنح للآخر فيختلفون فيما يُشيرون به، ولا يكادون يجتمعون على رأي واحد.

وقال آخر: أرأيتم إنِ استشار الملك القضاة والفقهاء، ماذا يُشيرون به علينا في أمرنا؟ قال الآخر: لا تخلو فتاوى الفقهاء وحكم القضاة من أحد ثلاثة وجوه: إما عتقُها وتخليتُها من أيدينا أو بيعُها وأخذ أثمانها أو التخفيفُ عنها والإحسان إليها، ليس في حكم الشريعة وأحكام الدين غير هذا.

وقال آخر: أرأيتم إنِ استشار الملك الوزير في أمرنا ماذا يشير عليه؟

ليتَ شعري! قال قائل منهم: أظنه سيقول: إن هذه الطوائف قد نزلوا بساحتنا واستذمُّوا بذمامنا واستجاروا بنا وهم مظلومون ونصرة المظلوم واجبة على الملوك المقسطين؛ لأنهم خلفاء الله في أرضه ملَّكهم على عباده وبلاده ليحكموا بينهم بالعدل والإنصاف، ويعينوا الضعفاء ويرحموا أهل البلاء، ويقمعوا أهل الظلم، ويجبروا الخلق على أحكام الشريعة، ويحكموا بينهم بالحق؛ شكرًا لنِعَم الله عليهم وخوفًا من مساءلتهم غدًا.

وقال آخر: أرأيتم لو أمَرَ الملكُ القاضيَ أن يحكم بيننا فيحكم بأحد الأحكام الثلاثة؟ ماذا تقولون؟ وماذا تفعلون؟ قالوا: ليس لنا أن نخرج من حكم الملك، ولا من حكم القاضي؛ لأن القضاة خلفاء الأنبياء والملك حارس الدِّين.

وقال آخر: أرأيتم إنْ حكم القاضي بعتقها وتخلية سبيلها، ماذا تصنعون؟ قال أحدهم: نقول مماليكنا وعبيدنا ورثناهم عن آبائنا وأجدادنا، ونحن بالخيار إن شئنا فعلنا وإن شئنا لم نفعل.

قالوا: وإن قال القاضي: هاتوا الصكوك والوثائق والعهود والشهود بأن هؤلاء عبيدكم ورثتموهم عن آبائكم، قالوا: نجيء بالشهود من جيراننا وعدول بلادنا، قال: إن قال القاضي إني لا أقبل شهادة الإنس بعضهم لبعض على هذه البهائم أنها عبيد لهم؛

لأنهم كلهم خصماء لها، وشهادة الخصم لا تُقبل في أحكام الدين أو يقول القاضي: أين الوثائق والصكوك والعهود؟ هاتوها وأحضروها إن كنتم صادقين، ماذا نقول ونفعل عند ذلك؟ فلم يكن عند الجماعة جواب في ذلك غير العباسي، فإنه قد قال نقول: لقد كانت لنا عهود ووثائق وصكوك، ولكنها غَرِقَتْ في أيام الطوفان، قالوا: فإن قال القاضي: احلفوا بأيمانٍ مغلَّظة أنها عبيد لكم، قال: نقول لا يتوجَّه اليمين إلا على المنكرين، والبيِّنة على المدَّعِين، ونحن مدَّعون فلا يتوجَّه علينا اليمين، قال: فإن استحلف القاضي هذه البهائم، فحلفتْ بأنها ليستْ بعبيد لكم ماذا تفعلون؟ قال قائل منهم: نقول إنها قد حنثتْ فيما حلفتْ، ولنا حُجَج عقلية وبراهين ضرورية تدل على أنها عبيد لنا.

قال: أرأيتم إن حكم القاضي ببيعها وأخذ أثمانها، فماذا تقولون وماذا تفعلون؟ قال أهل المدن: نبيعها ونأخذ أثمانها وننتفع بها، فقال أهل الوبر من الأعراب والأكراد والأتراك والبوادي: هلكنا والله إن فعلنا ذلك، الله الله في أمرنا، ولا تحدثوا أنفسكم بهذا، فقال لهم أهل المدن: لم ذاك؟ قالوا: لأنَّا إذا فعلنا ذلك بقينا بلا لبن نشرب ولا لحم نأكل ولا ثياب من صوف ولا دثار من وبر ولا أثاث من شعر، ولا نِعال ولا خفٍّ ولا نِطَع ولا قِرْبة، ولا غطاء ولا لبود، ولا وطاء، فنبقى عراة حفاة أشقياء بسوء الحال، ويكون الموت خيرًا لنا من الحياة، ويصيب أهل المدن مثل ما أصابنا، فلا تعتقوها ولا تبيعوها، ولا تحدثوا أنفسكم بهذا الحديث، بل الإحسان إليها والتخفيف عنها والرفق بها والتحنُّن عليها والرحمة لها، فإنها لحم ودم مثلكم تحس وتتألَّم، ولم يكن لكم سابقة عند الله جازاكم بها حين سخرها لكم، ولا كان لها جناية عند الله عاقبها بها، ولا ذنب، ولكن الله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا رادَّ لحكمه، ولا مبدِّل لقضائه، ولا منازع له في ملكه ولا خلاف لمعلومه، أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم لي ولكم إنه الغفور الرحيم.

فصل

ولما قام الملك من مجلسه وانصرفت طوائف الحضور اجتمعت البهائم، فخلصت نجيًّا، فقال قائل منهم: قد سمعتم ما جرى بيننا وبين خصمائنا من الكلام والمناظرة، ولم تنفصل الحكومة على شيء، فما الرأي عندكم؟ قال قائل منهم: نعود في غدٍ، ونشكو ونبكي ونتظلَّم، فلعل الملك يرحمنا ويفك أَسْرَنا، فإنه قد أدركتْه الرحمة علينا اليوم، ولكن ليس من الرأي الصواب للملوك والحكام أن يحكموا بين الخصوم إلا بعد أن يتوجَّه الحكم على أحد الخصمين بالحجَّة الواضحة والبينة العادلة، والحجة لا تصحُّ إلا

بالفصاحة والبيان وذرابة اللسان، وهذا حاكم الحكام محمد رسول الله صلى الله عليه وعلى آله — يقول: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون أَلْحَنَ بحجة من بعض، فأحكم له، فمَن قضيتُ له بشيء من حق أخيه، فلا يأخذ منه شيئًا، فإني إنما أقطع له قطعة من النار.»

واعلموا أن الإنس أفصح منًّا لسانًا وأجود بيانًا، وإنَّا نخاف عليكم أن يحكم لهم علينا غدًا عند الحِجَاج والمناظرة، فما الرأي الصواب عندكم؟ قولوا! فإن كل واحد من الجماعة إذا فكَّر سَنَحَ لكل واحد وجه من الرأي صوابًا كان أو خطأ.

قال قائل منهم: الرأي الصواب عندي أن نرسل رسلًا إلى سائر أجناس الحيوانات، فنعرِّفهم بالخبر ونسألهم أن يبعثوا إلينا زعماءهم وخطباءهم ليعاونونا فيما نحن فيه، فإن لكل جنس منها فضيلة ليستْ للأخرى بضروب من التمييز، والرأي الصواب والفصاحة والبيان والنظر والحجج، وإذا كثر الأنصار يُرجَى الفلاح والنجاح، والنصر من الله، ينصر مَن يشاء والعاقبة للمتقين.

فقالت الجماعة حينئذٍ: صوابًا ما رأيتَ، ونِعْمَ ما أشرتَ، فأرسَلُوا ستةَ نفَرٍ إلى ستة أجناس من الحيوان وسابعها كانوا هم حضورًا من البهائم والأنعام، منها رسولًا إلى الحشرات، ورسولًا إلى الطيور، ورسولًا إلى السباع، ورسولًا إلى الجوارح، ورسولًا إلى الهوامِّ، ورسولًا إلى حيوان الماء.

(١٠) فصل في بيان تبليغ الرسالة

ثم بعد ذلك رتَّبوا الرُّسُلَ، وبعثوا إلى كل واحد منهم، فلما وصل الرسول إلى أبي الحارث الأسد ملك السباع وعرَّفه الخبر، وقال له: إن زعماء البهائم والأنعام مجتمعون مع زعماء الإنس عند ملك الجن للمناظرة، وقد بعثوا إلى سائر أجناس الحيوانات يستمدون منها، وبعثوني إليك لترسل معي زعيمًا من جنودك من السباع ليُناظِر وليَنُوب عن الجماعة من أبناء جنسه إذا دارتِ النوبة في الخطاب إليه، فقال الملك للرسول: وماذا يزعم الإنس؟ وما يدَّعون على البهائم والأنعام؟ قال الرسول: يزعمون أنها عبيد لهم، وخَوَل وأنهم أرباب لها، ولسائر أجناس الحيوانات التي على وجه الأرض.

قال الأسد: وبماذا يفتخر الإنس عليها ويستحقون الربوبية؟ أبالقوة والشجاعة والجسارة، أم بالحملات والوثبات، أم بالقبض والإمساك بالمخالب، أو بالقتال والوقوف في الحرب، أم بالهيبة والغلبة؟ فإن كانوا يفتخرون بواحدة من هذه الخصال جمعتُ

جنودي ثم ذهبْنَا حتى نحمل عليهم حملة واحدة ونفرِّق جمعَهم ونشتِّت شملهم. قال الرسول: لعمري، إن من الإنس مَن يفتخر بمثل هذه الخصال التي ذكرها الملك، ولهم مع ذلك أعمال وصنائع وحِيَل ومرافق ومكائد لاتخاذ السلاح من السيوف والرماح الردينيات والحراب والسكاكين والنشَّاب والقِسِيِّ والجُنَن والاحتراز من مخالب السباع وأنيابها، باتخاذ لباس اللبود والجواشن والفرغندات والدروع والخوذ والزرد، ممَّا لا تنفذ فيها أنياب السباع، ولا تصل إليها مخالبُها، ولهم مع ذلك حِيَل أخرى في أخْذ السباع والوحوش من الخنادق المحفورة والزُّبْيات المستورة، والصناديق المعمولة والفِخَاخ المنصوبة، والوهق والستائر وآلات أُخَر لا تعرفها السباع فتحذرها ولا تهتدي كيف الخلاص منها إذا وقعتْ هي فيها، ولكن ليس الحكومة ولا المناظرة بحضرة ملك الجن بخصلة من هذه، وإنما الحِجَاج والمُناظرة بفصاحة الألسنة وجودة البيان ورجحان العقول ودقة التمييز.

فلما سمع الأسد قول الرسول وما أخبره به فكَّر ساعة ثم أمر مناديًا ينادي، فاجتمعتْ عنده جنودُه من أصناف السباع والوحوش من النمور والفهود والدببة وبنات آوى والذئاب والثعالب وسنانير البر والضباع وأصناف القرود وبنات عِرْس، وبالجملة كل ذي مخلب وناب يأكل اللحمان.

فلما اجتمعتْ عند المَلِك عرَّفها الملك الخبر وما قال الرسول ثم قال: أيُّكم يذهب إلى هناك فينوب عن الجماعة فنضمن له ما يريد ويتمنَّى علينا من الكرامة والقُربى إذا هو نجح في المناظرة والحُجَّة في الحِجَاج، فسكتَتِ السباع ساعة متفكرة هل أحد يصلح لهذا الشأن أم لا، ثم قال النمر للأسد: أنت مَلِكُنا ومولانا ونحن عبيدك ورعيَّتك وجنودك، وسبيل الملك أن يدبِّر الرأي ويشاور أهل البصيرة بالأمور، ثم يأمر وينهى ويدبِّر الأمور كما يجب، وسبيل الرعية أن يسمعوا ويطيعوا؛ لأن الملك من الرعية بمنزلة الرأس من الجسد، والرعية والجنود بمنزلة الأعضاء من البدن، فمتى قام كل واحد منها بما يجب من الشرائط انتظمت الأمور واستقامت، وكان في ذلك صلاح الجميع وفلاح الكل.

فقال الأسد للنمر: وما تلك الخصال والشرائط التي قلت إنها واجبة على الملك والرعية؟ بيِّنْها لنا. قال: نَعَم، أمَّا الملك فينبغي أن يكون رجلًا عاقلًا أديبًا لبيبًا سخيًّا شجاعًا عادلًا رحيمًا عالي الهِمَّة كثير التحنُّن شديد العزيمة صارمًا في الأمور متأنِّيًا ذا رأي وبصيرة، ومع هذه الخصال ينبغي أن يكون مشفقًا على رعيته متحنِّنًا على جنوده وأعوانه رحيمًا بها كالأب المشفق على أولاده الصغار شديد العناية بصلاح أمورهم.

وأما الذي يجب على الرعية والجنود والأعوان، فالسمع والطاعة للملك والمحبة له والنصيحة لأعوانه، وأن يعرِّفه كل واحد منهم ما عنده من المعرفة، وما يُحسِن من الصناعة وما يَصلح له من الأعمال، ويعرف الملك أخلاقه وسجاياه؛ ليكون الملك على علم منه، وينزل كل واحد منهم منزلته، ويستخدمه فيما يحسن ويستعين به فيما يصلح له.

قال الأسد: لقد قلت صوابًا ونطقتَ حقًّا، فبوركتَ من رحيم ناصح لِمَلِكِه ولإخوانه ولأبناء جنسه، فما الذي عندك من المعاونة في هذه الأمور التي قد دُعِينا إليها واستُعِين بنا فيها؟

قال النمر للأسد: سَعِد نجمُك وظَفِرت يداك أيها الملك، إن كان الأمر يمشي هناك بالقوة والجَلَد والغلبة والقهر والحمل والحقد والحنق والحمية فأنا لها.

قال الملك: لا يمشي الأمر هناك بشيء مما ذكرتَ.

قال الفهد: إن كان الأمر يمشي هناك بشيء من الوثبات والقفزات والقبض والبسط فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الذئب: إن كان الأمر يمشي هناك بالغارات والخصومات والمكابرات فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الثعلب: إن كان الأمر يمشي هناك بالختل والحيلة والعطفات والزوغات وكثرة الالْتِفات والمَكْر فأنا لها، قال الملك: لا.

قال ابن عِرْس: إن كان الأمر يمشي باللصوصية والتجسس والاختفاء والسرقة فأنا لها، قال الملك: لا.

قال القِرْد: إن كان الأمر يمشي هناك بالخُيَلاء والمَجَانة واللعب واللهو والرقص وضرب الطبل والدف فأنا لها، قال الملك: لا.

قال السِّنَّوْر: إن كان الأمر يمشي هناك بالتواضُع والسؤال والكدية والمؤانسة والتخرخر فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الكلب: إن كان الأمر يمشي هناك بالبصبصة وتحريك الذنب واتِّباع الأثر والحراسة والنباح فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الضبع: إن كان الأمر يمشي هناك بنبش القبور وجرِّ الجِيَف وحرب الكلاب والكراع وثقل الروح فأنا لها، قال الملك: لا.

قال الجُرَذ: إن كان الأمر يمشي هناك بالإضرار والإفساد والقرض والقطع والسرقة والإخراب فأنا لها، قال الملك: لا يمشي الأمر هناك بشيءٍ من هذه الخصال التي ذكرتموها.

ثم أقبل الأسد على النمر وقال: إن هذه الخصال والطباع والأخلاق والسجايا التي ذكرتْ هذه الطوائف من أنفسها لا تصلح إلا لجنود الملوك من بني آدم وسلاطينهم وأمرائهم وقادة الجيوش وولاة الحروب وهم إليها أحوج وأَلْيق بهم؛ لأن أنفسهم سبعية وإن كانت أجسادهم بشرية وصورهم آدمية.

أما مجالس العلماء والفقهاء والحكماء وأهل العقل والرأي والعلم والتمييز فإن أخلاقهم وسجاياهم أشبه بأخلاق الملائكة الذين هم سكان السموات وجنود رب العالمين، فمَن تُرى يصلح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة؟

قال النمر: صدقتَ أيها الملك فيما قلتَ، ولكنْ أرى العلماء والفقهاء من بني آدم قد تركوا هذه الطريقة التي قلت أنها أخلاق الملائكة، وأخذوا في ضروب من أخلاق الشياطين من المُكابَرة والمغالبة والتعصب والعداوة والبغضاء فيما يتناظرون ويتجادلون من الصياح والسفاهة، وهكذا مَن نجدهم في مجالس القضاة والحكام يفعلون ما ذكرتُ وتركوا استعمال الأدب والعقل والنصيحة والعدل، قال: صدقتَ، ولكنَّ رسول الملك يجب أن يكون رجلًا عاقلًا حكيمًا خبيرًا فاضلًا منصفًا كبيرًا لا يميل ولا يجنف في الأحكام، فمن تُرى أن نبعثه إلى هناك رسولًا وزعيمًا يفي بخصال الرسالة، وليس في جماعة الحاضرين مَن يفي بها ها هنا.

(١١) فصل في بيان صفة الرسول كيف ينبغي أن يكون

قال النمر للأسد: ما تلك الخصال التي ذكرتَ أيها الملك أنها يجب أن تكون في الرسول؟ بيِّنْها لنا. قال الملك: نَعَم، أوَّلُها: يحتاج أن يكون رجلًا عاقلًا حسن الأخلاق بليغ الكلام فصيح اللسان جيد البيان حافظًا لما يسمع، محترزًا فيما يجيب ويقول، مؤديًا للأمانة، حسن العهد، مراعيًا للحقوق، كتومًا للسر، قليل الفضول في الكلام، لا يقول من رأيه شيئًا غير ما قيل له إلا ما يرى فيه صلاح المُرسِل، ولا يكون شَرِهًا ولا يكون حريصًا إذا رأى كرامة عند المرسَل إليه مال إلى جهته وخان مرسِلَه واستوطن البلد لطيب عيشه هناك أو كرامة يجدها أو شهوة ينالها هناك، بل يكون ناصحًا لمرسِله ولإخوانه وأهل بلده وأبناء جنسه، ويبلغ الرسالة ويرجع بسرعة إلى مرسِله، فيعرِّفه جميع ما جرى من أوله إلى آخره، ولا يخاف في شيء منه في تبليغ رسالته مخافة من مكروه يناله، فإنه ليس على الرسول إلا البلاغ.

ثم قال الأسد للنمر: فمَن تُرى يصلح لهذا الأمر من هذه الطوائف؟ قال النمر: لا يصلح لهذا الشأن إلا الحكيم العادل والعالم الخبير كليلة أخو دمنة، قال الأسد لابن آوى

ما تقول فيما قال فيك؟ قال: أحسن الله جزاءه، وأطاب عنصره، قال ما يشبهه من الفضل والكرم، قال الملك لابن آوى: فهل تنشط وتمضي إلى هناك وتنوب عن الجماعة، ولك الكرامة علينا إذا رجعتَ وأفلحتَ، قال: سمعًا وطاعة لأمر الملك، ولكن لا أدري كيف أعمل وكيف أصنع مع كثرة أعدائي هناك من أبناء جنسنا؟

قال الملك: مَن هم؟ قال: الكلاب أيها الملك، قال: ما لها؟ قال: أليس قد استأمنت إلى بني آدم وصارت مُعِينة لهم علينا معشرَ السباع؟!

قال الملك: ما الذي دعاها إلى ذلك وحملها عليه حتى فارقتْ أبناء جنسها وصارت مع مَن لا يُشاكِلها مُعينة لهم على أبناء جنسها؟ فلم يكن عند أحد من ذلك علم غير الذئب، فإنه قال: أنا أدري كيف كان السبب، وما الذي دعاها إلى ذلك.

قال الملك: قل لنا، وبيِّنه لنعلم كما تعلم. قال: نَعَم، أيها الملك إنما دعا الكلاب إلى مجاورة بني آدم ومداخلتهم مشاكلة الطباع ومجانسة الأخلاق، وما وجدت عندهم من المرغوبات واللذات من المأكولات والمشروبات، وما في طباعها من الحرص والشَّرَه واللؤم والبخل وما في جِبِلَّتها من الأخلاق المذمومة الموجودة في بني آدم مما السباع عنه بمعزل، وذلك أن الكلاب تأكل اللحمان ميتًا وجيفًا ومذبوحًا قديدًا ومطبوخًا ومشويًّا ومالحًا وطريًّا وجيدًا ورديئًا وثمارًا وبقولًا وخبزًا ولبنًا وحليبًا وحامضًا وجبنًا وسمنًا ودسمًا ودبسًا وشيرجا وناطفًا وعسلًا وسويقًا وكوامخ، وما شَاكَلَها مِن أصناف مأكولات بني آدم التي أكثر السباع لا يأكلها ولا يعرفها، ومع هذه الخصال كلها، فإن بها من الشَّرَه واللؤم والبخل ما لا يمكنها أن تترك أحدًا من السباع أن يدخل قرية أو مدينة، مخافةً أن ينازعها في شيء مما هي فيه حتى إنه ربما يدخل أحد من بنات آوى أو بنات أبي الحصين قرية بالليل ليسرق منها دجاجة أو ديكًا أو سِنَّوْرًا أو يجرَّ جِيفة مطروحة أو كسرة مرمية أو ثمرة متغيرة، فترى الكلاب كيف تحمل عليه وتطرده وتخرجه من القرية، ومع هذا كله أيضًا نرى بها من الذل والمسكنة والفقر والهوان والطمع ما إذا رأى في يد أحد من بني آدم من الرجال والنساء والصبيان رغيفًا أو كسرة أو تمرة أو لقمة كيف يطمع فيها، وكيف يتبعه ويبصبص بذنبه ويحرِّك برأسه ويحد النظر إلى حدقته حتى يستحي أحدهم فيرمي بها إليه، ثم تراه بعدُ كيف يعدو إليها بسرعة، وكيف يأخذها بعجلة مخافة أن يسبقه إليها غيره، وكل هذه الأخلاق المذمومة موجودة في الإنس والكلاب، فمجانسة الأخلاق ومشاكلة الطباع دعتِ الكلاب إلى أن فارقت أبناء جنسها من السباع واستأنست من الإنس، وصارت مُعينتهم على أبناء جنسها من السباع.

قال الملك: ومَن غيرهم مِن المستأمِنة إلى الإنس من السباع؟ قال الذئب: السنانير أيضًا، قال الملك: ولِمَ استأنستِ السنانير أيضًا؟ قال العلة واحدة وهي مشاكلة الطِّباع لأن السنانير بها أيضًا من الحرص والشَّرَه والرغبة في ألوان المأكولات والمشروبات مثل ما بالكلاب.

قال الملك: كيف حالُها عندهم؟ قال: هي أحسن حالًا من الكلاب قليلًا، وذلك أن السنانير تدخل بيوتهم وتنام في مجالسهم، وتحت فُرُشهم وتحضر موائدهم فيُطعِمونها مما يأكلون ويشربون، وهي أيضًا تسرق منهم أحيانًا إذا وجدت فرصة من المأكولات.

وأما الكلاب فلا يتركونها تدخل بيوتهم ومجالسهم وبين الكلاب وبين السنانير بهذا السبب حسد وعداوة شديدة، حتى إن الكلاب إذا رأتْ سِنَّوْرًا خرجتْ من بيوتهم حملت عليها حملة تريد أن تأخذها وتأكلها وتمزقها، والسنانير إذا رأتِ الكلاب نفخت في وجوهها ونفشت شعورها وأذنابها وتطاولت وتعظمت كل ذلك عنادًا لها، وعداوة ومناصبة وحسدًا وبغضًا وتنافسًا في المراتب عند بني آدم.

قال الأسد للذئب: مَن رأيتَ أيضًا من المستأنِسة غير هذين من جنس السباع؟ قال: الفأر والجرذان يدخلون منازلهم وبيوتهم ودكاكينهم وخاناتهم غير مستأنسين، بل على وحشة ونفور.

قال: فماذا يحملها على ذلك؟ قال: الرغبة في المأكولات والمشروبات من الألوان، قال: مَن يُداخلهم أيضًا من أجناس السباع؟ قال: ابن عِرْس على سبيل اللصوصية والخِلْسة والتجسس، قال: ومَن غيرها مَن يداخلهم؟ قال: لا غير، سوى الأسارى من الفهود والقرود على كُرْه منها.

ثم قال الملك للذئب: متى استأنستِ الكلاب والسنانير إلى الإنس؟ قال: منذ الزمان الذي استظهرتْ فيه بنو قابيل على بني هابيل، قال: كيف كان ذلك؟ حدِّثنا ذلك.

قال: لما قَتَلَ قابيلُ أخَاه هابيلَ طالَبَ بنو هابيل من بني قابيل بثأر أبيهم، فاقتتلوا وتحاربوا، واستظهرت بنو قابيل على بني هابيل فهزموهم ونهبوا أموالهم، وساقوا مواشيهم من الأغنام والبقر والخيل والبغال والجمال، وغنموا واستغنَوْا، فأصلحوا الدعوات والولائم، وذبحوا حيوانات كثيرة ورموا برءوسها وأكارعها وكروشها حول ديارهم وقُرَاهم، فلما رأتْها الكلاب والسنانير رغبت جميعًا في كثرة الريف والخصب ورغد العيش، فداخلتْهم وفارقتْ أبناء جنسها، وصارتْ معهم مُعينة إلى يومنا هذا.

فلما سمع الملك الأسد ما ذكره الذئب من هذه القصة قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، إنا لله وإنا إليه راجعون، واستكثر من هذه الكلمات وتكرارها، فقال له

الذئب: ما الذي أصابك أيها الملك الفاضل؟ وما هذا التأسف على مفارقة الكلاب والسنانير لأبناء جنسها؟ قال الأسد: ليس تأسُّفي على شيء فاتني منهم، ولكن لِمَا قالتِ الحُكَماء بأنه ليس شيء على الملوك أضرَّ ولا أفسدَ لأمرهم وأمر رعيتهم من المستأمن من جندهم وأعوانهم إلى عدوهم؛ لأنه يعرف أسرارهم وأخلاقهم وسريرتهم وعيوبهم وأوقات غفلتهم والنصحاء من جنودهم والخونة من رعيتهم، فيدلُّه على طرقات خفية ومكائد دقيقة، وكل هذه ضارة للملوك وجنودها، لا بارك الله في الكلاب والسنانير!

قال الذئب: قد فعل الله بها ما دعوتَه عليها أيها الملك واستجاب دعاك، ورفع البركة من نسلها وجعلها في الغنم، قال: كيف ذلك؟ قال: لأن الكلبة الواحدة تجتمع عليها فحول لتُحبلها، وتَلقَى هي من الشدة عند العلق والخلاص جهدًا وعناءً، ثم إنها تلد ثمانية أو أكثر، ولا يُرى منها في البر قطيع ولا في المدينة كما في الأغنام من القُطْعان يُذبح منها في كل يوم في المدن والقرى من العدد ما لا يُحصى كثرةً، وهي مع ذلك تُنتِج كل سنة واحدًا أو اثنين، والعلة في ذلك أن الآفات تُسرِع إلى أولاد الكلاب والسنانير قبل الفِطَام لكثرة اختلاف مأكولاتها، فيعرض لها من الأمراض المختلفة مما لا يعرض للسباع منها شيء، وكذلك إن سوء أخلاقها وتأذِّي الناس منها ينقص مِن عمرها ومن أولادها.

ثم قال الأسد لكليلة: سِرْ بالسلامة والبركة، على بركة الله وعونه إلى حضرة الملك، وبلِّغ ما أُرسلتَ به.

فصل

ولما وصل الرسول إلى مَلِك الطيور وهو الشاه مرغ أمر مناديًا ينادي، فنادى، فاجتمعت عنده أصناف الطيور من البر والبحر والسهل والجبل عدد كثير لا يُحصي عددها إلا الله، فأخبَرَهم ما أخبر به الرسول من اجتماع الحيوانات عند ملك الجن للمناظرة مع الإنس فيما ادَّعَوْه عليها من الرِّقِّ والعبودية.

ثم قال الشاه مرغ للطاووس وزيره: مَن ها هنا من فصحاء الطيور ومتكلِّميها يصلح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة في المناظرة مع الإنس؟

قال الطاووس: ها هنا جماعة تصلح لذلك قال: بيِّنْهم لي لأعرفهم. قال: ها هنا الهدهد الجاسوس والديك المؤذِّن والحمام الهادي والدُّرَّاج المنادي والدرج المغني والقُنبَر الخطيب والبلبل الحاكي والخطاف البنَّاء والغراب الكاهن والكَرَكِيُّ الحارس والقطاء الكدري والطِّيطَوَى الميمون والعصفور الشَّبِق والشقراق الأخضر والفاختة النائح والوَرَشان

الدجلي والقِمْرِي المكي والصقر الجبلي والزُّرزُور الفارسي والسمان البري واللَّقْلق القلقي والعَقْعَق البستاني والبط الكسكوكي ومَالِك الحزين وأبو تيمار أخوه والكُرْكِي البطائحي والهزار دستان اللغوي الكثير الألحان والغواص البحري والنعامة البدوي.

قال الشاه مرغ للطاووس: أَرِنِيهم واحدًا واحدًا لأنظر إليهم وأُبصِر شمائلهم، ومَن يصلح لذلك الأمر، قال: نَعَم.

أما الهدهد الجاسوس صاحب النبي سُلَيْمان — عليه السلام — فهو ذلك الشخص الواقف اللابس مرقَّعة ملوَّنة المُنتِن الرائحة قد وضع على رأسه البرنس ينقر كأنه يسجد ويركع، وهو الآمِر بالمعروف والناهي عن المنكر، والقائل لسليمان في خطابه معه: ﴿أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ * وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ * أَلَّا يَسْجُدُوا لِلهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾.

وأما الديك المؤذِّن فهو ذلك الشخص الواقف فوق الحائط صاحب اللحية الحمراء والتاج ذي الشرفات، الأحمر العينين المنتشر الحاجبين الصفافين المنتصب الذنب كأنه أعلام، وهو الغَيُور السخي الشديد المراعاة لأمْرِ حَرَمه وحلائله، العارف بأوقات الصلاة، المذكِّر بالأسحار، المنبِّه للجيران، الحَسَن الموعظة، وهو القائل في أذانه في وقت السَّحَر: اذكروا الله، ما أطول ما أنتم نائمون! والموت والبلي لا تذكرون، ومِن النار لا تخافون، وإلى الجنة لا تشتاقون، ونِعَم الله لا تشكرون، ليتَ الخلائق لم يخلقوا، وليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا، فاذكروا هازم اللذات وتزوَّدوا فإن خير الزاد التقوى.

وأما الدُّرَّاج المنادي فهو ذلك الشخص الواقف على التلِّ، الأبيض الخدَّيْن الأبْلَق الجناحين المحدودب الظهر من طول السجود والركوع وهو كثير الأولاد مبارك النتاج، المذكِّر المبشِّر في ندائه، وهو القائل لنفسه في أيام الربيع: بالشكر تدوم النِّعَم وبالكفر تحلُّ النِّقَم، واشكروا نِعَم الله يَزِدْكم، ثم يقول أيضًا في أيام الربيع شعرًا:

سبحانَ ربي وحدَه عزَّ وجلَّ ... حمدًا على نعمائه فقد شمل
جاء الربيع والشِّتَا قدِ ارتحَل ... ووازَنَ الليلُ النهارَ فاعتدل
ودارت الأيام حولًا قد كمل ... مَن عمل الخَيْرَ ففي الخير حصل

ثم يقول: اللهم اكْفِني شرَّ بنات آوى والجوارح والصيادين من بني آدم ووصف طباعهم من جهة التغذية والمنفعة وشهوات مرضاهم.

وأما الحمام الهادي فهو ذلك المحلِّق في الهواء الحامل كتابًا ما إلى بلدٍ بعيدٍ في رسالة، وهو القائل في طيرانه وذهابه شعرًا:

يا وحشتنا من فرقة الإخوان! يا طول أشواقي إلى الخلان!
يـاربِّ أرشِـدْنـا إلـى الأوطـان

وأما الدراج المغني فهو ذلك الماشي بالتبختر في وسط البستان بين الأشجار والريحان، المطرب بأصواته الحِسَان ذوات النَّغَم والألحان، وهو القائل في مراثيه ومواعظه شعرًا:

يا مفنيًا للعمر في البنيان وغارس الأشجار في البستان
وباني القصور في الميدان وقاعدًا في الصدر في الإيوان
وغـافـلًا عـن نُـوَب الـزمـان احذر ولا تـغـترَّ بـالـرحـمـن
واذكر غدًا الترحال للجَبَّان مـجـاور الـحـيـات والـديـدان
مِن بعْدِ عيش طيِّب المكان

وأما القُنبَر الخطيب فهو ذلك الشخص صاحب الذَّنَب المرتفع في الهواء على رأس الزرع والحصاد في أنصاف النهار كالخطيب على المنبر، الملحن بأنواع الأصوات المطرِبة وفنون النغمات اللذيذة، وهو القائل في خطبته وتذكاره شعرًا:

أين أولو الألباب والأفكار؟ أين ذوو الأرباح والتجار؟
من حبة الزراع في العقار سبعون ضعفًا كِيلَ بالمِقْدار
مـواهـبًـا مـن واحـد غـفَّـار فاعتبروها يا أولي الأبصار

وآتُوا حقَّه يومَ حصاده، ولا تَغدُوا تخافَتون على حرْدٍ قادرين ألَّا يدخُلَنَّها اليوم عليكم مسكين، مَن يزرع اليوم خيرًا يحصده غدًا غبطة، ومن يغرس معروفًا يجني غدًا ربحًا، الدنيا كالمزرعة والعاملون من أبناء الآخرة كالحُرَّاث، وأعمالهم كالزرع والشجر، والموت كالحصاد، والقَبْر كالبَيْدر، ويوم البعث كأيام الدِّرَاس، وأهل الجنة كالحب والثمار، وأهل النار كالتبن والحطب ويومئذٍ يميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه

على بعض، فيركمه جميعًا فيجعله في جهنم، وينجِّي الذين اتقوا بمفازتهم لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون.

وأما البلبل الحاكي فهو ذلك القاعد على غصن تلك الشجرة، وهو الصغير الجثة السريع الحَرَكة، الأبيض الخدَّيْن الكثير الالتفات يمنة ويسرة، الفصيح اللسان الجيِّد البَيَان كثير الألحان، يُجاوِر بني آدم في بساتينهم ويُخالِطهم في مساكنهم، ويُكثِر مجاوَبَتَهم في كلامهم ويُحاكيهم في نغماتهم ويعظهم في تذكاره لهم، فهو القائل لهم عند لهوهم وغفلاتهم: سبحان الله كم تلعبون! سبحان الله كم تحكون! سبحان الله ألَا تسبِّحون! سبحان الله أليس للموت تُولَدون؟! أليس للبلاء تربُّون؟! أليس للخراب تبنون؟! أليس للفناء تجمعون؟! كم تلعبون؟! وكم تولعون؟! ألَيس غدًا تموتون؟! وفي التراب تدفنون؟! ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾، يا ابن آدم ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾، ثم يقول: اللهم اكفني ولع الصبيان، وشرَّ سنانير الجيران، يا حنان يا منان يا ديان يا غفران.

وأما الغراب الكاهن منبئ الأنباء، فهو ذلك الشخص اللابس السواد المتوقِّي المحذر المبكِّر بالأسحار للطَّوَاف في الديار، المتتبع للآثار، الشديد الطيران الكثير الأسفار، الذاهب في الأقطار، المُخبِر بالكائنات المحذِّر أوقات الغفلات، وهو القائل في نعيقه وإنذاره ألوحا ألوحا النجا النجا، احذر البلى يا مَن طغى وبغى، أين المفر والخلاص من القضاء إلا بالصلاة والدعاء؟ لعل رب السماء يكفيكم كيف يشاء.

وأما الخطاف البناء فهو ذلك السائح في الهواء الخفيف الطيران، القصير الرجلين الوافي الجناحين، المجاوِر لبني آدم في دُورهم، المربِّي لأولاده في منازلهم، وهو كثير التسبيح في الأسحار، كثير الدعاء والاستغفار، بالعَشِيِّ والإبكار، الذاهب البعيد في الأسفار، المصيف في الصرد والمشتي في الحرور، وهو القائل في تسبيحه وتذكاره ودعائه: سبحان خالق البحار والقفار! سبحان مُرسِي الجبال، ومُجري الأنهار! سبحان مولج الليل والنهار! سبحان مقدِّر الآجال والأرزاق بمقدار! سبحان مَن هو الصاحب في الأسفار! سبحان مَن هو الخليفة في الأهل والديار! ثم يقول: ذهبنا في البلاد ورأينا العباد، ورجعنا إلى مَوْضِع التِّلاد، ونتجنا بعد السِّفاد، فلله الحمد، إنه الكريم الجواد.

وأما الكُرْكِيُّ الحارس فهو ذلك الشخص القائم في الصحراء، الطويل الرقبة والرجلين، القصير الذَّنَب الوافِر الجناحين، وهو الذاهب في طيرانه، له صفير الحارس في الليل نوبَتَيْن، وهو القائل في تسبيحه: سبحان مُسخِّر النيِّرَيْن! سبحان مارج البحرين! سبحان رب المشرقين ورب المغربين! سبحان الله خالق الثقلين! سبحان هادي النجدين! سبحان الخالق مِن كل شيء زوجين اثنين! والقطا الكدري، فهو ساكن البراري والقفار، وهو بعيد الوِرْد إلى الأنهار، ويسافر بالليل والنهار، الكثير التسبيح والتذكار، القائل في غدوِّه ورَوَاحه ووُرُوده وصُدُوره: سبحان خالق السموات المسموكات! سبحان خالق الأرضين المدحوَّات، سبحان خالق الأفلاك الدايرات! سبحان خالق البروج الطالعات! سبحان خالق الكواكب السيارات! سبحان مرسل الرياح الذاريات! سبحان منشئ السحب الممطرات! سبحان رب الرعود المسبِّحات! سبحان رب البروق اللامعات! سبحان رب البحار الزاخرات! سبحان مُرسي الجبال الشامخات! سبحان مدبِّر الليل والنهار والأوقات! سبحان منشئ الحيوانات والنبات! سبحان خالق الأنوار والظلمات! سبحان خالق الخلق في البحار والفلوات! سبحان مُحْيِي العظام الرفات الدارسات الباليات بعد الممات! سبحان مَن تَكِلُّ الألْسُن عن مَدْحِه ووصفه بحقائق الصفات!

وأما الطيطوى الميمون المبارك، فهو ذلك القائم على المياه الأبيض الخدين الطويل الرجلين الزكي الخفيف الروح، وهو المحذِّر للطيور في الليل في أوقات الغفلات المبشِّر بالرخص والبركات، وهو القائل في تسبيحه:

يا فالق الإصباح والأنوار ومرسل الرياح في الأقطار
ومنشئ السحاب ذي الأمطار ومجري السيول والأنهار
ومنبت العشب مع الأشجار ومخرج الحبوب والثمار
فاستبشروا يا معشر الأطيار بسعة الرزق من الغفار

وأما الهزار داستان اللغوي الكثير الألحان، فهو ذلك القاعد على غصن الشجرة، الصغير الجثة الخفيف الحركة الطيب النغمة، وهو القائل في غنائه وألحانه شعرًا:

الحمد لله ذي القدر والإحسان الواحد الفرد ذي الغفران
يا منعمًا في السر والإعلان كم نعمة بمنة الرحمن

تفيض كالبحار في الجريان يا طيب عيش كان في الأزمان
بين رياض الرَّوْح والريحان وسط البساتين على الأغصان
مثمرة الأشجار بالألوان لو أنني ساعدني إخواني
ذاكرتُهم بكثرة الألحان

ثم قال الشاه مرغ للطاووس: مَن تُرى يصلح من هؤلاء أن نبعثه إلى هناك ليتناظر مع الإنس وينوب عن الجماعة؟

قال الطاووس: كلهم عبيدك يصلح لذلك؛ لأنهم كلهم فصحاء خطباء شعراء عقلاء فضلاء غير أن الهزار داستان أفصحهم لسانًا وأجودهم بيانًا وأطيبهم نغمة وألحانًا.

قال الشاه مرغ: سِرْ وتوكل على الله عزَّ وجلَّ، فبعثَه.

ولَمَّا وصل الرسول إلى ملك الحشرات وهو النحل وعرَّفه الخبر أمر مناديَه، فنادى، فاجتمعت عنده الحشرات من الزنانير واليعاسيب والذباب والبقِّ والجراجيس والجُعْلان والذراريح والجراد.

وبالجملة هي كل حيوان صغير الجثة يطير بالأجنحة، ليس له ريش ولا عظم ولا دفء ولا وَبَر ولا شعر، ولا يعيش سنة كاملة غير النحل؛ لأنه يُهلِكها الحرُّ المفرِط والبرد المفرط شتاء وصيفًا، ثم إنه عرَّفها الخبر.

وقال: أيكم يذهب إلى هناك وينوب عن الجماعة في مناظرة الإنس؟

قال الجماعة: بماذا يفتخر الإنسان علينا؟ قال الرسول: بكبر الجثة وعظم الخلقة وشدة القوة والقهر والغلبة.

قال زعيم الزنانير: نحن نمر إلى هناك وننوب عن الجماعة، قال زعيم الذباب: لا، بل نمر إلى هناك، قال زعيم الجراجيس: لا، بل نمر إلى هناك.

ثم قال زعيم البقِّ: نحن نمر إلى هناك، قال زعيم الجراد: نحن نمر إلى هناك، قال لهم الملك: ما لي أرى كل الطوائف قد تبادرت إلى البِرَاز من غير فِكْر ولا رَوِيَّة في هذا الأمر؟! قالتِ الجماعة: للثقة بنصر الله — تعالى — واليقين بالظفر بقوة الله وحوله، ولِمَا تقدَّم من التجربة فيما مضى من الدهور والأمم الخالية والملوك الجبابرة، قال: كيف كان ذلك؟ أخبروني!

قالت البق: أيها الملك، أصغرنا جثة وأضعفنا بنية قتل النمرود — لعنة الله عليه — أكبر ملوك بني آدم وأطغاهم وأعظمهم سلطانًا، وأشدهم صولة وتكبرًا، قال: صدقتَ.

قال الزنبور: أليس إذا لبس أحد من بني آدم سلاحه الشاكي، وأخذ بيده سيفَه ورمحَه وسكِّينَه ونشَّابه، فيَقدَم واحد منا فيلسعه بحُمَة مثل رأس إبرة فتشغله عن كل ما أراد وعزم عليه ويتورم جلده وتوهن أعضاؤه وتتربد أعصابه حتى لا يقدر على سيفه أو سكينه أو لجام فرسه؟! قال: صدقتَ.

قال الذباب: أليس أعظمهم سلطانًا وأشدهم هيبة إذا قعد الملك على سريره وقام الحجاب دونه شفقة عليه أن يناله أذًى أو مكروه، فيجيء أحدنا من مطبخه أو خلائه ملوث الرجلين والجناحين فيقعد على السرير وعلى ثيابه وعلى وجهه ولحيته ويعذِّبه ولا يقدر على الاحتراز منا؟! قال: صدقت.

قال الجرجيس: أليس إذا قعد أحدهم في مجلسه ودسته وسريره وكِلَله المنصوبة يدخل أحدنا بين ثيابه فيقرضه ويزعجه من سكونه، وإذا أراد أن يبطش بنا صفع نفسه بيده، ولطم خدَّه بكفِّه ودقَّ رأسه فنفلت منه؟!

قال: صدقتَ، ولكن ليس في حضرة ملك الجن يمشي الأمر بشيء مما ذكرتم، إنما يمشي الأمر هناك بالعدل والنصفة والأدب ودقة النظر وجودة التمييز والاحتجاج بالفصاحة والبيان بالمناظرة، فهل عندكم شيء منها؟

فأطرقتِ الجماعة ثم قال الملك: أنا أسير بنفسي وأنا أنصحكم، فقالت الجماعة فيما قال الملك: لا! قال الحكيم من النحل: أنا أقوم بهذا الأمر بعون الله ومشيئته.

قال الملك والجماعة: خار الله لك فيما عزمتَ عليه ونصرك وأظفرك على خصمائك ومَن يريد غلبك وعداوتك ثم ودَّعهم وتزوَّد ورحل حتى قَدِم على ملك الجن وحضر المجلس مع من حضر من غيره من سائر أصناف الحيوان.

فصل

ولما وصل الرسول — وهو البغل — إلى ملك الجوارح وهو العنقاء، وعرَّفه الخبر، نادى مناديه، فاجتمعت عنده أصناف الجوارح من النسور والعقبان والصقور والبزاة والشواهين والحِدَأ والرخم والبوم والببغاء وكل طير ذي مخلب مقوس المنقار يأكل اللحم.

ثم عرَّفها الخبر وما جاء به الرسول من اجتماع الحيوانات بحضرة ملك الجن للمناظرة مع الإنس، قال الملك لوزيره كَرْكَدَّن: أترى مَن يَصلح من هذه الجوارح أن نبعثه إلى هناك لينوب عن الجماعة من أبناء جنسه بالمناظرة مع الإنس؟ قال الوزير: ليس

فيها أحد يصلح لهذا الأمر غير البوم، قال: لم ذلك؟ قال: هذه الجوارح كلها تنفر من الإنس وتفزع منهم، ولا تفهم كلامهم ولا تحسن مخاطبتهم ولا تجاورهم.

وأما البوم فهو قريب المجاورة لهم في ديارهم العافية ومنازلهم الدارسة وقصورهم الخربة، وينظر إلى آثارهم القديمة، ويعتبر بالقرون الماضية، وفيه مع ذلك من الورع والزهد والخشوع والتقنُّع والتقشف ما ليس لغيره، يصوم النهار ويُحيِي الليل، وربما يعظ بني آدم يذكرهم وينوح على ملوكهم الماضية والأمم السالفة ويقول هذه الأبيات:

أين الملوك الماضية ... تركوا المنازل خالية
جمعوا الكنوز بجدهم ... تركوا الكنوز كما هيه
فانظر إليهم هل ترى ... في دارهم من باقيه
إلا قبورًا دراسًا ... فيها عظام باليه

ويقولون أيضًا شعر:

ألا يا دار وَيْحَك خبِّرينا ... لماذا صار أهلك يهجرونا؟
فما نطقتْ، ولو نطقتْ لقالتْ ... لأنك قد بليتِ وما بلِينَا

وربما قال:

سألتُ الدار تُخبِرني ... عن الأحباب ما فعلوا
فقالتْ لي أقام القوم ... أيامًا وقد رحلوا
فقلت فأين أطلبهم ... وأي منازلٍ نزلوا
فقالت في القبور وقد ... لقوا والله ما عملوا

وربما قال أيضًا:

في الذاهبين الأولين ... من القرون لنا بصائر
لما رأيتُ مواردًا ... للموت ليس لها مصادر
ورأيتُ قومي نحوها ... يَمضِي الأكابر والأصاغر

لا يرجع الماضي ولا يبقى من الباقين غابر
أيقنتُ أني لا محالة حيث صار القوم صائر

وقال أيضًا:

نام الخَلِيُّ فما أحسَّ رقادي واليوم محتضر لديَّ وِسَادِي
من غير ما سقم ولكن شفني همٌّ أراه فقد أصاب فؤادي
أين الملوك الأولون عهدتُهم بين العذيب وبين أرض مزاد
أرض تخيِّرها لطيب مقيلها كعب ابن مامة وابن أم زواد
أرض الخَوَرْنق والسَّدِير وبارق والقصر ذا الشرفات من شداد
ولقد غنوا فيها بأطيب عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فإذا النعيم وكل ما يلهي به يومًا يصير إلى بلى ونفاد
جَرَتِ الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على الميعاد

ثم يقرأ: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ * فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ﴾ ... الآية.

قال له العنقاء: ما تقول فيما ذكر الكَرْكَدَّن؟ قال البوم: صدق فيما قال، ولكن لا يمكن المصير إلى هناك.

قال العنقاء: لم ذاك؟ قال: لأن بني آدم يبغضونني ويتطيَّرون برؤيتي ويشتموني من غير ذنب إليهم ولا أذية تنالهم مني، فكيف إذا رأَوْني وقد أظهرتُ لهم الخلاف ونازعتُهم في الكلام والمناظرة، وهي ضرب من الخصومة تُنتِج العداوة، والعداوة تدعو إلى المحاربة، والمحاربة تخرب الديار وتهلك أهلها.

قال العنقاء للبوم: فمَن تُرى يصلح لهذا الأمر؟ قال البوم: إن ملوك بني آدم يحبون الجوارح من البزاة والصقور والشواهين وغيرها، ويُكرِمونها ويحملونها على أيديهم ويمسحونها بأكمامهم، فلو بعث الملك بواحدة منها إليهم لكان رأيًا صوابًا.

قال العنقاء للجماعة: قد سمعتم ما قال البوم، وأي شيء عندكم؟ قال البازي: صدق البوم فيما قال، لكن ليستْ كرامتنا على بني آدم لقرابة بيننا وبينهم، ولا علم ولا أدب يجدونه عندنا، ولكن لأنهم يشاركوننا في معائشنا، ويأخذون من مكاسبنا، كل ذلك حرصًا منهم على ذلك، وشرهًا واتباعًا للشهوات واللعب والبطر والفضول، لا يشتغلون

بما هو واجب عليهم من إصلاح أمر معادهم ولما هو لازم لهم من طاعة ربهم وما هم مسئولون عنه يوم المعاد.

قال العنقاء للبازي: فمَن ترى يصلح لهذا الأمر؟ قال البازي: أظن أن الببغاء يصلح لهذا الأمر؛ لأن بني آدم يحبونها، ملوكهم ونساؤهم وخاصتهم وعامتهم، وشيوخهم وصبيانهم وعلماؤهم وجهلاؤهم، ويكلمهم ويسمعون منه ما يقولون، ويُحاكيهم في كلامهم وأقاويلهم.

فقال العنقاء للببغاء: ما تقول فيما قال البازي؟ قال: صدق فيما قال وأخبر، وإني ذاهب إلى هناك وأنوب عن الجماعة بحول الله وقوته وعونه ولكني محتاج إلى المعاونة من الملك ومن الجماعة، قال له العنقاء: ماذا تريد؟ قال: الدعاء لله والسؤال منه بالنصر والتأييد، فدعا له الملك بالنصر وأمَّنتِ الجماعة.

ثم قال البوم: «أيها الملك إن الدعاء إذا لم يكن مستجابًا فعناء ونَصَب وتَعَب بلا فائدة؛ لأن الدعاء لقاح والإجابة نتيجة فإذا لم يكن الدعاء مع الشرائط لم ينجح، قال الملك: فما شرائط الدعاء المستجاب؟ قال: النية الصادقة، وإخلاص القلوب كالمضطر، وأن يتقدَّمه الصوم، والصلاة والتوبات والصدقة، والبر، والمعروف، قالت الجماعة: صدقتَ وبررتَ فيما قلتَ أيها الزاهد الحكيم العالم العابد.»

قال العنقاء للجماعة من الجوارح الحضور: أما ترون معشر الطيور ما وقعنا فيه من جور بني آدم وتعذيبهم الحيوانات؟! حتى بلغ الأمر إلينا مع بُعْد ديارنا منهم ومجانبتنا إياهم وتركنا مداخلتهم! فأنا مع عظم جثتي وخَلْقي وشدة قوتي وسرعة طيراني تركتُ ديارهم وهربتُ منهم إلى الجزائر والبحار والجبال، وهكذا أخي الكَرْكَدَّن لزم البراري والقفار، وبعد مِن ديارهم طلبًا للسلامة من شرهم، ثم لم نتخلص من شرِّهم حتى أحوجونا إلى المناظرة والمحاججة والمحاكمة، ولو أراد أحد منا أن يختطف كل يوم منهم عددًا كثيرًا، لكُنَّا قادرين عليهم، ولكن من شيم الأحرار أن يجاوروا الأشرار ويعاملوهم ويكافئوهم على سوء أفعالهم، ولا يفعلوا مثل فعلهم، بل يتركونهم ويبعدون عنهم ويَكِلونهم إلى ربهم ويشتغلون بمصالحهم وبما يجر المنفعة وراحة القلب في المعاد.

ثم قال العنقاء: وكم من مركب في البحر طرحتْه الرياح عندي، فهديتُهم الطريق! وكم غريق كُسر به المركب فأنجيتُه إلى السواحل والجزائر! كل ذلك طلبًا لمرضاة ربي وشكرًا للنعمة التي أعطاني من عِظَم الخِلْقة وكبر الجثة، فشكرًا له على إحسانه إليَّ، وهو حسبنا ومُعيننا ونعم المولى ونعم النصير.

فصل

ثم لَمَّا وصل الرسول إلى ملك حيوان البحر وهو التِّنِّين، وعرَّفه الخبر نادى مناديه، فاجتمعتْ إليه أصناف الحيوانات البحرية من التنانين والكواسج والتماسيح والدلافين والحيتان والسموك والسرطانات والكرازنك والسلاحف والضفادع وذوات الأصداف والفلوس، وهي نحو سبعمائة صورة مختلفة الألوان والأشكال، فعرَّفها الخبر وما قاله الرسول، ثم قال التنين للرسول: بماذا يفتخر بنو آدم على غيرهم؟ أبكبر الجثة أم بالشدة والقوة أو بالقهر والغلبة؟ إن كان افتخارهم بواحدة منها ذهبتُ إلى هناك ونفختُ نفخة واحدة أحرقتُهُم من أولهم إلى آخرهم، ثم جذبتُهم برجوع نفسي فبلعتُهم.

قال الرسول: لا يفتخرون بشيء من ذلك، ولكن برجحان العقل وفنون العلم وغرائب الأدب ولطائف الحِيَل ودقَّة الصنائع والفكر والتمييز والروية وذكاء النفس.

قال التنين: صف لي شيئًا منها لأعلمه، قال: نَعَم، أيها الملك، ألستَ تعلم أن بني آدم ينزلون بحِيَلهم وعلومهم وحكمهم إلى قرار البحار الزاخرة المظلمة الكثيرة الأمواج ليستخرجوا من هناك الجواهر من الدرر والمرجان، وهكذا يُعمِلون الحيلة ويصعدون إلى رءوس الجبال الشامخة فيُنزِلون منها النسور والعقبان، وهكذا بالحيلة يعملون العجلة من الخشب ويشدونها في صدور الثيران وأكتافها، ثم يحملون عليها الأحمال الثقال وينقلونها من المشرق إلى المغرب، ومن المغرب إلى المشرق، ويقطعون البراري والقفار والمفاوز.

وهكذا بالعلم والحيلة يبنون السفن والمراكب ويحملون فيها الأمتعة ويقطعون بها سعة البحار البعيدة الأقطار.

وهكذا بالعلم والحيلة يدخلون في كهوف الجبال ومفازات التلال وعمق الأرض فيخرجون منها الجواهر المعدنية والذهب والفضة والحديد والنحاس وغير ذلك.

وهكذا بالعلم والحيلة إذا نصب أحدهم على ساحل بحر أو على شط جزيرة أو على شرعة نهر طلسمًا أو صنمًا أو لعبة لم تقدر عشرة آلاف منكم يا معشر التنانين والكواسج والتماسيح أن تجتاز هناك أو تقرب من ذلك المكان، ولكن ليس أيها الملك بحضرة ملك الجن إلا العدل والإنصاف في الحكومة والحجة البينة لا بالقهر والغلبة والمكر والحيلة.

ولما سمع التنين مقالة الرسول قال لَمن حوله مِن جنوده: ألا تسمعون؟! ماذا تَرَوْن؟ وأي شيءٍ تقولون؟ أيكم يذهب إلى هناك فيناظر الإنس وينوب عن الجماعة من إخوانه وأبناء جنسه.

قال له الدلفين منجي الغرقى: الحوت أولى حيوان البحر بهذا الأمر هو؛ لأنه أعظمها خِلْقة، وأكبرها جسمًا، وأحسنها صورة، وأنظفها بشرة، وأنقاها بياضًا، وأملسها بدنًا، وأسرعها حركة وأشدها سباحة وأكثرها عددًا ونتاجًا، ومن كان من أبناء جنسها من السموك حتى إنه قد امتلأت منها البحار والأنهار والبطائح والعيون والجداول والسواقي، صغارًا وكبارًا، وللحوت أيضًا يد بيضاء عند بني آدم حيث أجار نبيًّا لهم وآواه في بطنه وردَّه إلى مأمنه، والإنس أيضًا يرون ويعتقدون أن مستقر الأرض على ظهر الحوت.

قال التنين للحوت: ماذا ترى فيما قال الدلفين؟ قال: صدق في كل ما قال، ولكن لا أدري كيف أذهب إلى هناك؟ وكيف أخاطبهم وليس لي رجلان أمشي بهما ولا لسان ناطق ولا صبر لي عن الماء ساعة واحدة؟ ولكن أرى أن السلحفاة يصلح لهذا الأمر؛ لأنه يصبر عن الماء ويرعى في البر ويعيش كما يعيش في البحر، ويتنفس في الهواء كما يتنفس في الماء، وهو مع هذا قوي البدن، صلب الظهر، جيد العضو، حليم وقور صبور على الأذى محتمل الأثقال.

قال التنين للسلحفاة: فما ترى فيما قال؟ قال: صدق الحوت، ولكني لا أصلح لهذا الأمر؛ لأني ثقيل المشي والطريق بعيد وقليل الكلام أخرس، ولكن السَّرَطان يصلح لهذا الأمر والشأن؛ لأنه كثير الأرجل جيد المشي سريع العدْو حادُّ المخالب شديد العضِّ ذو فكَّيْن وأظافر حداد كثير الأسنان صلب الظهر مقاتل متدرِّع.

قال التنين للسرطان: ماذا ترى فيما ذكر السلحفاء؟

قال: صدق، ولكن لا أدري كيف أذهب إلى هناك مع عجيب خلقتي وتعوُّج صورتي، أخاف أن أكون شهرة هناك، قال التنين: كيف ذلك؟

قال: لأنهم يَرَوْني حيوانًا بلا رأس، عيناه على كتفَيْه، فمه في صدْره وفكَّاه مشقوقتان من جانبين، وله ثماني أرجل مقوسة معوجَّة ويمشي على جانبه وظهره كأنه من رصاص، قال التنين: صدقتَ، فمَن ترى يصلح لهذا الأمر أن يُوجَّه إلى هناك؟ قال السرطان: أظن أن التمساح يصلح لهذا الأمر؛ لأنه طويل الخلقة، شديد الأرجل، جيد المشي، سريع العدْو، واسع الفم، طويل اللسان، كثير الأسنان، قوي البدن، مهيب النظر، شديد الرصد لمطلبه، غواص في الماء وفي الطلب.

قال التنين للتمساح: ماذا تقول فيما ذكر السرطان؟ قال: صدق، ولكني لا أصلح لهذا الأمر؛ لأني غضوب ضجور وثَّاب مختلس فرَّار غدَّار، وإن الأمر ليس هناك بالقهر والغلبة، ولكن بالحلم والوقار والعدل والتمييز والفصاحة والبيان، والعدل والإنصاف في الخطاب.

قال التمساح: ولستُ أتعاطَى شيئًا من هذه الخصال، ولكني أرى الضفدع يصلح لهذا الأمر؛ لأنه حليم وقور صبور، وَرِع كثير التسبيح والتهليل بالليل والنهار وفي الأسحار، كثير الصلاة والدعاء بالعشي والإبكار، وهو يُداخِل بني آدم في منازلهم، وله عند بني إسرائيل يد بيضاء مرتين؛ إحداهما: يومَ طَرَحَ النمرودُ إبراهيمَ خليلَ الرحمن في النار، فإنه كان ينقل الماء بفيه فيصبه في النار على إبراهيم لتطفأ، ومرة أخرى: فإنه كان أيام موسى بن عمران معاونًا له على فرعون، وهو مع ذلك فصيح اللسان، جيد البيان كثير الكلام والتسبيح والتهليل والتكبير، وهو من الحيوان الذي يعيش في الماء، ويأوي البر والبحر، ويحسن المشي والسباحة جميعًا، وله رأس مدور مقنع، وعينان براقتان وذراعان وكفان مبسوطان، ويمشي متخطيًا ومتقفزًا سريعًا، ويقعد مربعًا، ويدخل منازل بني آدم ولا يَخافهم ولا يخافون منه.

قال التنين للضفدع: ماذا ترى فيما ذكر التمساح؟ قال: صدق، أنا أمر إلى هناك، وأنوب عن الجماعة من إخواننا وحيوان الماء أجمع، ولكني أريد أن تدعو الله بالنصر والتأييد والدعاء بدعاء مستجاب، قال التنين: كيف يكون الدعاء المستجاب؟ قال كما ذكر البوم للعنقاء في الفصل الذي قبل هذا الفصل، قالوا: نَعَم، صدق، فدَعَوا الله جميعًا بالنصر والتأييد له وودَّعوه، وسار عنهم وقدم على ملك الجن.

(١٢) فصل في بيان شفقة الثعبان على الهوام ورحمته لهم

ولَّما وصل الرسول إلى ملك الهوامِّ، وهو الثعبان، وعرَّفه الخبر نادى مناديه، فاجتمعتْ إليه أصناف الحيوانات من الهوام، مثل الأفاعي والحيات والعقارب والجرارات والدخالات والصنب وسام أبرص والحرابي والعظايا والخنافس وبنات وروان والعناكب والنمل والجنادب والبراغيث والقمل والسوالك والفار والصراصر وأصناف الديدان مما يتكون في العفونات أو يدبُّ على رءوس الأشجار أو يتكون في لبِّ الحبوب وقلوب الشجر وجوف الحيوانات الكبار والأَرَضة والحيوان الذي يتولَّد في الخلِّ أو في الثلج أو في ثمرة الشجرة والسوس، وما يتولَّد في السرقين أو في الطين، وما يدب في المغارات والظلمات والأهوية،

فاجتمعتْ كلها عند ملكها لا يُحصِيها عدد ولا يعلمها إلا الله الذي خلقها كلها وصوَّرها ورزقها ويعلم مستقرَّها ومستودعَها.

فلما نظر الملك إليها وهي من عجائب الصور وأصناف الأشكال بقى متعجبًا منها ساعة طويلة، ثم فتَّشها، فإذا هي أكثر الحيوانات عددًا وأصغرها جثة وأضعفها بنية وأقلها حيلة وحواسَّ وشعورًا، وبقى متفكرًا في أمرها، ثم قال الثعبان لوزيره الأفعى: مَن ترى يصلح من هذه الطوائف أن نبعثه هناك للمناظرة؟ فإن أكثرها صمٌّ بكمٌ عميٌ بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ولا ريش على أبدانها ولا شعر ولا وبر ولا صوف ولا فلوس، وإن أكثرها عُراة حُفاة حَسْرى ضعفاء فقراء مساكين بلا حيلة ولا حول ولا قوة، وأدركتْه رحمة عليه وتحنُّن وشفقة ورأفة ورقَّ قلبُه عليها، ودمعتْ عيناه من الحزن، ثم نظر إلى السماء، ثم دعا وقال في دعائه: يا خالق الخلق، ويا باسط الرزق، ويا مدبر الأمور، ويا أرحم الراحمين، ويا مَن هو بالمنظر الأعلى، ويا مَن هو يسمع ويرى، ويا مَن يعلم السِّرَّ وأخفَى، أنتَ خالقُها ورازقها، وأنت مصوِّرها ومدبِّرها ومُبدِئها ومُعِيدها ومُحيِيها ومُمِيتها، كُنْ لها ولنا وليًّا وحافظًا وناصرًا ومعينًا وهاديًا ومرشدًا يا أرحم الراحمين، ويا رب العرش العظيم، فنطقتْ كلها بلسان فصيح، وقالت: آمين آمين رب العالمين.

(١٣) فصل في بيان خطبة الصرصر وحكمته

فلما رأى الصرصر ما أصاب الثعبان من التحنُّن والرأفة والرحمة على رعيته وجنوده وأعوانه وأبناء جنسه ارتقى إلى حائط بالقرب منه، وحرك أوتاره، وزمر بمزماره، وترنم بأصوات وألحان ونغمة لذيذة بالتحميد لله والتوحيد له، فقال: الحمد لله نحمده، ونستعينه ونشكره على نعمائه السابغة وآلائه الدائمة، فسبحان الله الحنان المنان الديان! سبحان الواحد الأحد سبوح قدوس، رب الملائكة والروح، الحي القيوم، ذو الجلال والإكرام، والأسماء العظام، والآيات والبرهان، قبل الأماكن والأزمان، والجواهر ذوات الكيان، لا هواء فوقه ولا ماء تحته، محتجبًا بنوره متوحدًا بوحدانيته وأسرار غيبه حين لا سماء مبنية ولا أرض مدحية، فسبحان الظاهر بالنسبة إلى ذاته لكل شيء، والخفي بالنسبة إلى ذاته عن كل شيء، ثم قضى ودبَّر وقدَّر كما شاء قدَّر، وأراد ثم أبدع نورًا بسيطًا لا من هَيُولَى متهيئة ولا من صورة متوهَّمة، بل بقوله: كن، فكان، فهو العقل الفعَّال ذو العلم والأسرار، خلق الخلائق لا لوحشة كانت في وحدته ولا استعانة بها على

أمر من أموره، ولكن يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، لا معقِّب لحكمه ولا مردَّ لقضائه، وهو السريع الحساب.

ثم قال: أيها الملك المشفِق الرحيم الرءوف المتحنِّن على هذه الطوائف، لا يغمك ما ترى من ضعف أبدان هذه الطوائف وصغر جثتها وعمرها وفقرها وقلة حيلتها، فإن الله الذي هو خالقُها ورازقها هو أرحم الراحمين بها وعليها من الوالدة المشفِقة على أطفالها ومن الأب الرحيم على أولاده، وذلك أن الخالق — جلَّ ثناؤه — لما خلق الحيوانات المختلفة الصورة مفنَّنة الأشكال ورتَّبها مراتبها على منازل شتَّى ما بين كبير الجثة عظيم الخلقة قوي البنية شديد القوة، وما بين صغير الجثة ضعيف البنية قليل الحيلة ساوى بينهما في المواهب الجزيلة من الآلات والأدوات التي تُتناوَل بها المنافع، وتُدفَع بها المضرَّات، فصارتْ متكافئة في العطية.

مثال ذلك أنه لما أَعطَى الفيل الجثة العظيمة والبنية القوية والقوة الشديدة، ليدفع المكاره عن نفسه بأنيابه الطوال الصلاب، ويتناول المنافع بخرطومه الطويل أعطى أيضًا البقة الصغيرة الجثة الضعيفة البنية عوضًا من ذلك الجناحين اللطيفين، وسرعة الطيران، فتنجو من المكاره، وتتناول الغذاء بخرطومها، فصار الصغير والكبير في هذه المواهب التي تُجرُّ بها المنفعة، وتُدفَع بها المضرة متساوية، فهكذا ثمر الخالق الباري والمصور لهذه الطوائف الضعفاء الفقراء اللواتي تراها عراة حفاة حسرى، وذلك أن الباري — جلَّ ثناؤه — لما خلقها على هذه الأحوال التي تراها كفاها أمر مصالحها من جر المنفعة أو دفع المضرة عنها.

فانظر أيها الملك، وتأمل واعتبر أحوالها، فإنك ترى ما كان أصغر منها جثة وأضعف بنية وأقل حيلة كان أروح بدنًا وأربط جأشًا، وأسكن روعًا في دفع المكاره عن غيرها، وكان أطيب نفسًا وأقل اضطرابًا في طلب المعاش وجر المنافع وأخف مؤنة مما هو أعظم جثة وأقوى بنية وأكثر حيلة.

بيان ذلك أنك ترى إذا تأملتَ وجدتَ الكبار منها القوية البنية الشديدة القوة تدفع عن نفسها المكاره بالقهر والغلبة والقوة والجلد كالسباع والفيلة والجواميس وأمثالها وسائر الحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة الخلقة الشديدة القوة، فمنها ما تدفع عن نفسها المكاره والضرر بالفرار والهرب وسرعة العدو كالغزلان والأرانب وغيرها من حمر الوحش، ومنها بالطيران والتخلف بالجو كالطيور، ومنها بالغوص في الماء والسباحة فيه، ومنها ما تدفع المكاره والمضار بالتحصن والاختفاء في الأجحرة والثقب كالفأرة والنمل

كما قال تعالى: ﴿ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وقيل لما سمع سليمان — عليه السلام — ذلك أَمَرَ بإحضار النملة فلما دخلتْ قالت: سلامٌ عليك يا نبي الله، إني وقعتُ فيما احترزتُ منه، فتعجَّب سليمان من قولها.

فلما وضعها على كفِّه سأل النملة: لماذا قلتِ: لا يحطمنكم سليمان وجنوده؟ ألستِ تدرين أني لا أظلم أحدًا؟ ولا أرْضى أن تَظلِم جنودي؟! فلو سمعتِ من هذا شيئًا فأخبريني، ولماذا قلتِ: إني وقعتُ فيما احترزتُ منه؟ ألستِ تعلمين أني لستُ بجائر ولا ظالم على خلق الله تعالى؟! فلم قلتِ هذا؟ قالت النملة: معاذ الله، إني أريد بتلك الإشارات حسبما فهمتَ، لكنِّي أريد بذلك أن الله أعطاك ملكًا لا يكون لأحد من بعدك من الزينة والعدل والإنصاف، وناديتُ مِن أجْل أنهم لا يخرجون من البيوت، ولا يشتغلون بالنظارة ليفوت عنهم ذكر الله — تعالى — أردتُ بذلك الإشارة إلى هذا المعنى، ومنها ما قد ألبسه الله من الجلود الثخينة الجزلة كالسلحفاة والسرطان والحلزون وذوات الأصداف من حيوان البحر، ومنها ما تدفع المكاره والضرر عن نفسها بإدخال رءوسها تحت أبدانها كالقنفد.

أما فنون تصاريفها في طلب المعائش والمنافع فمنها ما يصل إليه ويهتدي إليه بجودة النظر وشدة الطيران كالنسور والعقبان.

ومنها بجودة الشم كالنمل والجعلان والخنافس وغيرها.

ومنها ما يهتدي ويصل إليه بجودة الذوق كالسمك وغيرها من حيوان الماء.

ومنها بجودة الاستماع والأوصاف كالنسر، ولما منع الباري الحكيم هذه الطوائف والحيوانات الصغار الجثة الضعاف القوى والبنية القليلة الحيلة هذه الآلات والأدوات والحواس وجودتها لَطَف بها وكفاها مئونة الطلب وأسباب الهرب، وذلك أنه جعلها في مواضع كَنِينة وأماكن حَرِيزة، إما في الثِّقاب وإما في حب النبات وإما في أجواف الحيوانات الكبار أو في الطين أو في السرقين، وجعل غذاءها مختصًّا بها، وموادها حواليها، وجعل في أبدانها قوًى جاذبة تمتص بها الرطوبات المغذِّية لأبدانها المقوِّية لأجسادها، ولم يُحوِجها إلى الطلب ولا إلى الهرب.

فمِن أجل هذا لم يَخلق لها رِجْلين تمشي ولا يدين تتناول، ولا فمًا يفتح، ولا أسنانًا تمضغ، ولا حلقومًا يبلع، ولا مَرِيًّا يزدرد، ولا حوصلة تنقع فيها، ولا قانصة ولا معدة ولا كرشًا ينطبخ الكيموس فيها، ولا أمعاء ولا مصارين للثقل ولا كبدًا تصفِّي الدم، ولا طحالًا تجذب فضلات الكيموس الغليظة، ولا مرارة تجذب اللطيفة، ولا كليتين ولا

مثانة تجذب البول، ولا أورادًا يجري الدم فيها للنبض، ولا أعصابًا من الدماغ للحس، ولا تعرض لها الأمراض المزمنة والعِلَل المؤلِمة، ولا تحتاج إلى دواء ولا علاج ولا عناء من الآفات التي تَعرِض للحيوانات الكبيرة الجثة العظيمة البنية الشديدة القوة، فسبحان الخالق الحكيم الذي كفاها هذه المطالب، وهذه المئونة وأراحها من التعب والنصب، فله الحمد والمنة والشكر والثناء على جزيل مواهبه وعظيم نعمائه وحسن آلائه.

فلما فرغ الصرصر من هذه الخطبة، قال له الثعبان ملك الهوام: بارك الله فيك من خطيب، ما أفصحك! ومِن مذكِّر، ما أعلمك! ومِن واعظٍ، ما أبلغك! والحمد لله الذي جعل في أجناس هذه الطائفة مثل هذا الحكيم الفاضل المتكلِّم الفصيح، ثم قال له الثعبان: امضِ إلى هناك فتنوب عن الجماعة في المناظرة مع الإنس، قال: نَعَم، سمعًا وطاعةً للملك ونصيحة للإخوان، قالتِ الحية عند ذلك: لا تذكر عندهم أنك رسول الثعبان والحيات، قال الصرصر: ولِمَ ذلك؟ قالت: لأن بين بني آدم وبين الحيات عداوة قديمة وحقد كامن، لا يُقدَر قدْره، حتى إن كثيرًا من الإنس يعترضون على ربهم فيقولون: لِمَ خَلَقَها؟! فإنه ليس في خلقها منفعة ولا فائدة ولا حكمة، بل ضرر كله، قال الصرصر: ولِمَ يقولون ذلك؟ قالت: مِن أجْل السمِّ الذي بين فكَّيْها، فإنه ليس فيه منفعة إلا هلاك الحيوانات وموتها، كل ذلك جهل منهم بمعرفة حقائق الأشياء ومنافعها ومضارِّها، ثم قالت: لا جرم؛ فإن الله — جلَّ ثناؤه — أبلاهم بها وعاقبهم على ذلك حتى أحوج ملوكهم إلى اقتناء سمومها تحت فصوص الخواتم لوقت الحاجة إليها، فلو أنهم فكَّروا واعتبروا أحوال الحيوانات وتصاريف أمورها لتبيَّن لهم ذلك، وعرفوا عظيم منفعة السموم في فكوك الأفاعي لِمَ خَلَقَها الباري — تعالى — وما الفائدة فيها، ولو عرفوها لما قالوا ذلك ولا اعترضوا على ربهم في أحكام مصنوعاته؛ لأن الباري — تعالى — لو خلق سبب هلاك الحيوانات في بصاقنا لجعل لحومنا سببًا لدفع تلك السموم؛ وذلك أن الأطباء الأقدمين قد وجدوا في لحومنا قوة تُقاوِم سمومَنا، فأدخَلوا لحومنا في الترياق لتُقاوِم السم، ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

قال الصرصر: أفِدْنا أيها الحكيم فائدة أخرى، وعرِّفنا لنكون على علم منها، قالت الحية: نَعَم، أيها الخطيب الفاضل، اعلم بأن الباري الحكيم لما خلق هذه الحيوانات التي ذكرتَها في خطبتك وقلتَ إنه أعطَى كل جنس منها أدوات وآلات لتجرَّ المنفعة أو لتدفع المضرَّة، فأعطى بعضها مَعِدةً حارَّة أو كرشًا أو قانصة، فينضج الكيموس فيها بعد المضغ الشديد ويصير غذاءً لها، ولم يُعطِ الحيات معدة حارة ولا قانصة ولا كرشًا ولا

أضراسًا تمضغ اللحوم، فإنه جعل في فكَّيْها عوضًا منها سمًّا حارًّا منضجًا لما تأكل من اللحمان، وذلك أنها إذا قبضتْ على جثة الحيوانات وحصلت بين فكَّيْها قلَّبتْ من ذلك السم عليها لمضغها من ساعتها، وتبلعها وتزدردها وتستمرئها، فلو لم يكن هذا السم لما استمرأت الأكل ولا حصل لها غذاء، ولماتت جوعًا وضرًّا وهلكت عن آخرها، وما بقي أحد منها في ديار.

قال الصرصر: لعمري، قد تبيَّن لي منفعة السم، فما منفعة الحيات للحيوان؟ وما الحكمة والفائدة في خِلْقتها وكونها في الأرض بين الهوام؟

قالت: كمنفعة السباع وكونها بين الوحوش والأنعام والبهائم، وكمنفعة كون التنين في البحر والكواسج والتماسيح، وكمنفعة النسور والعقبان والجوارح في الطيور.

قال الصرصر: زيديني بيانًا، قالت: نَعَم، إن الله — جلَّ ثناؤه — أبدع الخلق واخترعه بقدْرته، ودبَّر الأمور بمشيئته، فجعل قوام الخلائق بعضها ببعض، وجعل لها عللًا وأسبابًا لما رأى فيها من إتقان الحكمة وصلاح الكل، ونفع العموم، ولكن ربما يعرض من جهة العلل والأسباب آفات وفساد لبعض، لا بقصد من الخالق تعمُّدًا، ولكن بعلمه السابق بما يكون قبل أن يكون، ولم يمنع علمه بما يكون منها من الفساد والآفات أن يخلقها؛ إذ كان النفع فيه أعمَّ والصلاح أكثر من الفساد.

بيان ذلك أن الله — عزَّ وجلَّ — لما خلق الشمس والقمر وسائر الكواكب جعل الشمس سراجًا للعالَم، وحياة وسببًا للكائنات بحرارتها، ومحلها من العالم محل القلب من البدن تنبثُّ منه الحرارة الغريزية إلى سائر أطراف البدن التي هي سبب الحياة وصلاح الجملة.

وهكذا حكم الشمس حياة وصلاح للكل والنفع للعموم، ولكن ربما يعرض منها تلف وفساد لبعض الحيوانات والنبات فيكون ذلك مغفورًا في جنب نفع العموم وصلاح الكل.

وهكذا حكم زُحَل والمِرِّيخ وسائر كواكب الفلك، خلقها لصلاح العالم ونفع العموم، وإن كان يعرض لها في بعض الأحيان المناحس من إفراط حر أو برد.

وهكذا حكم الأمطار يرسلها الله لحياة البلاد، وصلاح العباد من الحيوان والنبات والمعادن، وإن كان ربما يكون منها فساد وهلاك لبعض الحيوانات والنبات.

وهكذا حكم الحيات والسباع والتنين والتماسيح والهوام والحشرات والجراد، كل ذلك خلقه الله من المواد الفاسدات والعفونات الكائنة ليصفو الجو والهوام، ولئلا يعرض

لها الفساد من البخارات المتصاعدة فيتعفن الهواء ويكون من ذلك أسباب للوباء وهلاك الحيوانات كلها دفعة واحدة.

بيان ذلك أن الديدان والذباب والبق والخنافس لا تكون في دكان البزاز والحداد والنجار، بل في دكان القصاب أو السمان أو اللبان أو الدباس أو في السماد والسرقين، فإذا خلقها الله — تعالى — من تلك العفونات امتصت ما فيها وتغذَّت بها وصَفَا الهوا منها وسَلِم من الوباء، ثم تكون تلك الحيوانات الصغار مأكولة وأغذية لما هو أكبر منها، وذلك من حكمة الخالق — جلَّ جلالُه — أنه لا يصنع شيئًا بلا نفع ولا فائدة، فمَن لا يعرف هذه النِّعَم فربما يعترض على ربه فيقول: لِمَ خلقها؟ وما النفع فيها؟ كل ذلك جهلًا منه واعتراضًا على ربه في أحكام صنعته وتدبيره في ربوبيته، وقد سمعنا بأن جَهَلَة الإنس يزعمون بأن عناية الباري لم تتجاوز فلك القمر، فلو أنهم فكروا واعتبروا أحوال الموجودات لعلموا وتبيَّن لهم أن العناية شاملة لصغير الخلقة وكبيرها بالسوية.

ولَّما قالوا الزور والبهتان في حق الله تعالى، تعالى الله عما يقول الظالمون علا علوًّا كبيرًا. أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم. فبهذا انقضى الكلام من الرسل.

فصل

ولما كان الغد وردت زعماء الحيوانات من الآفاق، وقعد الملك لفصل القضاء، ونادى المنادي: ألا مَن له مظلمة؟ ألا مَن له حكومة فليحضر؛ فإن الحاجات تُقضى؛ لأن الملك قد جلس لفصل القضاء، وحضرتْ قضاة الجن وفقهاؤها وعدولها وحكَّامها وحُكَماؤها، وحضرت الطوائف الواردة من الآفاق من الجن والإنس والحيوانات، فاصطفَّت يَمنة ويَسرة أمام الملك، ودعت له بالتحية والسلام.

ثم نظر الملك يمنة ويسرة فرأى من أجناس الحيوانات واختلاف الصور وفنون الأشكال والألوان والأصوات والنغمات، وبقي متعجِّبًا منه ساعة.

ثم قال: سبحان الذي خلق الأشياء برحمته! وأوجد الحيوانات بقدرته! وجعل بعضها شريفًا وبعضها خسيسًا وبعضها كبير الجثة وبعضها صغير الجثة، وبعضها ذو نطق وبعضها أخرس، وجعل مقرَّ بعضها في الهواء، ومقر بعضها في الماء، وبعضها في البراري والقفار والجبال والكهوف والمغارات، ربنا ما خلقتَ هذا باطلًا، سبحانك! ما أعظم شأنك!

ثم التفت الملك إلى حكيم من فلاسفة الجن فقال له: ألا ترى هذه الخلائق العجيبة الشان من خلق الرحمن؟!

قال: نَعَم أيها الملك، أراها بعين رأسي، وأشاهد صانعها بعين قلبي، والملك متعجب منها، وأنا متعجب من حكمة الصانع الحكيم الذي خلقها وأنشأها وبرأها ويربِّيها ويرزقها ويحفظها ويعلم مستقرها ومستودعها، كل ذلك في كتاب مبين عنده، ولا لغلط ولا لنسيان؛ بل لتحقيق وبيان؛ لأنه لما احتجب عن رؤية الأبصار بحُجُب الأنوار، وجلَّ وعلا عن تصوُّر الأوهام والأفكار أظهر مصنوعاته إلى مشاهدة الأبصار وأخرج ما في مكنون غيبه إلى الكشف والإظهار والبيان ليدركه العيان ويستغني عن الدليل والبرهان.

ثم اعلم أيها الملك العادل أن هذه الصور والأشكال والهياكل والصفات التي تراها في عالم الأجسام وجواهر الأجرام هي مثالات وأشباه وأصباغ لتلك الصور التي في عالم الأرواح، غير أن تلك نورانية شفافة، وهذه ظلمانية كاسفة، ومناسبة هذه إلى تلك كنسبة التصاوير والنقوش التي على وجوه الألواح وسطوح الحيطان إلى هذه الصور والأشكال التي عليها هذه الحيوانات من اللحم والدم والعظام والجلود؛ لأن تلك الصور التي في عالم الأرواح محرِّكات، وهذه متحركات والتي دون هذه ساكنات صامتات ومحسوسات فانيات باليات فاسدات، وتلك ناطقات معقولات روحانيات غير مرئيات باقيات.

ثم قام حكيم الجن فخطب وحمد الله، وأثنى عليه فقال: الحمد لله خالقِ المخلوقات وبارئ المبروآت ومبدع المُبدَعات ومخترع المصنوعات، ومقلب الأزمان والدهور والأوقات، ومنشئ الأماكن والجهات، مدبِّر الأفلاك وموكل الأملاك، ورافع السبع السموات وباسط الأرضين المدحوات من تحت طباق السموات، ومصور الخلائق ذوي الأوصاف المختلفات والألوان واللغات، هو المنعم بأنواع العطايا وفنون الروايات، خلق فسوَّى وقدَّر فهدى وأمات وأحيا، وهو بالنظر الأعلى، وهو القريب البعيد؛ بعيد من إدراك الحواس المدركات قريب في الخلوات من ذوي المناجاة، فسبحان الذي جعل الطيبين للطيبات، وجعل الخبيثين للخبيثات، وسبحان الذي خلق المؤمنين والمؤمنات، وأوجد المسلمات، وأظهر العابدين والعابدات، وألْهَم القائمين والقائمات، وأعان الصائمين والصائمات، وهدى التائبين والتائبات، وأنطق الذاكرين والذاكرات، لا تدركه الأبصار، ولا تمثِّله الأخبار، كلَّتْ ألسُن الواصفين له بكُنْه الصفات، وتحيَّرتْ عقول ذوي الألباب بالفكرة في جلال عظمته

وعز سلطانه ووضوح آياته وبرهانه، فلا القوة العقلية تدركه، ولا القوة النطقية تَصِفه، وهو الله الواحد القهار العزيز الغفار، الذي خلق الجان قبل آدم من نار السموم أرواحًا خفية وأشباحًا لطيفة، صورًا عجيبة وحركات سريعة، تسبح في الجو كيف تشاء بلا كدر ولا عناء، وذلك من فضل الله علينا، وهو الذي خلق أصناف الخلائق من الجن والإنس والملائكة والحيوانات البرية والبحرية أصنافًا مختلفة الأشكال والصور، ورتبها أصنافًا كما شاء.

فمنها ما هي مراتبها في أعلى عليين، وهم الملائكة المقربون وعباده المصطَفَوْن، خلقهم من نور عرشه فهم حملته.

ومنها ما هي في أسفل السافلين وهم مَرَدة الشياطين وإخوانهم من الكافرين والمنافقين والحاسدين والمنكرين لمصنوعاته من الجن والإنس أجمعين.

ومنها ما بين ذلك وهم عباده الصالحون من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات، فالحمد لله الذي أكرمنا بالإيمان وهدانا إلى الإسلام، وجعلنا خلفاء في الأرض، كما قال تعالى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾، والحمد لله الذي خص مَلِكَنا بالعلم والحلم والإحسان والعدل والإنصاف، وذلك من فضل الله علينا، فاسمعوا وأطيعوا إن كنتم تعقلون، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ الحكيم من كلامه نظر الملك إلى جماعة من الإنس وهو وقوف نحو سبعين رجلًا مختلفي الهيئات واللباس واللغات والأشكال والألوان، فقال: سبحان الذي خلق الإنسان من ماءٍ مهين! سبحان الذي خلق الإنسان من نطفة في قرار مكين! سبحان الذي خلق الإنسان من صلصال كالفخار! سبحان الذي جعل النطفة علقة ثم جعل العلقة مضغة ثم جعل المضغة عظامًا، ثم كسا العظام لحمًا وجلدًا، ثم نفخ فيه من روحه، فتبارك الله أحسن الخالقين، سبحان الذي قدَّر وهدى! وأمات وأحيا! سبحان الذي جعل الإنسان أكرم الحيوانات وأفضل الموجودات! سبحان الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم! سبحان الله رب العرش العظيم.

ثم نظر الملك فرأى فيهم رجلًا معتدل القامة مستوي البنية حسن الصورة مليح البزة لطيف الجملة صافي البنية حلو المنظر خفيف الروح، فقال للوزير: مَن هو ذاك؟ ومِن أين هو؟ فقال رجل من بلاد إيرانشهي، يعني به العراق، قال الملك: قل له يتكلم، فأشار إليه الوزير، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

فقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلَّى الله على محمد وآله الطيبين، والحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد، الحنان المنان ذي الجلال والإكرام ذي الفضل والإنعام، الذي كان قبل الأماكن والأزمان والجواهر والأكوان ذوات الكيان، ثم بدأ واخترع وأخرج من مكنون غيبه نورًا ساطعًا، ومن النور نارًا أجاجًا وبحرًا من الماء رجراجًا، وجمع بين الماء والنار، وكان دخانًا موردًا وزَبَدًا ملبدًا، فخلق من الزَّبَد السموات المسموكات، ومن الزبد الأرضين المدحوات، وثقَّلها بالجبال الراسيات، وحفر البحار الزاخرات، فأرسل الرياح الذاريات بتصاريفها في الجهات، وأثار من البحار والبخارات المتصاعدات، ومن الأرضين الدخانات المعتكرات، وألَّف منها الغيوم والسحائب المنشآت، وساقها بالرياح إلى البراري والقفار والفلوات، وأنزل منها القطر والبركات، وأنبت العشب والنبات متاعًا لنا ولأنعامنا.

والحمد لله الذي خلق من الماء بشرًا وخلق منها زوجها ليسكن إليها، وبثَّ منهما رجالًا كثيرًا ونساءً، وبارك في ذريتهما وسخر لهما في البر والبحر متاعًا إلى حين، ثم إنهم بعد ذلك لميتون ثم إنهم يوم القيامة يبعثون.

والحمد لله الذي خصنا بأوسط البلاد مسكنًا وأطيبها هواءً ونسيمًا وتربة، وأكثرها أنهارًا وأشجارًا وثمارًا، وفضلنا على كثير من عباده تفضيلًا، فله الحمد والمن والثناء؛ إذ خصنا بذكاء النفس وصفاء الأذهان ورجحان العقول، فنحن بهدايته استنبطنا العلوم الغامضة، وبرحمته استخرجنا الصنائع البديعة وعمرنا البلاد، وحفرنا الأنهار، وغرسنا الأشجار، وبنينا البنيان، ودبرنا المُلْك والسياسة، وأوتينا النبوة والرسالة.

فمنَّا نوح النبي عليه السلام، وإدريس الرفيع، وإبراهيم خليل الرحمن، وموسى الكليم، وعيسى المسيح، ومحمد المصطفى عليهم صلوات الله وتحياته، ومنَّا كانت الملوك الفاضلة مثل: أفريدون النبطي وسليمان بن داود الإسرائيلي، ومنوجهر الحريري، ودارا التميمي، وتُبَّع الحِمْيَري، وأزدشير بن بابكان الفارسي، وبَهْرام، وأنو شروان، وبُزُرْجُمِهْر بن تختان، وملوك الطوائف من آل ساسان، وبني سامان الذين شقُّوا الأنهار وأمروا بغرس الأشجار وبنيان المدن والقرى، ودبروا المُلْك والسياسة والجنود والرعية، فنحن لبُّ الناس، والناس لبُّ الحيوان، والحيوان لبُّ النبات، والنبات لبُّ المعادن، والمعادن لبُّ الأركان، فنحن لب أولي الألباب، فلله الحمد والمنة، وله الشكر والثناء، وإليه المصير بعد الهرم، وأقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

ثم قال الملك لَمن كان حاضرًا من حكماء الجن: ما تقولون فيما قال الإنسي من الأقاويل فيما ذكر من فضائلهم وافتخر به؟ قالوا: صدق فيما قال وتكلم، غير واحد من حكماء الجن كان يُقال له صاحب العزيمة والصرامة، فإنه ما كان يُحابِي أحدًا، وإذا تكلم واحد وكان على خطئه وزلته ردَّه عن غيِّه وضلالته.

فقال: يا معشر الحكماء، اعلموا أن هذا الإنسي قد ترك شيئًا لم يذكره في خطبته وهو ملاك الأمر وعمدته، فقال الملك: وما هو؟ قال: لم يقل: ومِن عندنا خرج الطوفان فغَرِق ما على وجه الأرض من النبات والحيوان، وفي بلادنا اختلفت الألسن وتبلبلت العقول وتحيرت الألباب.

ومنَّا كان نمرود الجبار، ونحن طرحنا إبراهيم في النار، ومنَّا كان بخت نصر مخرِّب إيليا ومحرِّق التوراة، وقاتل أولاد سليمان — عليه السلام — وآل إسرائيل، وهو الذي طرد آل عدنان من شط الفرات إلى بلاد الحجاز المتمرِّد الجبار الفتاك السفاك للدماء.

فقال الملك: كيف يقول هذا ويذكره، وكله عليه لا له؟ فقال صاحب العزيمة: ليس من الإنصاف في الحكومة والعدل في القضية أن يذكر أحد فضائله ويفتخر بها، ولا يذكر مساويَه ويتوب ويعتذر منها.

ثم إن الملك نظر إلى الجماعة، فرأى رجلًا أسمر نحيف الجسم طويل اللحية، موفور الشعر متوشحًا بإزار أحمر على وسطه، فقال: مَن هو؟ فقال: رجل من بلاد الهند من جزيرة سرنديب، قال الملك للوزير: مره، فأمر له أن يتكلم.

فصل

قال الهندي: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم السرمد، الذي كان قبل الدهور والأزمان والجواهر والأكوان، ثم أنشأ بحرًا من النور عجاجًا، فركب فيه الأفلاك وأدارها، وصوَّر الكواكب فسيَّرها، وقسم البروج فأطلعها، وبسط الأرض فأسكنها، وخط الأقاليم وحفر البحار وأجرى الأنهار وأرسى الجبال وفسح الفلوات وأخرج النبات وكوَّن الحيوان، وخصنا بأوسط البلاد مكانًا وأعدلها زمانًا حيث يكون الليل والنهار متساويين، والشتاء والصيف معتدلين، والحر والبرد غير مفرطين، وجعل تربة بلادنا أكثر معادنًا وأشجارها طيبًا ونباتها أدوية وحيوانها فيلة ودوحها ساجًا، وقصبها قَنًا، وعكرشها خيزرانًا، وحصاها ياقوتًا، وزبرجدًا وجعل مبدأ كون آدم — عليه السلام — هناك.

وهكذا حكم سائر الحيوانات بدأ كونها تحت خط الاستواء.

ثم إن الله — تبارك وتعالى — خصنا، فبعث في بلادنا الأنبياء، وجعل أكثر أهلها الحكماء.

فمنهم البدو والبرهميين وبوداسف وبلوهر، وخصنا بألطف العلوم سحرًا وعزائم وكهانة، وجعل أهل بلادنا أسرع الناس حركة، وأخفَّهم وثبًا، وأجسرهم على أسباب المنايا إقدامًا، وبالموت تهاونًا. أقول قولي هذا، وأستغفر الله — تعالى — لي ولكم.

قال صاحب العزيمة: لو أتممتَ الخطبة وقلتَ: ثم بُلينا بحرق الأجساد وعبادة البدور والأصنام والقرود، وكثرة أولاد الزنا واسوداد الوجوه وأكل التُّبُول والفلافل.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا آخَرَ، فتأمَّل فإذا هو طويل مرتدٍ برداءٍ أصفر بيده مدرجة ينظر فيها ويزمزم ويترجح قدامًا وخلفًا.

فقال الملك للوزير: مَن هو ذاك؟ فقال رجل من أهل الشام عبراني من آل إسرائيل، فقال الملك: فمر له أن يتكلم، فأمر الوزير للعبراني، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال العبراني: الحمد لله الواحد القديم الباري الحكيم القهار الحي القيوم الذي كان فيما مضى من الدهر والأزمان، ولم يكن سواه.

ثم بدأ الخلق نورًا ساطعًا، ومن النور نارًا وقادًا وبحرًا من الماء رجراجًا، وجمع بينهما وخلق منهما دخانًا وزبدًا فقال للدخان: كن سماءها هنا، وقال للزبد: كن أرضها ها هنا، فخلق السموات فسوَّى خلقها في يومين، وبسط الأرض في يومين وخلق بين أطباقها أصناف الخلائق من الملائكة والجن والإنس والطير والسباع والوحوش والبهائم والأنعام وغير ذلك في يومين، ثم استوى على العرش في اليوم السابع، واصطفى من خلقه آدم أبا البشر، ومن أولاده وذريته نوحًا، ومن ذريته إبراهيم خليل الرحمن، ومن ذريته إسرائيل، ومن ذريته موسى بن عمران عليهم السلام، وكلَّمه وناجاه وأعطاه آية اليد والعصا والتوراة، وكتب الأنبياء عليهم السلام.

وفلق البحر وأغرق فرعون عدوه، وأنزل على بني إسرائيل المن والسلوى، وجعلهم ملوكًا وأعطاهم ما لم يُعطِ أحدًا من العالمين، فله الحمد والثناء والشكر والنعماء، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فقال صاحب العزيمة: نسيتَ ولم تقل: وجعل منَّا القِرَدة والخنازير وعَبَدَةَ الطاغوت، أولئك شرٌّ مكانًا وأضل عن سواء السبيل، وضُربت علينا الذِّلَّة والمسكنة وباءوا بغضبٍ على غضب، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ عظيم، جزاءً بما كانوا يعملون.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا طويلًا عليه ثياب من الصوف، وعلى وسطه منطقة من السيور وبيده بيرم عود يطرحه ويبخر فيه النار رافعًا صوته يقرأ كلماته ويلحنها.

فقال الملك للوزير: مَن هو ذلك؟ قال: رجل سرياني من آل المسيح عليه السلام، قال الملك للوزير: فمر له أن يتكلم، فأمره الوزير قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال السرياني: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد، وكان في بدئه بلا كفؤ ولا أحد ولا عدد ولا مدد.

ثم فلق الإصباح ونوَّر الأنوار وأظهر الأرواح وخلق صور الأشباح وبرأ الأجسام وركب الأجرام ودوَّر الأفلاك ووكل الأملاك، وسوَّى خلق السموات والأرضين المدحوَّات، وأرسى الجبال الراسيات وجعل البحار الزاخرات والبراري والفلوات مسكنًا للحيوان والنبات.

الحمد لله اتخذ من العذراء البَتول جسد الناسوت، وقرن به جوهر اللاهوت، وأيَّده برُوح القدس، وأظهر على يده العجائب، وأحيا به آل إسرائيل من موت الخطية، وجعلنا من أشياعه وأنصاره، وجعل منَّا القِسِّيسين والرهبان، فنحن لا نستكبر في الأرض، وجعل في قلوبنا رأفة ورحمة ورهبانية، فله الحمد والشكر والثناء، ولنا فضائل تركنا ذكرها، وأستغفر الله لي ولكم إنه الغفور الرحيم.

قال صاحب العزيمة: قل أيضًا: فما رعَيْناها حقَّ رعايتها وكفرنا، وقلنا: ثالث ثلاثة، وعبدْنا الصُّلْبان وأكَلْنا لحمَ الخنزير في القربان، وقلنا على الله الزور والبهتان.

ثم نظر الملك إلى رجل واقف، فتأمله فإذا هو أسمر شديد السمرة نحيف الجسم، وعليه ثوبان إزار ورداء شبه المحرم راكعًا ساجدًا يتلو القرآن، ويناجي الرحمن، فقال: مَن هو ذاك؟ قال الوزير: رجل من تهامة قرشي، قال الملك: فمر له أن يتكلم، فأمر له الوزير، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال القرشي: الحمد لله الواحد الصمد الفرد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، هو الأول والآخر والظاهر والباطن، الأول بلا ابتداء، والآخِر بلا انتهاء، الظاهر على كل شيء قُدْرة وسلطانًا، والباطن في كل شيء علمًا ومشيئة ونفاذًا وإرادة، وهو العظيم الشأن الواضح البرهان الذي كان قبل الأماكن والأزمان والجواهر ذوات الكيان.

ثم قال له: كن، فيكون، فسوَّى، وقدَّر فهدى، وهو بالمنظر الأعلى، الذي رفع السماء بغير عَمَد وبناها ورفع سمكها فسواها، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها، والأرض بعد ذلك دحاها، أخرج منها ماءها ومرعاها، والجبال أرساها، متاعًا لكم، ولأنعامكم، وما كان معه من إله؛ إذن لذهب كل إله بما خلق، ولعلا بعضهم على بعض، سبحان الله عما يصفون، كذب العادلون بالله، وضلوا ضلالًا بعيدًا، وخسروا خسرانًا مبينًا.

هو الذي أرسل رسوله محمدًا بالهدى ودين الحق ليُظهِرَه على الدين كله ولو كره المشركون، وصلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وعترته وعلى ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين، وعلى عباده الصالحين من أهل السموات وأهل الأرضين والمسلمين، وجعلنا وإياكم منهم برحمته، إنه أرحم الراحمين.

والحمد لله الذي خصنا بخير الأديان، وجعلنا من أمة صاحب الفرقان، وأكرمنا بتلاوة القرآن، وصوم شهر رمضان، والطواف حول بيته الحرام والركن والمقام، وأكرمنا بليلة القَدْر والعرفات والزكاة والطهارات والصلوات والجماعات والأعياد والمنابر والخطب وفِقْه الدِّين وعلم سنن النبيين وسيرة الربانيين.

وعرَّفنا أخبار وأحوال الأولين والآخرين وحساب يوم الدين، ووعدنا ثواب النبيين والشهداء والصالحين في دار النعيم أبد الآبدين، ودهر الداهرين، والحمد لله رب العالمين، وصلَّى الله على محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين، ولنا فضائل أخرى يطول شرحها تركنا ذكرها مخافة التطويل، وأستغفر الله لي ولكم.

قال صاحب العزيمة: قل أيضًا: ثم إنا تركنا ورجعنا مرتدين بعد وفاة نبينا شاكِّين منافقين وقتلْنا الأئمة الخيِّرين الفاضلين طلبا للدنيا بالدين.

ثم نظر الملك فرأى رجلًا على رأسه مشدة قائمًا في الملعب بين يديه آلات الرصد فقال للوزير: مَن هو ذلك؟ قال: رجل من أهل الروم من بلاد يونان، فقال الملك: مره، فأمر له أن يتكلم، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال اليوناني: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي كان قبل الهَيُولَى ذات الصورة، والأبعاد كالواحد قبل الأعداد، والأزواج والأفراد، والمتعالي عن الأنداد والأضداد.

والحمد لله الذي تفضَّل وتكرَّم وأفاض من جوده العقل الفعال ذا العلوم والأسرار، وهو نور الأنوار، وعنصر الأرواح.

والحمد لله الذي أنتج من نوره العقل والبحث من جوهر النفس الكلية الفلكية ذات الحركات وعين الحياة والبركات.

والحمد لله الذي أظهر من قوة النفس عنصر الأكوان ذوات الهَيُولَى والكيان.

والحمد لله خالق الأجسام ذوات المقادير والأبعاد والأماكن والأزمان.

والحمد لله مركب الأفلاك والكواكب السيارات الموكل بدورانها النفوس والأرواح والملائكة ذات الصور والأشباح ذوي النطق والفكر والحركات الدورية وجعلها مصابيح الدُّجَى ومشرق الأنوار في الآفاق والأقطار.

والحمد لله مركب الأركان ذوات الكيان وجعلها مسكنًا للنبات والحيوان والإنس والجان، وأخرج النبات، وجعل ذلك مادة للأبدان وغذاء الحيوان، وهو المخرج من قعار البحار وصم الجبال، الجواهر المعدنية الكثيفة ذوات المنافع.

والحمد لله الذي فضَّلَنا على كثير من عباده تفضيلًا؛ إذ خص بلادنا بكثرة البُقُول والنِّعَم، وجعلنا ملوكًا بالخصال الفاضلة والسِّيَر العادلة ورجحان العقول ودقة التمييز وجودة الفهم وكثرة العلوم والصنائع العجيبة، والطب والهندسة والنجوم، وعلم تركيب الأفلاك، ومعرفة منافع الحيوان والنبات والمعادن والحركات وآلات الرصد والطلسمات، وعلم الرياضات والمنطقيات والطبيعيات والإلهيات، فله الحمد والثناء والشكر على جزيل العطاء، ولنا فضائل أُخَر يطول شرحها، وأستغفر الله لي ولكم.

فقال صاحب العزيمة: مِن أين لكم هذه العلوم والحكمة التي ذكرتَها وافتخرتَ بها، لولا أنكم أخذتم بعضها من آل إسرائيل أيام بطليموس، وبعضها من علماء أهل مصر أيام مسيطوس، فنقلتموها إلى بلادكم ونسبتموها إلى أنفسكم.

فقال الملك لليوناني: ماذا تقول فيما ذكر؟ قال: صدق الحكيم فيما قال، فإذا أخذناها منهم فإن علومنا وعلوم سائر الأمم بعضها من بعض، ولو لم يكن كذلك من أين للفُرْس علم النجوم وتركيب الأفلاك وآلات الرصد، لولا أنهم أخذوها من أهل الهند، ومِن أين كان لبني إسرائيل علم الحِيَل والسِّحْر والعزائم، ونصب الطلسمات واستخراج

المقادير لولا أن سليمان — عليه السلام — أخذها من خزائن ملوك سائر الأمم حينما غلب عليهم ونقلها إلى لغة العبرانيين، وإلى بلاد الشام، وكانت مملكته في بلاد فلسطين وبعضها ورثها بنو إسرائيل من كتب أنبيائهم التي ألقتْها إليهم الملائكة بالوحي والإنباء من الملأ الأعلى الذين هم سُكَّان السموات وملوك الأفلاك وجنود رب العالمين.

قال الملك للحكيم: ما تقول فيما ذكر؟ قال: صدق، إنما تكثر العلوم في أمة دون أمة، وفي وقت دون وقت من الزمان، فإذا صار المُلْك والنبوة فيها، فتغلب سائر الأمم وتأخذ فضلها وفضائلها وعلومها وكتبها فتنقلها إلى بلادهم وينسبونها إلى أنفسهم.

ثم نظر الملك إلى رجل عظيم الجثة قوي البنية حسن البزة ناظرًا نحو السماء يُدير بصرَه مع الشمس كيفما دارت، فقال: مَن هو ذلك؟ قال الوزير: رجل من أهل خراسان من بلاد مرو والشاهاه، فقال الملك: فمر له ليتكلم، فأمر له الوزير، فقال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال الخراساني: الحمد لله الواحد الأحد الكبير المتعال العزيز الجبار القوي القهار العظيم الغفار ذي الطول لا إله إلا هو إليه المصير، الذي تقصر عن كيفية صفاته ألسُن الناطقين، ولا تبلغ كُنْه أوصافه أفهام المتفكِّرين تحيَّرت في عظيم جلالته عقول ذوي الألباب والأبصار من المستبصرين، علا فدنا، وظهر فتجلَّى، وهو بالمنظر الأعلى، ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾، احتجب بالأنوار قبل خلق الليل والنهار، وركب الأفلاك الدائرات، ورفع سموك السموات ذوات الأقطار المتباعدات، فلله الحمد خالق الخلائق أجناسًا من الملائكة والجن والإنس من الشياطين، ومن الخليقة أصنافًا ذوي أجنحة مثنى وثلاث ورباع وذوات رجلين وأربع، وما ينساب على بطنه وما يغوص في الماء، ويسبح فيه، ثم جعلها أنواعًا وأشخاصًا ومن بني آدم شعوبًا وقبائل مختلفة ألوانها وألسنتها ودثارها وأماكنها وأزمانها، ثم قسم عليهم أنعامه وأفضاله ومواهبه وإحسانه.

والحمد لله على ما أعطى ووهب من آلائه، وعلى ما وعد من أنعامه.

والحمد لله خصنا وتفضَّل علينا إذ جعل بلادنا أكثر البلدان مدنًا وأسواقًا ومنازل وقلاعًا وحصونًا وأنهارًا وأشجارًا وجبالًا ومعادن وحيوانًا ونباتًا ورجالًا ونساءً، فنساؤنا في قوة الرجال، ورجالنا في قوة الجمال، وجمالنا في قوة عظم الجبال.

والحمد لله على ما خصنا ومدحنا على ألسُن النبيين بالبأس الشديد، والقوة المتين، ومحبة الدِّين، واتباع المرسلين، فقال عزَّ وجلَّ: ﴿نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾، وقال — عزَّ وجلَّ — للمُخلَّفين من الأعراب: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾، وقال: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لو كان الإيمان معلَّقًا بالثُّريَّا لتناوله رجل من أبناء فارس.» وقال ﷺ: «طوبى لإخواني من رجال فارس يجيئون في آخِرِ الزمان يجدونه سوادًا على بياض ويؤمنون بي ويصدقونني.»

والحمد لله على ما خصنا باليقين والإيمان والعمل للآخرة والتزوُّد للمعاد، وإنَّ منَّا مَن يقرأ الإنجيل ولا يدري منه شيئًا، ويؤمن بالمسيح ويصدِّقه، ومنَّا مَن يقرأ القرآن ويلحنه، ولا يعرف معناه، ويؤمن بمحمد ويصدِّقه وينصره، ونحن لَبِسْنا السواد وطلبْنَا بثأر الحُسَيْن وطردْنَا البُغاة من بني مروان طغَوْا وعصَوْا وتعدَّوْا حدود الله والدِّين، ونحن نرجو أن يَظهَر من بلادنا الإمام المهدي — عليه السلام — المُنتظَر من آل محمد ﷺ، فإن عندنا له خبرًا وأثرًا، والحمد لله على ما أعطى ووهب وأنعم وأكرم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ الفارسي من كلامه نظر الملك إلى مَن حوله من الحكماء، وقال: ماذا تَرَوْن فيما ذكر؟ قال رئيس الفلاسفة: صدق فيما ذكر، لولا أن فيهم جفاء الطبع وفحش اللسان ونكاح الغلمان وتزويج الأمهات وعبادة النيران ويسجدون للشمس من دون الرحمن.

(١٤) فصل في بيان صفات الأسد وأخلاقه ومناقبه من الخصال المحمودة والمذمومة من بين السباع والوحوش

ولما كان في اليوم الثالث حضر زعماء الطوائف على الرسم، فوقفتْ في مواضعها كالأمس في المجلس، ونظر الملك يمنة ويسرة فرأى ابن آوى واقفًا إلى جنب الحمار وهو ينظر شزرًا ويلتفت يمنة ويسرة شبه المريب الخائف الوَجِل من الكلاب.

فقال الملك على لسان الترجمان: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم السباع، قال: ومَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن هو؟ قال: الأسد أبو الحارث.

قال الملك: أين يأوي من البلاد؟ قال: في الآجام والغياض والدحال، قال: ومَن رعيته؟ قال: حيوان البر من الوحوش والأنعام والبهائم.

قال: ومَن جنوده وأعوانه؟ قال: النمورة والفهود والذئاب وبنو آوى والثعالب وسنانير البر وكل ذي مخلب وناب من السباع، قال: صِفْ لي صورتَه وأخلاقَه وسيرتَه في رعيته وجنوده؟

قال: نَعَم أيها الملك، هو أكبر السباع جثة، وأعظمها خلقة، وأقواها وأشدها قوة وبطشًا، وأعظمها هيبة وجلالًا، عريض الصدر دقيق الخصر لطيف المؤخر، كبير الرأس مدور الوجه وضَّاح الجبين، واسع الشدقين منفرج المنخرين، متين الزندين حاد الأنياب والمخالب، برَّاق العينين، جهير الصوت، شديد الزئير، عَبْل الساقين، شجاع القلب، هائل المنظر، لا يهاب أحدًا، ولا يَرهَب لشدة بطشه الجواميس، ولا الفيلة ولا التماسيح، ولا الرجال ذوي البأس الشديد، ولا الفرسان ذوي السلاح الشاكي المدرَّعة، وهو شديد العزيمة، حازم الرأي إذا همَّ بأمر قام إليه بنفسه، لا يستعين بأحد من جنوده وأعوانه، سخي النفس إذا اصطاد فريسة أكل منها وتصدَّق بباقيها على جنوده وخدمه، عفيف النفس عن الأمور الدنية، لا يتعرَّض للنساء ولا للصبيان ولا للنِّيام، كريم الطبع إذا رأى ضوءًا بعيدًا ذهب نحوه في ظلم الليل ووقف بالبعد منه وسكنتْ ثورة غضبه ولانت صولته، وإذا سمع نغمة طيبة قرب منها وسكن إليها لا يفزع من شيء ولا يتأذَّى إلا من النمل الصغير، فإنها مسلطة عليه وعلى أشباله كما سُلِّط البقُّ على الفيلة والجواميس، وتَسلَّط الذباب على الملوك الجبابرة من بني آدم، قال: كيف سيرته في رعيته؟ قال: أحسنها وأعدلها، وأنا أذكر بعد هذه.

(١٥) فصل في بيان صفة العنقاء وصفة الجزيرة التي تأوي إليها وما فيها من النبات والحيوان

ثم نظر الملك إلى الطوائف الحضور هناك، فرأى الببغاء قاعدة على غصن شجرة بالقرب، وهي تنظر وتتأمل كل مَن يتكلم من الجماعة الحضور وينطق بحكاية في كلامه وأقاويله.

فقال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم الجوارح من الطير، قال: مَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن هو؟ قال: عنقاء مغرب، قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: إلى أطواد الجبال الشامخة في جزيرة البحر الأخضر، التي قلَّ ما بلغ إليها مراكب البحر، ولا أحد من البشر.

قال: صِفْ لنا تلك الجزيرة؟ قال: نَعَم، طيِّبة التربة معتدلة الهواء، تحت خط الاستواء، عذبة المياه من العيون والأنهار، كثيرة الأشجار من دوح الساج العالية في جو

الهواء قصب آجامها القنا، وعكرشها الخيزران، وحيوانها الفيل والجواميس والخنازير وأصناف أُخَر، لا يعلمها إلا الله، قال: صِف لنا صورة العنقاء وأخلاقها وسيرتها؟ قال: نَعَم، هي أكبر الطير جثة، وأعظمها خِلْقة، وأشدها طيرانًا، كبيرة الرأس عظيمة المنقار، كأنه معول من الحديد، عظيمة الجناحين، إذا نشرتْهما كأنهما شراعان من شراعات مراكب البحر، وذنب مناسب لهما كأنه فازة نمرود الجبار، وإذا انقضَّتْ من الجو في طيرانها تهتز الجبال من شدة تموج الهواء من خفقان جناحيها وهي تخطف الجواميس والفيلة من وجه الأرض في طيرانها كما يخطف الحِدَأة الفأرة في طيرانه من وجه الأرض في طيرانها، قال: ما سيرتها؟ قال: أحسنها وأعدلها، وأنا أذكر بعد هذا.

(١٦) فصل في بيان صفة الثعابين والتنين وعجيب خلقهما وهائل منظرهما

ثم إن الملك سمع نغمة وطنينًا من شِقٍّ حائط كان بالقرب من هناك هي تترنَّم وتتذمَّر، ولا تهدأ ساعة ولا تسكن، فتأمَّله فإذا هو صرصر واقف يحرك جناحيه له حركة خفيفة سريعة يُسمع لها نغمة وطنين كما يُسمع لوتر الزبير.

فقال له الملك: مِن أين أنت؟ قال: أنا زعيم الهوامِّ والحشرات، قال: مَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: مَن؟ قال: الثعبان.

قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: الجبال الشامخة المرتفعة إلى كرة النسيم عند كرة الزمهرير، حتى لا يرتفع إلى هناك سحاب، ولا غيوم، ولا يقع أمطار، ولا ينبت نبات، ولا يعيش حيوان من شدة برد الزمهرير.

قال: فمَن جنوده وأعوانه؟ قال: الحيَّات والجرادات والحشرات أجمع، قال: فأين تأوِي جنوده؟ قال: في الأرض بكل مكان، فهم أُمَّة وخلائق لا يُحصِي عددَها إلا الله الذي خلقها وصوَّرها وبَرَأَها، ويعلم مستقرَّها ومستودعها.

قال الملك: ولِمَ ارتفع الثعبان إلى هناك مع جنوده وأبناء جنسه؟ قال: ليستريح ببرد الزمهرير من شدة وهج حرارة السم الذي بين فكَّيْه وتلهُّبها في جسمه.

قال: صِف لنا صورته وأخلاقه وسيرته؟ قال: صورته كصورة التنين، وأخلاقه كأخلاقه، قال: فمَن لنا بوَصْف التنين؟ قال: زعيم حيوان الماء، قال: مَن هو؟ قال: ذلك الراكب الخشبة.

فنظر المَلِك فإذا الضفدع راكب خشبة على ساحل البحر بالقرب من هناك وهو يَنِقُّ بأصوات تسبيحات لله وتكبيرات وتحميدًا وتهليلًا لا يعلمها إلا الله والملائكة الكرام البررة.

قال الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم حيوان الماء، قال: ومَن أرسلك؟ قال: مَلِكُنا، قال: ومَن هو؟ قال: التنين، قال: أين يأوي من البلاد؟ قال: في قعر البحار؛ حيث الأمواج المتلاطمة ومنشأ السحاب والغيوم المؤلَّفة، قال: مَن جنوده وأعوانه؟

قال: التماسيح والدلافين والسرطانات، وأصناف من الحيوانات البحرية التي لا يُحصي عددها إلا الله الواحد القهار.

قال: صِف لنا صورة التنين وأخلاقه وسيرته؟ قال: نَعَم، أيها الملك، هو حيوان عظيم الخِلْقة، عجيب الصورة، طويل القامة، عريض الجثة، هائل المنظر، مهول المَخْبَر، تخافه وتهابه حيوانات البحر أجمع؛ لشدة قوته، وعظم صولته، إذا تحرك تحرك موج البحر من سرعة سباحته، كبير الرأس، براق العينين، واسع الفم، كثير الأسنان، يبلع من حيوانات البحر عددًا كثيرًا لا يُحصى، وإذا امتلأ جوفه منها وأُتخِم تقوَّس والْتَوَى، واعتمد على رأسه وذنبه، ورفع وسطه خارجًا من الماء مرتفعًا في الهواء مثل قوس قزح، يُشرق في عين الشمس ويستروح بحرها؛ ليستمرئ ما في جوفه، وربما عرض له وهو على هذه الحالة غشية، وينشأ سحابة من تحته ترفعه فترمي به إلى البر فيموت، وتأكل من جثته السباع أيامًا، وترمي به إلى أُمَّة يأجوج ومأجوج الساكنين من وراء السد، وهما أمتان صورتهما آدمية ونفوسهما سبعية، لا يعرفان التدبير ولا السياسة ولا البيع ولا الشراء ولا الحِرْفة ولا الحَرْث ولا الزَّرْع، بل الصيد من السباع والوحوش والسمك والنهب والغارات بعضها على بعض، ويأكل بعضها بعضًا.

واعلم أيها الملك بأن كل حيوانات البحر تفزع من التنين وتهابه، وهو لا يفزع من شيء إلا من دابة صغيرة تُشبِه الكرور والجرجيس، فتلسعه وهو لا يقدر عليها بطشًا، ولا منها احترازًا، فإذا لسعتْه دبَّ سمُّها في جسمه فمات، واجتمعت عليه الحيوانات البحرية تأكله، فيكون لها عيشًا رغدًا أيامًا من جثته، فهي تأكلها مدة من الزمان كما تأكل السباع كبارَها صغارُها مدة من الزمان، وهكذا حكم الجوارح من الطير.

وذلك أن العصافير والقنابير والخطاطيف وغيرها تأكل الجراد والنمل والذباب والبق وما شاكلها، ثم إن البواشق والشواهين وما شاكلها تصطاد العصافير والقنابر وتأكلها، ثم إن البُزاة والصُّقُور والنسور والعقبان تصطادها وتأكلها، ثم إنها إذا ماتتْ أكلها صغارُها من النمل والذباب والديدان.

وهكذا سيرة بني آدم، فإنهم يأكلون لحوم الجَدْي والحملان والغنم والبقر والطير وغيرها، ثم إذا ماتوا أكلتْهم في قبورهم الديدان والنمل والذباب.

وهكذا يأكل صغارُ الحيوانات كبارَها وتارةً تأكل كبارُها صغارَها، ومن أجل هذا قال الحكماء المنطقيون من الإنس: إن مِن فساد شيء آخر يكون صلاح شيء آخر، قال الله سبحانه: وتلك الأيام نُداوِلها بين الناس وما يَعقِلها إلا العالمون.

وقد سمعنا أيها الملك أن هؤلاء الإنس يزعمون أنهم أربابنا، وأن سائر الحيوانات عبيد لهم، فهلَّا يفقهون فيما وصفتُ من تصاريف أحوال سائر الحيوانات، هل بينها فرق فيما ذكرتُ، فإنهم تارةً آكلون وتارةً هم مأكولون فبماذا يفتخر بنو آدم على الحيوانات وعاقبة أمرهم مثل أمرها؟! وقد قيل: «الأعمال بخواتيمها.» وكلهم من التراب خلقوا وإليه مصيرهم.

ثم قال الضفدع: اعلم أيها الملك الحكيم بأنه لما سمع التنين قول الإنس وادِّعاءهم على الحيوانات أنها عبيدهم وأنهم أرباب لها تعجَّب من قولهم الزور والبهتان، وقال: ما أجهلَ هؤلاء الإنسَ وأشدَّ طغيانَهم وإعجابَهم بأنفسهم ومكابرتَهم لأحكام العقول! كيف يُجوِّزون أن تكون السباع والوحوش والجوارح والثعابين والتنانين والتماسيح والكواسيج عبيدًا لهم، وخُلقت من أجْلهم؟! أفلا يتفكرون ويعتبرون بأنه لو خرجتْ عليهم السباع من الآجام وانقضَّتْ عليهم الجوارح من الجو، ونزلتْ عليهم الثعابين من رءوس الجبال، وخرجت إليهم التماسيح والتنانين من البحر، فحملت على الإنس حملة واحدة هل يبقى منهم أحد، وأنها لو خالطتْهم في ديارهم ومنازلهم هل كان يَطِيب لها عيش أو حياة معهم؟ أفلا يتفكرون في نِعَم الله — تعالى — عليهم حين صَرَفَها وأبْعَدَها من ديارهم لدَفْع ضرَرِها عنهم، وإنما غرَّهم كون هذه الحيوانات السليمة الأسيرة في أيديهم التي لا شوكة لها ولا صولة ولا حيلة، وهم يسومونها سوء العذاب ليلًا ونهارًا، فأخرجهم ذلك إلى هذا القول من غير حق ولا برهان.

فصل

ثم إن الملك نظر إلى جماعة الإنس وهم وقوف نحو اثنين وسبعين رجلًا مختلفي الألوان والصفات والزي واللباس، فقال لهم: قد سمعتم ما قال، فاعتبروا وتفكروا فيه، ثم قال لهم: مَن مَلِكُكُم؟» قالوا: لنا عِدَّة ملوك، قال: فأين ديارهم؟ قالوا: في بلدان شتَّى، كل

واحد في مدينة له جنوده ورعيته، قال الملك: لأي علة وأي سبب صارت هذه الطوائف من الحيوانات لكل جنس منها ملك واحد مع كثرتها، وللإنس ملوك عدة مع قلتهم؟

قال زعيم الإنس العراقي: نَعَم أيها الملك، أنا أُخبِرك ما العلة وما السبب في كثرة ملوك الإنس وقلة ملوك سائر الحيوانات مع كثرتها، قال الملك: وما هي؟

قال: لكثرة مآرب الإنس وفنون تصاريف أمورهم واختلاف أحوالها، فاحتاجوا إلى كثرة الملوك وليس حكم سائر الحيوانات كذلك.

وخصلة أخرى أن ملوكهم إنما هم بالاسم من جهة كبر الجثة وعظيم الخلقة وشدة القوة حسب.

وإن حكم ملوك الإنس ربما يكون بخلافه، وذلك أنه ربما يكون الملك أصغرهم جثة وألْطَفَهم بِنْية وأضعفهم قوة، وإنما المراد من الملوك حسن السياسة والعدل في الحكومة ومراعاة أمر الرعية وتفقُّد أحوال الجنود والأعوان وترتيبهم مراتبهم والاستعانة بهم في الأمور المشاكِلة لهم.

وذلك أن رعية ملوك الإنس وجنودها وأعوانها أصناف وصفات شتَّى، فمنهم حَمَلَة السلاح الذين بهم يبطش الملك بأعدائه ومَن خَالَف أمرَه من الثوَّار والخوارج واللصوص وقُطَّاع الطرق والغوغاء والعيارين ومَن يريد الفِتَن ويُثِيرها، ويُريد الفساد في البلاد.

ومنهم الوُزراء والكُتَّاب والعُمَّال وأصحاب الدواوين وجُباة الخَرَاج، وبهم يجمع الملك الأموال والذخائر وأرزاق الجند وما يحتاج إليه من الأمتعة والثياب والأثاث.

ومنهم البنَّاءون والدهَّانون والمزارعون وأرباب الحرث والنسل وبهم عمارة البلاد وقوام أمر المعاش للكل.

ومنهم القضاة والعلماء والفقهاء الذين هم قوام الدِّين وحكَّام الشريعة التي لا بد للمَلِك من دِين وحكم وشريعة يحفظ بها الرعية والأمة ويسوسهم ويدبِّر أمورَهم على أحكمه وأحسنه.

ومنهم التجار والصناع وأصحاب الحرف والمتعاونون في المعاملات والتجارات والصناع في المدن والقرى الذين لا يتم أمر المعاش وطيب الحياة إلا بهم، ومعاونة بعضهم بعضًا.

ومنهم الخَدَم والغِلْمان والجواري والحُجَّاب والوكلاء أصحاب الخزائن والفيوج والرسل وأصحاب الأخبار والندماء المختصون ومَن شَاكَلَهم ممَّن لا بد للملوك منهم في تمام السيرة.

وكل هؤلاء الطوائف الذين ذكرتُهم لا بد للملك من النظر في أمورهم وتفقُّد أحوالهم والحكومة بينهم.

فمِن أجْل هذه الخصال احتاجتِ الإنس إلى كثرة الملوك في كل بلد أو في كل مدينة ملك واحد يدبِّر أمرَ أهلِها كلها كما ذكرتُ، ولم يمكن أن يقوم بها كلها واحد؛ لأن أقاليم الأرض سبعة أقاليم، وفي كل إقليم عدة بلدان، وفي كل بلدة عدة مدن، وفي كل مدينة عدة خلائق، لا يُحصِي عددَها إلا الله، وهم مختلفو الألسُن والأخلاق والآراء والمذاهب والأعمال والأحوال والمآرب.

ولهذه الخصال واجب في الحكمة الإلهية والعناية الربانية أن تكون ملوك الإنس كثيرة، وكل ملوك بني آدم خُلَفاء الله في أرضه ملَّكهم بلادَه وولَّاهم عبادَه ليسوسوهم ويدبِّروا أمورَهم ويحفظوا نظامَهم ويتفقَّدوا أحوالهم ويقمعوا الظلم وينصروا المظلوم ويقضوا بالحق وبه يعدلون ويأمرون بأوامره، وينهَوْن عن نواهيه ويتشبَّهون به في تدبيرهم وسياستهم؛ إذ كان الله — تعالى — هو سائس الكل، ومدبر الخلائق من أعلى عليين إلى أسفل سافلين، وحافظهم وخالقهم ورازقهم ومُبدئهم ومعيدهم كما شاء وكيف شاء، لا يُسأل عمَّا يفعل وهم يُسألون، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

(١٧) فصل في بيان فضيلة النحل، وعجائب أموره وتصاريف أحواله وما خُصَّ به من الكرامات والمواهب دون غيره من الحشرات

فلما فرغ زعيم الإنس من كلامه نظر الملك إلى أصناف الحيوانات، فسمع دويًّا وطنينًا، فإذا هو باليعسوب أمير النحل وزعيمها واقف في الهواء يحرك جناحيه حركة خفيفة يسمع لها دوي وطنين مثل نغمة الزبير من أوتار العود، وهو يسبح الله ويقدسه ويُهلِّله.

فقال له الملك: مَن أنت؟ قال: أنا زعيم الحشرات وأميرها، قال: كيف جِئتَ بنفسك، ولم ترسل رسولًا من رعيتك وجنودك كما أرسلتْ سائر طوائف الحيوانات؟ قال: إشفاقًا عليهم، ورحمة لهم، وتحنُّنًا عليهم أن ينال أحدًا منهم سوء أو مكروه أو أذية، قال له الملك: وكيف خُصصتَ بهذه الخصال دون غيرك من ملوك سائر الحيوانات؟ قال: إنما اختصني ربي من جزيل مواهبه ولطيف إنعامه وعظيم إحسانه بما لا أحصيه.

قال الملك: اذكر منها طرفًا لأسمعه وبيِّنْه لأفهمه؟!

قال: نَعَم أيها الملك، ممَّا خصَّني الله به وأنعم به عليَّ وعلى آبائي وأجدادي أنْ أَتَانَا المُلْك والنبوَّة التي لم تكن من بعدنا لحيوانات أُخَر، وجعلها وراثة من آبائنا وأجدادنا

وذخيرة لأولادنا وذرياتنا يتوارثونها خَلَفًا عن سَلَف إلى يوم القيامة، وهما نعمتان عظيمتان جزيلتان مغبون فيهما أكثر الخلائق من الجن والإنس وسائر الحيوانات، ومما خصَّنا ربنا وأنعم به علينا أن ألْهَمَنا وعلَّمنا دقة الصنائع الهندسية ومعرفة الأشكال الفلكية من اتخاذ المنازل وبناء البيوت وجمع الذخائر فيها، وما خصنا به أيضًا وأنعم به علينا سبيل الرشاد، ومما خصنا أيضًا وأنعم به علينا أن حلَّل لنا الأكل من كل الثمرات ومن جميع أزهار النبات.

ومما خصَّنا وأنعم به علينا أنْ جعل الله في مكاسبنا وذخائرنا وما يخرج من بطوننا شرابًا حلوًا لذيذًا فيه شفاء للناس وتصديق مما قال الله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

ومما خصنا به ربنا أيضًا وأنعم به علينا أنْ جعل خِلْقة صورتنا وهياكلنا وجميل أخلاقنا وحسن أفعالنا وأعمالنا وتصاريف أمورنا وحسن سياستنا وتدبير رعيَّتنا عبرةً لأولي الألباب، وآية لأولي الأبصار، وذلك أن الله — تعالى — بحكمته جعل خلقتنا خلقة لطيفة، وبِنْيتنا بِنْية ظريفة، وصورتنا صورة عجيبة، وذلك أنه — تعالى — جعل بِنْية جسدنا ثلاثة مفاصل مخروزة، فوسط جسدنا مربع مكعب، ومؤخَّر جسدنا معوج مدبَّج مخروط، ورأسنا مدوَّر مبسوط، وركَّب في وسط أبداننا أربع أرجل ويدين متناسبات المقادير كأضلاع الشكل المسدس في الدائرة لنستعين بها على القيام والقعود، والوقوع والنهوض، ونقدر على أساس بناء منازلنا، وبيوتنا مسدَّسات مكتنفات، ففي بنيان بيوتنا وأشكال منازلنا إلْهَامات ربانية ومعقولات روحانية، إذ عجز الرياضيون عن موضوعات أشكالنا، وتسديسات منازلنا.

والغرض من المتساوية الأضلاع والزوايا المكشوفات، كيلا يدخلها الهواء، فيضر بأولادنا ويفسد شرابنا الذي هو قوتنا وذخائرنا.

وبهذه الأربع الأرجل واليدين نجمع من ورق الأشجار وزهر الأثمار الرطوبات الدهنية التي نبني بها منازلنا وبيوتنا، وجعل الله على كتفي أربعة أجنحة حريرية النسج آلة لي في الطيران في جوِّ الهواء مستقلًّا بها، وجعل مؤخَّر بدننا مخروط الشكل مجوفًا مدرَّجًا مملوءًا بالهواء، ليكون موازنًا في ثقل رأسنا في الطيران، وجعل لي حُمَة حادَّة كأنها شوكة، وجعلها سلاحًا لي أخوِّف به أعدائي وأزجُر به مَن يتعرَّض ليؤذِيَني، وجعل رقبتي خفيفة ليسهل بها عليَّ تحريك رأسي يَمنة ويَسرة، وجعل رأسي مدوَّرًا عريضًا

وجعل في جنبي عينين براقتين كأنهما مرآتان مجلوَّتان، وجعلها آلة لنا لإدراك المرئيات المبصرات من الألوان والأشكال والأنوار والظلمات، وأثبت على رأسنا شبه قرنين لطيفين ليِّنين، وجعلهما آلة لنا لإحساس الملموسات واللَّيِّن من الخشونات والصلابة والرخاوة، وفتح لنا منخرين وجعلهما لإحساس المشمومات الطيبة والروائح الجيدة، وجعل لنا فمًا مفتوحًا فيه قوة ذائقة نتعرَّف بها قوة الطعام والطيبات من المأكولات والمشروبات، وخلق لنا مشفرين حادَّيْن نجمع بهما من ثمرة الأشجار رطوبات لطيفة.

وعجز الطبيعيون والأطباء من اليونانيين من معرفتنا على طبائع النبات والاطِّلاع على خصائص منافعها، وخلق في جوفنا قوة جاذبة وماسكة وهاضمة وطابخة منضجة، تُصيِّر تلك الرطوبات عسلًا حلوًا لذيذًا شرابًا صافيًا غذاءً لنا ولأولادنا وذخائر للشتاء، كما جعل في ضروع الأنعام قوة هاضمة تُصيِّر الدمَ لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين، وجعل فضالتنا وفضالة أولادنا سببًا وشفاءً لأخص خلْق الله — تعالى — إذ في تشكيلنا وتخطيطنا المسدسات وترتيب الزوايا المتساويات جعل شفاء للأرواح الإنسانية، وفي فضالتنا وبصاقنا ولعابنا جعل شفاءً للجسد الإنساني، وجعل فضالة فضالتنا وهو الشمع سببًا للضياء في ظلم الليالي، عوضًا عن الضياء النوراني الحاصل من الشمس.

فمن أجْل هذه النِّعَم والمواهب التي خصَّنا الله — تعالى — بها صِرْنا مجتهِدِين في كثرة الذكر لها وأداء شكرها بالتسبيح لربنا والتهليل والتكبير والتمجيد والتحميد آناء الليل وأطراف النهار، والشفق على رعيتنا وتفقُّد أحوال جندنا وأعواننا وتربية أولادنا؛ لأنَّا لهم كالرأس من الجسد، وهم لنا كالأعضاء من البدن، لا قوام لأحدهما إلا بالآخَر، ولا صلاح لهما إلا بصلاح الآخَر، فلهذا جعلتُ نفسي فداءً لهم في أشياء كثيرة من الأمور الخطيرة إشفاقًا عليهم، ومن هذا السبب الذي ذكرتُ اخترتُ مجيئي بنفسي رسولًا ونائبًا وزعيمًا من رعيتنا وجنودنا.

فلما فرغ النحل من كلامه، قال الملك: بارك الله فيك من خطيب! ما أفصحك! وحكيم ما أعلمك! ومن رئيس ما أحسن سياستك! ومن ملك ما أفضل رعايتك! ومن عبد ما أعرفك بإنعام ربك ومواهب مولاك!

ثم قال الملك: أين تأوون من البلاد؟ قال: في رءوس الجبال والتلال، وبين الأشجار والدحال، ومنَّا مَن يُجاور بني آدم في منازلهم وديارهم.

قال الملك: كيف عشرتهم؟ وكيف تَسلَمون منهم؟ قال: أما مَن بعُد منَّا من ديارهم فيسلم على الأمر الأكثر، ولكن ربما يجيئون إلينا في طلبنا، ويتعرضون لنا بالأذية، فإذا

ظفروا بنا خربوا منازلنا، وأحفوا بيوتنا ولم يُبالوا بأنْ يقتلوا أولادنا ويأخذوا مساكننا وذخائرنا ويتقاسموها ويستأثروا بها دوننا.

قال الملك: وكيف صبركم عليهم وعلى ذلك منهم؟ قال: صبر المضطر تارةً كرهًا، وتارةً رضًا وتسليمًا، إنْ غضِبْنا وهربْنا وتباعدْنا من ديارهم جاءوا خلفنا يطلبوننا ويترضَّوْننا بالهدايا من العِطْر وأنواع الحِيَل من أصوات الدفوف والطبول والمزامير والهدايا المزدوجة المزخرفة من الدبس والتَّمْر وعملهم مثل عمل الطرَّارين الذين يمشون في المحالِّ ويعطون الزبيب والجوز إلى الصبيان، ويأخذون منهم أثوابهم ودراهمهم، ويسخرون على الصبيان.

فهؤلاء أيضًا يعملون مثل السخرية بحيث إنهم يبعثون إلينا الهدايا من التمر والدبس؛ إذ كلاهما يضر بأبدانهم ويأخذون منَّا عسلًا صافيًا لذيذًا جعله الله — تعالى — سببًا لشفاء أبدانهم وزوال أمراضهم، فنحن مِن حُسن أخلاقنا لا نُضايِقهم فنُصالِحهم؛ إذ الصلح خير لنا ولهم؛ لأن العداوة والخصومة تؤدِّي إلى هلاك الحيوان، وتؤدِّي إلى خراب البلاد، فنحن نُراجِعهم ونُصالِحهم لِمَا في طبائعنا من الخيرة، ولما في صدورنا من السلامة وقلَّة الحِقْد والحسد وحسن المراجعة، وقلبُنا صار موضع إلْهام من الله — تعالى — لا يجوز أن يكون موضع الحقد والحسد؛ إذ هما ضدان لا يجتمعان، وذلك أن الله — تعالى — جعلنا من المقرَّبين والصالحين، وألْقَى الوحْي علينا، لا يَلِيق بنا أن نكون فاسقين طاغين.

ومع هذا كله لا يَرضَوْن منَّا هؤلاء الإنس حتى يدَّعون علينا بأننا عبيد لهم، وهم موالٍ وأرباب لنا بغير حجة ولا بيان ولا برهان غير الزور والبهتان؛ إذ نحن غير محتاجين إليهم حسب ما يكون العبيد محتاجين إلى الموالي في تصاريف أمورهم، بل هم محتاجون إلينا مثلما يحتاج الخدم إلى السيد، والله المستعان، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

(١٨) فصل في بيان حسن طاعة الجن لرؤسائها وملوكها

ثم قال اليعسوب لملك الجن: كيف حسن طاعة الجن لرؤسائها وملوكها؟ قال: أحسن طاعة وأطوع انقياد لأمرها ونهيها، قال: يتفضل الملك ويذكر منها شيئًا؟ قال: نَعَم.

فاعلم أن الجن أخيار وأشرار، ومسلمون وكُفَّار، وأبرار وفُجَّار، كما يكون في الناس من بني آدم، فأمَّا حُسْن طاعة الأخيار منها لرؤسائها وملوكها ففوق الوَصْف ممَّا لا

يعرفه البشر من بني آدم؛ لأن طاعتها لملوكها كطاعة الكواكب في الفلك للنيِّر الأعظم الذي هو الشمس.

وذلك أن الشمس في الفلك كالملك وسائر الكواكب لها كالجنود والأعوان والرعية ونسبة المِرِّيخ من الشمس كنسبة صاحب الجيش من الملك والمُشتَرِي كالقاضي، وزُحَل كالخازن، وعُطَارد كالوزير، والزُّهَرة كالحرم، والقمر كوليِّ العهد، وسائر الكواكب كالجنود والأعوان والرعية؛ وذلك أنها كلها مربوطة بفلك الشمس، تسير بسيرها في استقامتها ورجوعها ووقوفها واتصالاتها وانصرافاتها، كل ذلك بحسبان لا تتجاوز رسومها ولا تتعدَّى حدودَها وجريان عاداتها في طلوعها وغروبها، وتشريقها وتغريبها، وجميع أحوالها ومتصرفاتها لا يُرى منها معصية ولا خلافه.

قال النحل لملك الجن: مِن أين للكواكب حسن هذه الطاعة والانقياد والنظام والترتيب لملكها؟ قال: من الملائكة الذين هم جنود رب العالمين.

قال: كيف حسن طاعة الملائكة لرب العالمين؟ قال: كطاعة الحواس الخمس للنفس الناطقة.

قال: زِدْني بيانًا. قال: نَعَم، ألا ترى أيها الحكيم أن الحواس الخمسة في إدراكها محسوساتها وإيرادها أخبار مدركاتها إلى النفس الناطقة لا تحتاج إلى أمر ولا نهي ولا وَعْد ولا وعيد، بل كلَّما همَّتِ النفس الناطقة بأمرٍ محسوس امتثلت الحاسة لما همَّتْ به النفس، وأدركتْها وأوردتْها إليها بلا زمان ولا تأخير ولا إبطاء.

وهكذا طاعة الملائكة لرب العالمين، الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤمَرون، الذي هو رئيس الرؤساء، وملك الملوك ورب الأرباب ومدبر الكل وخالق الجميع وأحكم الحاكمين، لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا، فسبحان الله رب العالمين.

وأما الأشرار والكُفَّار والفُسَّاق من الجن، فإنها أحسن طاعة لرؤسائها، وأطْوَع انقيادًا لملوكها من أشرار الإنس وفُجَّارهم وفُسَّاقهم.

والدليل على ذلك حسن طاعة مَرَدة الجن لسليمان — عليه السلام — لَمَّا سُخِّرتْ له فيما كان يكلِّفها من الأعمال الشاقَّة والصنائع المُتعِبة، فيجعلون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجوابِ، وقدورٍ راسيات.

ومن الدليل أيضًا على حسن طاعة الجن لرؤسائها ما قد عرَفَه بعض الإنس الذين يسافرون في المفاوز والفلوات أن أحدهم إذا نزل بوادٍ يخاف فيه من لمم الجن، ويسمع دويَّهم وزجلاتهم فيستعيذ برؤسائها وملوكها، ويقرأ آية من القرآن والإنجيل والتوراة، ويستجير بها عنهم وعن تعرُّضهم وأذيَّتهم، فإنهم لا يتعرَّضون له ما دام في مكانه.

ومن حسن طاعة الجن لرؤسائها أنه إذا تعرَّض أحد من المردة وشياطين الجن لأحد من بني آدم بتخيل أو فزعة أو تخبُّط أو لمم، فيستعين المعزم برئيس قبيلة أو ملك أو جنوده، فإنهم يعزمون عليها ويحشرون إليها ويمتثلون ما يأمرهم وينهاهم في صاحبهم.

ومن الدليل أيضًا على حسن طاعة الجن وسهولة الانقياد وسرعة إجابتها للداعي لها إجابة نفر من الجن لمحمد — عليه السلام — في ساعة اجتازوا به ووجدوه يقرأ القرآن ووقفوا عليه، فاستمعوه واستجابوه وولَّوْا إلى قومهم منذرين، كما هو مذكور في القرآن من نعتهم في نحو عشرين آية فهذه الآيات والدلالات والعلامات دالات على حسن الطاعة للجن وسهولتها وسرعة انقيادها وإجابتها لَمن يَدْعوها أو يستعين بها خيرًا كان أو شرًّا.

فأمَّا طِبَاع الإنس وجِبِلَّتهم فبالضدِّ ممَّا ذكرتُ؛ وذلك أن طاعتهم لرؤسائهم وملوكهم أكثرها خِدَاع ومكْر ونفاق وغرور وطلب للعِوَض والأرزاق والمكافآت والخِلَع والمآرب والكرامات، فإنْ لم يَرَوْا ما يطلبون أظهروا العصية والخلاف وخلعوا الطاعة والخروج من الجماعة والعداوة والحرب والقتال والفساد في الأرض.

فهكذا حكمهم مع أنبيائهم ورسل ربهم؛ تارةً ينكرون دعوتهم بالجحود، ودفع العيان وحجة الضرورات، ويطلبون منهم المعجزات بالعناد، وتارةً الإجابة بالنفاق والشك والارتياب والمكر والدغل والغش والخيانة في السر والجهر، كل ذلك لغلظ طباعهم ورداءة جِبِلَّتهم وسوء عاداتهم وسيئات أعمالهم وتراكم جهالاتهم وعَمَى قلوبهم، ثم لا يَرضَوْن حتى يزعمون أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بلا حجة ولا برهان.

فلما رأتْ جماعة الإنس طول مخاطبة ملك الجن لليعسوب زعيم الحشرات تعجَّبتْ وأنكرتْ وقالت: لقد خص الملك زعيم الحشرات اليعسوب بكرامة ومنزلة لم يخص بها أحدًا من زعماء الطوائف الحضور في هذا المجلس.

فقال لهم حكيم من حكماء الجن: لا تُنكِروا ذلك ولا تتعجبوا منه، فإن اليعسوب وإن كان صغير الجثة لطيف المنظر ضعيف البنية، فإنه عظيم المخبر جيد الجوهر ذكي النفس كثير النفع مبارك الناصية حكيم الصنعة، وهو رئيس من رؤساء الحشرات وخطيبها وملكها ونبيُّها والملوك يخاطبون مَن كان من أبناء جنسهم في الملك والرياسة، وإن كان مخالفًا لهم في الصورة، وكانوا متباينين في الملك، ولا تظنوا بأن الملك العادل الحكيم يميل في الحكومة إلى واحدة من الطوائف دون غيرها لهوًى غالب أو طبعٍ مشاكِل أو ميلٍ لسبب من الأسباب وعلة من العلل.

فلما فرغ حكيم الجن من كلامه نظر الملك إلى الجماعة فقال: سمعتم يا معشر الإنس أمر شكاية هذه البهائم من جوركم وظلمكم، ونحن قد سمعنا ادِّعاءكم عليها الرِّقَّ والعبودية وهي تأبَى ذلك وتجحده، وطالبتُكم بالدليل والحجة على دعواكم، فأوردتم ما ذكرتُم وسمعنا ما أجابوكم، فهل عندكم شيء آخَر غير ما ذكرتم بالأمس، فهاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ليكون لكم حجة عليها.

فصل

فلما سمع الإنس جميع ما قال ملك الجن في حقِّهم قام زعيم من رؤساء الروم فقال: الحمد لله الحنان المنان ذي الجود والإحسان والعفو والغفران، الذي خلق الإنسان وألْهَمَه العلوم والبيان، وبيَّن له الدليل والبرهان، وأعطاه العز والسلطان، وعرَّفه تصاريف الدهور وتقلُّب الأزمان، وسخَّر له النبات والحيوان، وعرَّفه منافع المعادن والأركان.

نَعَم أيها الملك، لنا خصال محمودة ومناقب جمَّة تدلُّ على ما قلنا وذكرنا.

قال الملك: وما هي؟ قال الرومي: كثرة علومنا وفنون معارفنا ودقة تمييزنا وجودة فكرنا ورويتنا وسياستنا وتدبيرنا وعجيب متصرفاتنا وصلاح معائشنا ومعاونتنا في الصنائع والتجارات والحِرَف في أمور دنيانا وآخرتنا، كل ذلك دليل على ما قلنا إنا أرباب لهم وهم عبيد لنا.

قال الملك للجماعة الحضور من الحيوانات: ما تقولون فيما ذكروا واستدلوا على ما ادَّعَوْا عليكم من الربوبية والتملُّك؟

فأطرقتِ الجماعة ساعة متفكِّرة فيما ذكر الإنسي من فضائل بني آدم، وما أعطاهم الله من جزيل المواهب التي خُصُّوا بها من بين سائر الحيوان.

ثم تكلم النحل وقام خطيبًا مذكِّرًا مسبِّحًا، وقال: الحمد لله الواحد فاطر السموات، وخالق المخلوقات ومدبِّر الأوقات ومنزل القطرات والبركات، ومنبت العشب في الفلوات، ومخرج الزهر من النبات وقاسم الأرزاق والأقوات، نسبِّحه في صباحنا بالغدوات، ونحمده في رواحنا بالعشيَّات بما عملنا من الصلوات والتحيات كما قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾.

أما بعدُ؛ أيها الملك العادل، يزعم هذا الإنسي بأن لهم علومًا ومعارف وفكرًا وروية وتدبيرًا وسياسة تدل على أنهم أرباب لنا، ونحن عبيدهم، فلو أنهم فكَّروا في أمرنا واعتدُّوا أيضًا أحوالنا لبَانَ لهم من أمرنا وعرفوا من تصاريف أحوالنا وتعاوننا في إصلاح شأننا

أن لنا أيضًا علمًا وفهمًا ومعرفة وتمييزًا وفكرًا وروية وسياسة وتدبيرًا أدقَّ وألطفَ وأحكم وأتْقَنَ ممَّا لهم.

فمِن ذلك اجتماع جماعة النحل في قراها وتمليكها عليها رئيسًا واحدًا واتخاذ ذلك الرئيس أعوانًا وجنودًا ورعية، وكيفية مراعاتها وسياساتها وكيفية اتخاذها المنازل والبيوت المسدسات المتجاورات المكتفات من غير بركار ومعرفة هندسة، كأنها أنابيب مجوفة مسدسة، ثم كيفية ترتيبها البوَّابين والحُجَّاب والحُرَّاس والمحتسبين، وكيف تذهب إلى المَرْعَى أيام الربيع ولياليَ القمر في الصيف، وكيف تجمع الشمع بأرجلها من ورق الأشجار والعسل بمشافيرها من زهر النبات، ثم كيف تخزنها في بعض البيوت، وكيف تشد رأسها كأنها رءوس البراقي مشدودة بالقراطيس، وكيف تبيض في بعض البيوت وتحضن وتفرخ، وكيف تأوي في بعض البيوت وتنام فيها أيام الشتاء والصيف والبرد والرياح والأمطار، وكيف يقتاتون من ذلك العسل المخزون هي وأولادها يومًا بيوم لا إسرافًا ولا تقتيرًا إلى أن تنقضي أيام الشتاء، وتجيء أيام الربيع وينبت العشب ويطيب الزمان ويخرج النبات والزهر والنَّوْر، وكيف ترعى كما كانت عام الأول؟ وذلك دأبها من غير تعليم من الأُستَاذِينَ ولا تأديب من المعلِّمين ولا تَلْقِين من الآباء والأمهات بل تعليمًا من الله — تعالى — ووحيًا إلهامًا وإنعامًا وتكرُّمًا وتفضُّلًا علينا، وأنتم يا معشر الإنس تدَّعون علينا بالرِّقِّ وأنتم موالينا، فلِمَ ترغبوا في فضائلنا وتفرحوا عند وجداننا وتستشفوا عند تناوُلنا، فمَن كان مَلِكًا كيف يحرص ويرغب في فضالة الخَدَم والخَوَل؟ ونحن مستغنون عنكم، فليس لكم سُبُل إلى هذه الدعوات إذ الدعوى زور وبهتان.

وأيضًا أيها الملك، لو علم الإنسي من حال النمل وكيف تتخذ القرية تحت الأرض منازل وبيوتًا وأزِقَّة ودهاليز وغُرَفًا وطبقات منعطفات، وكيف تملأ بعضها حبوبًا وذخائر وقوتًا للشتاء، وكيف تجعل بعض بيوتها منخفضًا مصونًا كي لا تجري إليها المياه وبعضها مرتفعًا، تخبِّئ الحب والقوت في بيوت منعطفات إلى فوق حذرًا عليها من المطر، وإذا ابتلَّ منها شيء كيف تنشُرُه أيام الصحو، وكيف تقطع حب الحنطة نصفَيْن وكيف تقشر الشعير والباقلا والعدس لعلمها بأنه لا ينبت مع التقشير، وتراها كيف تعمل أيام الصيف ليلًا ونهارًا باتخاذ البيوت وجمع الذخائر، وكيف ننصرف في الطلب يومًا يمنة ويومًا يسرة في القرية، كأنها قوافل ذاهبين وجائين وأنها إذا ذهبتْ واحدة منها فوجدتْ شيئًا لا تَقدِر على حَمْله أخذتْ منه قدْرًا ما، وذهبتْ راجعة مُخبِرة للباقين، وكلما استقبلتْها واحدة شامَمَتْها ممَّا فِي فِيها لتدلَّها على ذلك الشيء.

ثم ترى كيف تدلُّ كل واحدة منها على هذا الطريق الذي جاءتْه من هناك، ثم كيف تجتمع على ذلك الشيء جماعة منها، وكيف يحملونه ويحترزونه بجَهْد وعناء في المعاونة.

وإذا علمت أن واحدة منها توانتْ في العمل أو تكاسلتْ في التعاون اجتمعتْ على قتْلِها ورمَتْ بها عِبْرةً لغَيْرِها، فلو تفكَّر الإنسي في أمرها واعتبر أحوالها لعلم أن لها علمًا وفهمًا وتمييزًا ومعرفة ودراية وتدبيرًا وسياسة مثل ما لهم ولما افتخر علينا بما ذكر.

وأيضًا أيها الملك لو تفكَّر الإنسي في أمر الجراد أنها إذا سمنتْ أيام الربيع من الرَّعْي كيف تطلب أرضًا طيبة التربة رخوة الحفرة، وكيف تنزل هنالك وتحفر بأرجلها ومخاليبها، وتُدخِل أذنابَها في تلك الحفرة وتطرح بيضها فيها وتدفنه، ثم طارت وتعيش أيامًا ثم تأكلها الطيور ويموت مَن بَقِي ويهلك مِن حرٍّ وبردٍ وتطير.

ثم إذا دارت عليها الحول وجاءت أيام الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء، فكيف ينشر من ذلك البيض المدفون مثل الدبيب الصغار على وجه الأرض وأكلت من ورق الشجر وسمنت وباضَتْ مثل عام أول، وهذا دأبها، وذلك تقدير العزيز العليم.

فليعلم هذا الإنسي أن لنا علمًا ومعرفة.

وهكذا أيضًا أيها الملك دود القز التي تكون على رءوس الأشجار والجبال، فإنها إذا شبعتْ من الرعي في أيام الربيع، وسمنتْ أخذتْ تنسج على نفسها من لعابها في رءوس الجبال شبه العش والكِنِّ ثم تنام أيامًا معلومة، فإذا انتبهتْ طرحتْ بَيْضَها في داخل ذلك الكن الذي نسجتْه على أنفسها، ثم ثقبتْها وخرجت منها وسدَّتْ ذلك الثقب، وخرجتْ لها أجنحة، وطارتْ فيأكلها الطير أو ماتتْ من الحرِّ والبرد والريح والمطر، وبقي ذلك البيض في تلك الجوزات محروزًا أيام الصيف والخريف والشتاء من الحر والبرد والرياح والأمطار إلى أن يحول الحول، وتجيء أيام الربيع، ويحضن ذلك البيض في الجوازات، ويخرج في ذلك الثقب مثل الدبيب الصغار، وتدبُّ على ورق الشجر أيامًا معلومة، فإذا شبعتْ وسمنتْ أخذتْ ونسجتْ على نفسها من لعابها مثل العام الأول، وذلك دأبها أبدًا، وذلك تقدير العزيز العليم الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى إلى أمور مصالحها ومنافعها.

وكذلك أيضًا أيها الملك حال الزنانير الصُّفْر والحُمْر والسُّود، فإنها تَبنِي أيضًا منازل في السقوف والحيطان، ومن بين أغصان الأشجار مثلما يفعل النحل، وتبيض وتفرخ ولكنها لا تجمع القوت للشتاء، ولا تدخر للغد شيئًا، ولكن تتقوَّت يومًا بيوم ما طاب لها الوقت، فإذا أحسَّتْ بتغيير الزمان ومجيء الشتاء ذهبتْ إلى الأغوار والمواضع الكنينة الدفئة.

ومنها ما يدخل في ثقب الحيطان والمواضع الكنينة الحصينة، وينام فيها أيامًا طول الشتاء، وإذا جاء الربيع واعتدل الزمان وطاب الهواء نفخ الله — تعالى — فيما سَلِم من تلك الجثة رُوحَ الحياة، فعاشتْ وبَنَتِ البيوت وباضتْ وحضنتْ أولادَها مثل العام الأول، فهذا دأبها، تقدير العزيز العليم.

وكل هذه الأنواع من الحشرات والهوامِّ تَبِيض وتحضن وتربي أولادها بعلم ومعرفة ودراية وشفقة ورحمة ورأفة وتحنن ولطف ورفق، ولا تطلب من أولادها البر والمكافأة والجزاء.

فأما أكثر الإنس فيريدون من أولادهم برًّا وصلة وجزاءً ومكافأة ويمنون عليها في تربيتهم إياهم، وأين هذا من المروءة والفضل والكرم والجود والسخاء الذي هو مِن شِيَم الأحرار الكرام من أرباب الفضل، وبماذا يفتخر الإنس علينا؛ إذ ألذُّ مأكولاتهم فضالتنا، وأحسن ملبوساتهم فضالة دود القز، فهم في مأكولاتهم وملبوساتهم تحتَ مَنِّنَا، ولنا أبدًا النعمة عليهم، فكيف يدَّعون أنهم أرباب لنا، ونحن عبيد لهم؟!

ثم قال النحل: أما البراغيث والبقُّ والديدان وما شاكلها من أبناء جنسها، فإنها لا تبيض ولا تحضن ولا تلد ولا ترضع ولا تربِّي أولادها، ولا تبني البيوت ولا تدَّخِر العشب ولا تتخذ الكِنَّ، بل تقطع أيام حياتها مرفَّهة ومستريحة مما يقاسي غيرها من برد الشتاء والرياح والأمطار وحوادث الزمان.

وإذا تغيَّر عليها الزمان واضطرب الكيان، وتغالبت طبائع الأركان أسلمتْ نفسها للنوائب والحدثان وانقادتْ للممات لعلمها يقينًا بالمعاد، وتعلم أن الله — تعالى — منشئها ومُعِيدها في العام القابل للكون كما أنشأها أول مرة، ولا تقول ولا تنكر كما أنكر الإنس وقالت: ﴿أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ * أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً * قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾.

فلو اعتبر هذا الإنسي أيها الملك فيما ذكرتُ من هذه الأشياء من تصاريف أمور هذه الحشرات والهوامِّ لعَلِمَ وتبيَّن له بأن لها علمًا وفهمًا ومعرفةً وتمييزًا ودراية وفكرًا وروية وسياسة وتدبيرًا، كل ذلك عناية من الباري — تعالى — ولما افتخر علينا فيما ذكر أنهم أرباب ونحن عبيد لهم، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

فلما فرغ النحل من كلامه قال له الملك: بارك الله فيك من حكيم، ما أعلمك! ومن خطيب، ما أفصحك! ومن مُبِين، ما أبلغك!

فصل

ثم قال الملك: يا معشر الإنس، قد علمتم وسمعتم ما قال، وفهمتم ما أجاب، فهل عندكم شيء آخر؟

فقام إنسيٌّ آخَر أعرابي وقال: نَعَم أيها الملك، لنا خصال ومناقب تدل على أننا أرباب وهم عبيد لنا، قال الملك: هاتِ واذكر منها شيئًا، قال: نَعَم، ومَا هي؟

قال: طيب حياتنا ولذيذ عيشنا وطيبات مأكولاتنا من ألوان الطعام والشراب والملاذِّ ممَّا لا يُحصي عددَها إلا الله — تعالى — وما لهؤلاء معنا شركة فيها، بل هي بمعزل عنها، وذلك أن طعامنا لبُّ الثمار ولها قشورها ونواها وحطبها، ولنا لباب الحبوب ولها تبنها وورقها، ولنا شيرجها ودبسها ولها كنسها وخشبها، ولنا بعد ذلك ألوان الخبز والرغفان والأقراص والجرادق من السميد والمتلون والكعك وغيرها، ولنا ألوان الطبيخ من السكباج والأسفيداج والفطائر والهرائس والجواديت وألوان الكواسيج وغيرها من الرواصين وألوان الأشربة وألوان الشويِّ والحلوى والخبيص والقطائف واللَّوْزِينَج.

ولنا ألوان الأشربة من الخمر والنبيذ الخالص الجيد والقارص والسكنجبين والجلاب والفقاع، وألوان الألبان من الحليب والرائب والماست والدوغ والسمن والزبد والكشك والمصل، وما يعمل منها من ألوان الطبيخ والملاذِّ والطيبات والمشتهيات، ولا يُحصي كثرة ذلك إلا الله — تعالى — وكل ذلك عنهم بمعزل، وخشونة طعامهم وغلظها وجفافها وقلة الرائحة الطيبة منها وقلة دسومتها وحلاوتها دليل على قلة لذتهم منها، وهذه الخصال للعبيد، وتلك حال أرباب النعم الأحرار الكرام، وكل هذا دليل على أننا أرباب لهم، وهم عبيد وخَوَل لنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فصل

فنطق عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزار داستان، وكان قاعدًا على غصن شجرة يترنم فقام وقال: الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد القديم الأبد الدائم السرمد بلا شريك ولا ولد، بل هو مبدع المبدعات وخالق المخلوقات وعلة الموجودات ومسبب الكائنات من الجمادات والنباتات وبارئ المبروآت مركِّب السموات ومولِّد المولَّدات كيف شاء وأراد.

واعلم أيها الملك الكريم أن هذا الإنسي افتخر بطيب مأكولاتهم ولذيذ مشروباتهم، ولا يدري أن ذلك كله عقوبات لهم وأسباب الشقاوة وعذاب أليم؛ إذ في حرامها عذاب وفي حلالها حساب، وهم فيما بينهما من الخوف والرجاء.

قال الملك: وكيف ذلك؟ بيِّن لنا.

قال: نَعَم، وذلك أنهم يجمعون ذلك ويحصِّلونه بكدِّ أبدانهم وتَعَب نفوسهم وجهد أرواحهم، وعرق جبينهم وما يلقون في ذلك من الشقاوة والهوان مما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى من كدِّ الحرث والزرع وإثارة الأرض وحفر الأنهار وسد الشق وعمل البريدات ونصب الدواليب وجذب الغروب والسقي والحفظ والنظافة والحصاد والحمل والجمع والدراس والتذرية والكيل والقسمة والوزن والطحن والعجن والخبز وبناء التنور ونصب القدور وجمع الحطب والشوك والسرقين ووقود النيران ومقاسات الدخان وبناء الديكدان ومعاكسة القصاب ومحاسبة البقال والجهد والعناء في اكتساب الأموال والدراهم، وتعلُّم الصنائع والمكاسب المُتعِبة للأبدان والأعمال الشاقَّة على النفوس والمحاسبات والتجارات والذهاب والمجيء في الأسفار البعيدة في طلب الأمتعة والحوائج والجمع والادخار والاحتكار والإنفاق بالتقدير مع مقاساة البخل والشح.

فإن كان جمعها من حلال وأنفقها في وجه الله فلا بد من الحساب، وإن كان من غير حلٍّ وإنفاقه في غير وجه الله، فالويل والحساب والعذاب؛ إذ لا بد من القوت والثياب مثلما لا بد من الموت والحساب.

ونحن بمعزل من هذه كلها، وذلك أن طعامنا وغذاءنا هو مما يخرج لنا من الأرض من أمطار سمائها من ألوان البقول الرطبة والخضرة النضرة اللينة والحشائف والعشب ومثل ألوان الحبوب اللطيفة المكنونة في غلفها وسنبلها وقشرها، ومن ألوان الثمار المختلفة الأشكال وأنواع الطعوم والروائح الزكية والأوراق الخضرة النضرة والأزهار والرياحين في الرياض، وتخرجها لنا الأرض حالًا بعد حال وسنة بعد سنة بلا كدٍّ ولا تَعَب أبداننا ولا عناء من نفوسنا ولا نَصَب من أرواحنا، ولا نحتاج إلى كدِّ حراث ولا عناء ولا سقي مُتعِب لأرواحنا، ولا نحتاج إلى بذر ولا حصاد ولا دراس ولا طحن ولا خبز ولا طبخ ولا شواء، وهذه كلها علامات الكرام الأحرار.

وأيضًا إذا أكلْنا قوتنا يومًا بيوم تركنا ما يفضل عنَّا بمكانه لا نحتاج إلى حفظه، ولا نحتاج إلى خازن ولا ناطور ولا حارس ولا احتكار إلى وقت آخر، بلا خوف لص ولا قاطع طريق، ننام في أماكننا وأوطاننا، أوكارنا بلا باب ولا غلق ولا حصن آمنين مطمئنين مودعين مستريحين، وهذه علامات الأحرار وأنتم عنها بمعزل.

وأيضًا فإن لكم بكل لذة ذكرتم من فنون مأكولاتكم وألوان مشروباتكم فنونًا من العقوبات، وألوانًا من العذاب مما نحن بمعزل عنه من الأمراض المختلفة والأعلال المزمنة

والأسقام المُهلِكة والحُمَّيَات المحرِقة من الغب والربع والثانية والثالثة والرابعة والتُّخَم والجشأ الحامض والهيضة والقولنج والنقرس والبرسام والسرسام والطاعون واليرقان والدبيلان والسلِّ والجُذَام وذات الجَنْب والبَرَص والسكتة والصداع والسكرة والرمل وعسر البول والجَرَب والجُدَري والثواليل والدماميل والخنازير والحصبة والجراحات وأصناف الأورام مما تحتاجون فيها إلى أنواع عذاب المعالجات من الكي والبتر والحقنة والسعوطات والحجامة والفصد وشرب الأدوية المسهلة الكريهة الرائحة ومقاساة الحَمِيَّة وترك الشهوات المركوزة في الجِبِلَّة وما شاكل هذه من ألوان العذاب والعقوبات المؤلمات للأنفس والأرواح والأجساد.

كل ذلك أصابكم لَمَّا عصيتم ربكم وتركتم طاعته ونسيتم وصيته، فإن أول الناس آدم: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. «إِنَّ الْإِنْسَانَ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا»، ونحن بمعزل عن هذه كلها، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب ونحن عبيد؟ لولا الوقاحة والمكابرة وقلة الحياء، وأنتم ما دمتم في الحياة صحيحي البدن ففي تَعَب وكدٍّ لتحصيل الالْتماسات والمشتهيات، وما دمتم مرضى ففي عقوبة وحسرة وبعد الموت في العقاب والعذاب والخطاب ووقوف الحساب، ونحن فارغون من هذه الجملة، فمَن الموالي ومَن العبيد منَّا ومنكم؟!

قال الإنسي: قد يُصيبكم يا معشر الحيوان من الأمراض مثلُ ما يُصيبنا، ليس يخصنا دونكم، قال زعيم الطيور: إنما يصيب ذلك مَن يُخالطكم منَّا من الحَمَام والدِّيك والدجاج والبهائم والأنعام، أو مَن هو أسيرٌ في أيديكم ممنوع عن التصرف برأيه في أمر مصالحه، فأمَّا مَن كان منَّا مخلَّيًا برأيه وتدبيره لمصالحه وسياسته ورياضته لنفسه فقلَّ ما تَعرِض له الأمراض والأوجاع؛ وذلك أنها لا تأكل ولا تشرب إلا وقت الحاجة بقدْر ما ينبغي من أجْل ما ينبغي من لون واحد قدْر ما يسكن أَلَم الجوع ثم تستريح وتنام وتروض وتمنع من الإفراط في الحركة والسكون في الشمس الحارة أو في الظلال الباردة أو السكون في البلدان الغير الموافقة لطِبَاعها أو أكْل المأكولات غير الملائمة لمزاجها.

فأمَّا الذي يُخالطونكم من الكلاب والسنانير ومَن هو أسير في أيديكم من البهائم والأنعام ممنوع من التصرُّف برأيه في مصالحه في أوقاتِ ما تدعوها طباعها المركوزة في جِبِلَّتها، وتُطعَم وتُسقى في غير وقته أو غير ما تشتهي أو من شدة الجوع والعطش تأكل أكثر من مقدار الحاجة، ولا تُترَك أن تروض نفسها كما يجب، بل تُستخدَم وتتعب أبدانها فتَعرِض لها بعض الأمراض من نحو ما يعرض لكم، وهكذا حكم أمراض أطفالكم وأوجاعهم؛ وذلك أن الحوامل من نسائكم وجواريكم المرضعات يأكلن ويشربن

بشَرَهِهن وحِرْصهن أكثر ما ينبغي من ألوان الطعام والشراب التي ذكرتَ وافتخرتَ بها، فتتولَّد في أبدانهن من ذلك أخلاط غليظة متضادة الطباع، فيؤثر ذلك في أبدان الأجِنَّة التي في بطونهن، وفي أبدان أطفالهن من ذلك اللبن الرديء، ويصير سببًا للأمراض والعِلَل والأوجاع من الفالج واللقوة والزمانة واضطراب البنية وتشويه الخلق وسماجة الصورة.

وما ذكرت من اختلاف الأوجاع والأمراض مما أنتم مرتهنون بها معرضون لها، وما يعقبها من موت الفجأة وشدة النزع وما يعرض لكم من ذلك من الغم والحزن والنوح والبكاء والصراخ والمصائب، وكل ذلك عقوبة لكم وعذاب لأنفسكم من سوء أعمالكم ورداءة اختياراتكم، ونحن بمعزل من هذه كلها.

وشيء آخر ذهب عليكم أيها الإنسي التائه النظر فيه، قال: ما هو؟ قال: إن أطيب ما تأكلون وألذَّ ما تشربون وأنفع ما تتداوون به هو العسل وهو لعاب النحل، وليس منكم بل من الحشرات، فبأي شيء تفتخرون به علينا؟ وقد كان آباؤنا مشاركين فيه لآبائكم بالسوية أيضًا أيام كانوا في ذلك البستان الذي بالمشرق على رأس ذلك الجبل، فكانوا يأكلون من تلك الثمار والحب بلا كدٍّ ولا تعب ولا عناء ولا عداوة بينهم ولا حسد ولا استئثار ولا جَنْي ولا ادِّخار ولا حِرْص ولا بُخْل ولا خوف ولا همٍّ ولا غمٍّ ولا حزن حتى تَرَكَا وصيةَ ربهما واغترَّا بقول عدوِّهما وعَصَيا ربهما وأُخرِجا من هنالك عريانَيْن مطرودَيْن، ورُمِيَا مِن رأس ذلك الجبل إلى أسفله، فوقعا في برية قفر، لا ماء فيها ولا شجر، ولا كِنٌّ، فبَقَيَا فيها جائعَيْن عريانَيْن يبكيان على ما فاتهما من النِّعَم التي كانا فيها هناك.

ثم إن رحمة الله تداركتْهما، فتاب عليهما، وأرسل إليهما مِن هناك مَلَكًا يُعلِّمهما الحرث والزرع والحصاد والدراس والطحن والخبز واتخاذ اللباس من حشيش الأرض والقطن والكتان والقصب بعناء وتعب وجهد وشقاء لا يُحصِي عددَها إلا الله مما قد ذكرنا طرفًا منها من قبل.

فلما توالدت وكثرت أولادهما وانتشروا في الأرض برًّا وبحرًا، وسهلًا وجبلًا، وضيَّقوا على سكان الأرض من أصناف هذه الحيوانات أماكنها وغلبوها على أوطانها وأخذوا منها ما أخذوا وأسروا منها ما أسروا، وهرب منها ما هرب وطلبوها أشد الطلب وبغيتم عليها وطغيتم، حتى بلغ الأمر إلى هذه الغاية التي أنتم عليها الآن من الافتخار والمناظرة والمنازعة والمخاصمة.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم مجالس اللهو واللعب والفرح والسرور وما ليس لنا من الأعراس والولائم والرقص والحكايات المضحكات والتحيات والتهنئات والمدح والثناء

والحلي والتيجان والأسورة والخلاخل وما شاكلها مما نحن بمعزل عنه، فإن لكم أيضًا بكل خصلة منها ضروبًا من العقوبات وفنونًا من المصائب وعذابًا أليمًا مما نحن بمعزل عنه.

فمِن ذلك أن لكم بإزاء الأعراس المآتم، وبدل التهنئة التعزية، وبدل الألحان والغناء النوح والصراخ، وبدل الضحك البكاء، وبدل الفرح والسرور الغم والحزن، وبدل المجالس والإيوانات العالية المضيقة من القبور المظلمة والتوابيت الضيقة المظلمة، وبدل الحصون الواسعة الحبوس والمطامير الضيقة المظلمة، وبدل الرقص الدسبندان والسياط والعذاب والضرب والعقاب، وبدل الحلي والتيجان والخلاخيل والأسورة القيود والأغلال والسوامير والمقاطير والنكال وما شاكل المدح والثناء الهجو والشتم وسوء الثناء، وبدل كل حسنة سيئة، وبدل كل لذة ألم، وبدل كل نعمة بؤس، وبدل كل فرح غم وهم وحزن ومصيبة مما نحن بمعزل عنه، وهذه كلها من علامات الأشقياء، وإن لنا بدلًا من مجالسكم وصحوناتكم وإيواناتكم ومنادمتكم هذا الفضاء الفسيح، وهذا الجو الواسع والرياض والخضرة على شطوط الأنهار وسواحل البحار والطيران على رءوس البساتين والأشجار والتحليق على رءوس الجبال نسرح ونروح حيث نشاء من بلاد الله الواسعة، ونأكل من رزق الله الحلال من غير تَعَب وكدٍّ ألوانَ الحبوب والثمار نجدها من غير أذية أحد، ونشرب من مياه الغدران والأنهار بلا مانع ولا دافع، ولا نحتاج إلى حَبْل ولا إلى دلْو ولا إلى كوز ولا قربة مما أنتم مبتلَوْن به من حملها وإصلاحها وبيعها وشرائها أو جمع أثمانها بكدٍّ ونَصَب وتَعَب ومشقة من الأبدان وعناء النفوس وهموم القلوب وهموم الأرواح، وكل ذلك من علامات العبيد الأشقياء، فمِن أين ثبت أنكم أرباب ونحن عبيد لكم؟!

ثم قال الملك لزعيم الإنس: قد سمعتم الجواب، فهل عندكم شيء آخر من البيان؟ قال: نَعَم، لنا فضائل ومناقب تدل على أن هؤلاء عبيد لنا، ونحن أرباب، قال الملك: ما هو؟ فهاتِ البيان والبرهان!

فصل

فقام رجل من أهل العراق عبراني وقال: الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين ﴿إِنَّ اللهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ * ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وهو الذي أكرمنا بالوحي والنبوات والكتب المنزلات والآيات المحكمات، وما فيها من ألوان الحلال والحرام والحدود والأحكام والأوامر

والنواهي والترغيب والترهيب من الوعد والوعيد والمدح والثناء والتذكار والأخبار والأمثال والاعتبار وقصص الأولين والآخرين وصفات يوم الدين، وما وعدنا من الجنان والنعيم، وما أكرمنا به أيضًا من الغُسل والطَّهارة والصوم والصدقة والزكاة والأعياد والجُمُعات والذهاب إلى بيت العبادات والمساجد والبيع والصلوات.

ولنا المنابر والخُطَب والأذان والمواقيت والإفاضات والإحرام والتلبيات والمناسك وما شاكلها.

وكل هذه الخصال كرامات لنا، وأنتم بمعزل عنها، وكل ذلك دليل على أننا أرباب وأنتم لنا عبيد.

قال زعيم الطيور: لو تذكرتَ أيها الإنسي ونظرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك أن هذه كلها عليكم لا لكم.

قال الملك: كيف ذلك؟ بيِّنْه لنا! قال: لأنها كلها عذاب وعقوبات وغفران للذنوب ومحو للسيئات ونهي عن الفحشاء والمنكر، كما ذكر الله — تعالى — بقوله: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وقال: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ﴾، وقال النبي عليه السلام: «صوموا تصحوا.» ونحن بُرَآء من الذنوب والسيئات والفحشاء والمنكر، فلم نَحْتَجْ إلى شيء مما ذكرتَ وافتخرتَ.

واعلم أيها الإنسي أن الله — تعالى — لم يبعث رُسُلَه ولا أنبياءه إلا إلى الأُمَم الكافرة الجاهلة وعامةِ المشركين معَه غيرَه والمنكِرين ربوبيَّتَه والجاحدين وحدانيته والمدَّعِين معه إلهًا آخَر؛ إذ قَوْلُكم: إن الله ثالث ثلاثة، وقولكم: عُزَيْر ابن الله، وقولكم: مسيح ابن الله، وقولكم: إن الله — تعالى — على صورة شاب أمرد له جعد قطط.

فمِن هذه الخرافات والمجازات التي تجيء منكم وأنتم المغيِّرون أحكامَه والعاصون أوامِرَه، والهاربون من طاعته، والجاهلون إحسانه، والغافلون عن ذكره، والناسون عهده وميثاقه، والضالون المضلون الغاوون العادلون عن الصراط المستقيم.

فلهذا بعث الأنبياء والرسل إليكم ليعرفوكم طريق الهدى وسبيل الرشاد إما طوعًا أو جبرًا أو جهرًا، بل قتلًا وصلبًا، ونحن بُرَآء من هؤلاء؛ لأننا عارفون بربنا مسلمون مؤمنون به موحدون به غير شاكين ولا ممترين ولا ضالين.

ثم اعلم أيها الإنسي أن الأنبياء — عليهم السلام — هم أطباء النفوس ومنجموها، ولا يحتاج إلى الطبيب إلا المرضى وصاحب العلة المزمنة، ولا يحتاج إلى المنجم إلا المنحوسون الأشقياء والضالون عن نجم الهدى، كما قال عليه السلام: «إن مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم.»

ثم اعلم أيها الإنسي أن الغُسل والطهارة إنما فُرضت عليكم من أجْل ما يَعرِض لكم عند النكاح من الجماع وشدة الشَّبَق وشهوة الزنا واللواط والجلق والبِغَا والسحق، ومن نتن الصبيان والبخر ورائحة العرق، لاستكنارها واستعمالها ليلًا ونهارًا وغدوًّا ورواحًا ضحوة وبكرة، ونحن بمعزل عنها، لا نَهيج ولا نسفد إلا في السنة مرة، لا لشهوة غالبة ولا لذَّة داعية ولكن لبقاء النسل.

وأما الصوم والصلاة فإنما هي فُرضتْ عليكم ليُكفِّر عنكم سيئاتكم من الغيبة والنميمة والقبيح من الكلام واللعب واللهو والهذيان، فالأنبياء — عليهم السلام — يعالجونكم بهذه المداواة؛ إذ أنتم مرضى من المعاصي، ونفوسُكم قدِ امتلأتْ من مأكولات الذَّنْب ومشروبات النميمة والغِيبة، وهي تناوُل لحوم الإخوان، فأمر الشريعة بالحمية عن المأكولات الرديئة المُضِرَّة والحمية هو الصوم؛ لأن الحمية رأس الدواء والبطن رأس الداء.

ثم لما نظر الأنبياء في أحوالكم وعصيانكم في الليل والنهار وتناول طعام الذنوب والشكوك ومشروبات الظنون الكاذبة بالله، فأمروكم بالحركات المختلفة الأشكال لتستمري عنكم تلك المتناولات والحركات المختلفة الأشكال هي: الصلاة الخمس؛ لأن الطبيب يأمر بحركات وخطوات من الأعلى إلى الأسفل، ومن الأسفل إلى الأعلى، وعلى وجه الأرض بعد ثقل الطعام على المعدة وتناول الأشياء الثقيلة في الليالي ونحن بُرَآء من جميع ذلك، وبمعزلٍ عنه، فلم يَجِب الصوم ولا الصلاة ولا فنون العبادات علينا.

وأما الصدقات والزكوات إنما فُرضت عليكم من أجل أنكم تجمعون من فصول الأموال من الحلال والحرام والغصب والسرقة واللصوصية من البخس في الكيل والموازين وكثرة الجمع والذخائر والإمساك عن النفقة في الواجبات، فضلًا عن المسنونات والبخل والشح والاحتكار ومنع الحقوق، وتجمعون ما لا تأكلون، وتكنزون ما لا تحتاجون إليه، ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، فلو أنكم كنتم تُنفقون ما فضل عنكم على فقرائكم وضعفائكم لما وجبتْ عليكم الزكوات والصدقات، ونحن بمعزل عنها؛ إذ كنَّا مشفقين على أبناء جنسنا، ولا نبخل بشيء مما وجدنا من الأرزاق، ولا ندَّخر من الذخائر مما فضل علينا، بل نطير جائعين متَّكلين على الله — تعالى — ونرجع بحمد الله مشبعين.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم في الكتب آيات محكمات بينات للحلال والحرام والحدود والأحكام، فكل ذلك تعليم لكم وتأديب لجهلكم وعماكم وقلة معرفتكم بالمنافع والمضار،

وإن الإنسان كان ظلومًا جهولًا، تحتاجون إلى المعلمين والأستاذين والمذكِّرين والواعظين لكثرة غفلاتكم وسهوكم ونسيانكم.

وإنما مبيَّن لكم الحلال والحرام لأن الحرام مثل طعام حار جدًّا يَتضرَّر بتناوله مَن غلبتْ عليه الحرارة، وهو شاب ابن ثلاثين سنة، ويسكن في البلدان الحارة جدًّا في أكثر الأوقات أن يوقعه في هاوية البِلَى أو في البلى أو في جهنم الدق والذبول، ويصير مثل ما سُقوا ماءًا حميمًا فقطَّع أمعاءهم.

والحلال مثل طعام خفيف الجرم كثير الفائدة صالح الكيموس كثير الغذاء ينتفع بتناوله مَن كان مزاجه معتدلًا، وهو صحيح البنية ويسكن في البلدان الشريفة عند خط الاستواء الصراط المستقيم، ففي أكثر الأمر أن مَن هذا شأنه ودأبه يبقى مدة مديدة في جنة الصحة ودار السلام من اعتدال البنيان ودار النعيم وقلة الأمراض، فانتبه أيها الإنسي من نوم الغفلة ورقدة الجهالة.

واعلم أن هذه الإحكامات والموضوعات قيودٌ وأغلال وسلاسل عليكم؛ إذ الحكمة الإلهية اقتضتْ هذه الأسرار الواجبة وجعل الموضوعات الشرعية والحكمية أستاذًا ومؤدِّبًا لكم، ونحن بمعزل عن جميع ذلك؛ إذ قد ألْهَمنا الله — تعالى — إلى جميع ما نحتاج إليه من أول الأمر إلْهامًا ووحْيًا بلا واسطة من الرسل، ولا نداء من وراء حجاب كما أوحى إلى النحل بقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا﴾، وكما قال تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، وعلَّم سليمان منطق الطير.

فافهم أيها الغافل الإنسي، وقال: ﴿فَبَعَثَ اللهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾. مِن عَمَى قلبه لا نادمًا على ذنبه وخطيئته.

وأما الذي ذكرتَ بأن لكم أعيادًا وجُمُعات وذهابًا إلى بيوت العبادات، وليس لنا شيء من ذلك.

فاعلم أنكم لو كنتم مهذَّبي الأخلاق معاوني الإخوان عند المضائق والشدائد وكنتم كنفس واحدة في مصالح أموركم لما وجب عليكم الأعياد واجتماع الجمعات؛ لأن صاحب النواميس اقتضى هذا لتجتمع الناس بعد غيبتهم بعضهم إلى بعض، حتى يحصل من اجتماعهم الصداقة؛ إذ الصداقة أُسُّ الأخوة، والأخوة أُسُّ المحبة، والمحبة أُسُّ إصلاح الأمور، وإصلاح الأمور صلاح البلاد، وصلاح البلاد بقاء العالَم وبقاء النسل.

فلهذا أمرتِ الشريعة أن يجتمع الخلائق في السنة مرتين إلى موضع مخصوص، وفي كل أسبوع مرة إلى مواضع مخصوصة، وفي كل يوم خمس مرات في مساجد المحال والسوق ليحصل الغرض المطلوب.

فلهذه الأسرار قال سيد المرسلين: «لا صلاة لجار المسجد إلا في المسجد.» وليس لنا شيء من ذلك؛ لأننا لا نحتاج إلى ذلك؛ لأن الأماكن كلها لنا مساجد والجهات كلها قبلة أينما توجهنا، فثم وجه الله، والأيام كلها لنا جمعات وعيد، والحركات كلها صلوات وتسبيح، فلم نحتج إلى شيء مما ذكرتَ؛ إذ الصلاة عبارة عن طهارة القلوب من خبث الحقد ونجاسة الشك والتقرب إلى الله — تعالى — بخالص النية وصحة الاعتقاد والتوجُّه إلى قِبْلة الأمر بالمعروف والقيام بمصالح المؤمنين والقعود عن العداوة والبغضاء والركوع والسجود بالتواضع والحلم والتشهد مع الإخوان الأبرار، والتسليم من الجهل.

فإذا حصلت هذه الأفعال المخصوصة تُسمى صلاة، ونحن مشتغلون بهذه أينما تولُّوا، فثم وجه الله، ونكون مجتمعين في جميع أوقاتنا، ولا نشتغل بأذية أبناء جنسنا، ونكون قائمين بمصالح الإخوان، وقاعدين عن الشتم والمفسدة، وراكعين بالخضوع مع الإنسان وساجدين بالتواضع لهم عند لقط الحبوب، فهذه خصائلنا.

فلهذا ما وُقِّت علينا الجمعات والأعياد، والأيام كلها لنا أعياد وجمعات، والحركات كلها لنا صلاة وتسبيح، فلم نحتج؛ إذ لسنا محتاجين إلى شيء مما ذكرتم وافتخرتم بذلك علينا.

فلما فرغ زعيم الطيور من كلامه نظر الملك إلى جماعة الإنس الحاضرين قال: قد سمعتم ما قال الطير وفهمتم ما ذكر، فهل عندكم شيء آخر؟ فاذكروه وبيِّنوه إن كنتم صادقين!

فصل

وقام عند ذلك العراقي، وقال: الحمد لله خالق الخلق وباسط الرزق وسابغ النِّعَم الذي أكرَمَنَا وأنعَمَ علينا في البر والبحر، وفضَّلنا على كثير ممن خلق تفضيلًا، نعم أيها الملك، لنا خصال أُخَر ومناقب ومواهب وكرامات تدل على أننا أرباب لهم وهم عبيد لنا، فمِن ذلك: حُسْن لباسنا، ولِين ثيابنا، وسَتْر عوراتنا، ووطاء فُرُشنا، ونعومة دثارنا، ودفء غطائنا، ومحاسن زينتنا من الحرير والديباج والخز والقز والقطن والكتان والسمور والسجاب وألوان الفراء والأكسية من البسط والأنطاع والمخاد والفرش واللبود والبربولي،

وما شاكلها مما لا يُعَدُّ كثرته، وكل هذه المواهب دليل على ما قلنا بأننا أرباب لهم، وهم عبيد لنا، وخشونة لباسها وغلظ جلودها وسماجة دثارها، وكشف عوراتها دليل على أنها عبيد لنا ونحن أربابها وملاكها، ولنا أن نحتكم فيها بحكم الأرباب ونتصرف فيها تصرف المُلَّاك.

فلما فرغ الإنسي العراقي من كلامه نظر الملك إلى طوائف الحيوان الحضور وقال: ماذا تقولون فيما ذكره وافتخر به عليكم؟ إن كان لكم جواب فهاتوا به، قالوا: لنا جواب أجود وأحكم من ذلك.

فصل

وقام بعد ذلك زعيم السباع وهو كليلة أخو دمنة فقال: الحمد لله القوي العلام خالق الجبال والآكام ومنشئ النبات والأشجار في الغياض والآجام، وجاعلها أقواتًا للوحوش والأنعام، وهو العلي الأعلى خالق السباع ذوات البأس والشجاعة والإقدام، ذوات الزنود المتينة والمخالب الحداد والأنياب الصلاب والأفواه الواسعة والقفزات السريعة والوثبات البعيدة، المنتشرات في الليالي المظلمات للمطالب والأقوات، وهو الذي جعل أقواتها من جِيَف الأنام ولحوم الأنعام متاعًا إلى حين، ثم قضى على جميعها الموت والفناء والمصير إلى البِلَى، فله الحمد على ما وهب وأعطى وعلى ما حكم به الصبر والرضا.

ثم الْتَفت زعيم السباع إلى الكافة هناك من حكماء الجن وزعماء الحيوانات فقال: هل رأيتم يا معشر الحكماء أو سمعتم معشر الخطباء أكثر سهوًا وغفلةً من هذا الإنسي؟! قال الجماعة: وكيف ذلك؟ قال: لأنه ذكر من فضائلهم كيت وكيت من حسن اللباس ولين الثياب والدثار.

ثم قال: أيها الإنسي، خبِّرْني هل كان لكم هذا الذي ذكرتموه وافتخرتم به إلا بعد ما أخذتم عن غيركم من سائر الحيوانات واستعرتموها من سواكم من السباع وغلبتموها عليها؟ قال الإنسي: ومتى كان ذلك؟ قال: أليس أَلْيَن ما تلبسون وأحسن ما تزينون به من اللباس والحرير والديباج الإبريسم؟ قال: بَلَى، قال: أليس ذلك من ألعاب أضعف الحيوان الذي هي ليس من بني آدم، بل هي من جنس الهوام، وقد نسجتْها على أنفسها ليكون كِنًّا لها ولبَيْضها، ولتنام فيها وتكون لها غطاءً ووطاءً وحرزًا من الآفات والحر والبرد والرياح والأمطار وحوادث الأيام ونوائب الزمان، فجئتم أنتم وأخذتموها قهرًا وغلبتموها عليها جبرًا وجورًا فعاقبكم الله بها وابتلاكم بشلِّها وفتْلِها وغزْلِها ونسْجِها

وخياطتها وقصارتها وقطعها وتطريزها وما شاكل ذلك من العناء والتعب والشقاء الذي أنتم مبتلَوْن به ومعاقبون من إصلاحها وبيعها وشرائها وحفظها بشغل القلوب وتعب الأبدان وشقاء النفوس لا راحة لكم ولا قرار ولا سكون ولا هدوء في دائم الأوقات!

وهكذا حكمكم في أخذكم أصواف الأنعام وجلود البهائم وأوبار السباع وشعورها وريش الطيور كل ذلك أخذتموه قهرًا ونزعتموه غصبًا وغلبتموها عليها ظلمًا وجورًا، ونسبتموها إلى أنفسكم بغير حق، ثم جئتم تفتخرون به علينا، ولا تستحون ولا تذكرون ولا تعتبرون، ولو كان في ذلك فخرٌ وتباهٍ لكنَّا بذلك الفخر أولى منكم؛ إذ قد أنبت الله — تعالى — ذلك على ظهورنا، وأنشأها من جلودنا وجعلها لباسًا لنا ودثارًا وغطاءً ووطاءً وسترًا وزينة لنا، كل ذلك تفضُّلًا منه علينا ورفقًا بنا ورحمة علينا وشفقة وتحنُّنًا على أولادنا وصغار نتاجنا؛ وذلك أنه إذا وُلد واحد منَّا فعليه جلده انصلح له، وعلى جلده الشعر والصوف والوبر والريش والفلوس، كل ذلك لباس ودثار وستر على حسب كبر جثته وعظم خلقته، ولا نحتاج في اتخاذها إلى عمل، ولا نحتاج إلى حلج أو غزل أو فتل أو نسج أو قطع أو خياطة مثل ما أنتم به مبتلَوْن ومعاقبون عليه لا راحة لكم إلى الموت، كل ذلك عقوبة لكم لذنب أبيكم لمَّا عصى وترك وصية ربه فغوى.

قال ملك الجن لزعيم السباع: كيف كان مبتدأ آدم في خلقه، وأول ابتدائه؟ أخبرنا عنه!

قال: نَعَم أيها الملك، إن الله — تعالى — لمَّا خلَق آدم وزوجته — عليهما السلام — أزاح عِلَلَهما فيما يحتاجان إليه في قيام وجودهما وبقاء أشخاصهما من المواد والغذاء والدثار واللباس مثل ما فعل بسائر الحيوان التي كانت في تلك الجنة التي على رأس جبل الياقوت الذي بالمشرق تحت خط الاستواء، وذلك أنه لما خلق آدم وحواء — عليهما السلام — عريانين أنبت على رأس كل واحد منهما شعرًا طويلًا مدلًّى على جسد كل واحد منهما في جميع الجوانب سبطًا جعدًا، وأسود لينًا، أحسن ما يكون على رأس الجواري الأبكار، وأنشأهما شابَّيْن أمْرَدَيْن تَرِفَيْن في أحسن صورة من صور تلك الحيوانات التي هناك.

وكان ذلك الشعر لباسًا لهما وسترًا لعورتيهما ودثارًا لهما ووطاءً وغطاءً ومانعًا عنهما البرد والحر، فكانا يمشيان في ذلك البستان ويجتنيان من ألوان تلك الثمار فيأكلان منها ويتقوَّتان بها ويتنزَّهان في تلك الأرض والرياض والروح والريحان والزهر والنَّوْر مستريحَيْن متلذِّذَيْن منعَّمَيْن فرحين غير خائفين بلا تعب من البدن، ولا عناء من النفس،

وكانا منهيَّيْن عن تجاوز طورهما وتناول ما ليس لهما قبل وقتها، فتَرَكَا وصية ربهما واغترَّا بقول عدوِّهما، فتناولا ما كانا منهيين عنه، فسقطت مرتبتهما، وتناثرت شعورهما، وانكشفتْ عورَاتُهما، وأُخرِجا من هناك عريانين مطرودين مهانين معاقبين فيما يتكلَّفان من إصلاح المعاش وما يحتاجان إليه من قوام الحياة الدنيا كما زعم الطيور في الفصل الأول، وكما ذكر حكيم الجن في فصله مثل ذلك.

فلما بلغ زعيم السباع إلى هذا الموضع من الكلام قال له زعيم الإنس: أمَّا أنتم يا معشر السباع؛ فسبيلكم أن تسكتوا وتستحوا ولا تتكلموا.

قال له كليلة: ولِمَ ذلك؟ قال: لأنه ليس من الطوائف الحضور ها هنا جنس أشرُّ منكم معشر السباع، ولا أقسَى قلوبًا ولا أقلَّ نفعًا ولا أكثر ضررًا ولا أشد حرصًا على أكل الجِيَف وطلب المعاش.

قال: كيف ذلك؟ قال: لأنكم تفترسون — معشر السباع — هذه البهائم والأنعام بمخالب حِدَاد فتخرقون جلودها وتكسرون عظامها وتشربون دماءها وتنهشون لحومها بلا رحمة عليها ولا فكرة فيها ولا رفق بها.

قال زعيم السباع: منكم تعلَّمْنا، وبكم اقتدينا فيما تعملون في هذه البهائم، قال الإنسي: كيف كان ذلك؟

قال: لأنه قبل خلق أبيكم آدم وأولاده ما كانت السباع تفعل من ذلك شيئًا ولا تصطاد الأحياء منها؛ لأن جِيَفَها كانت كثيرة، وما يموت منها كل يوم بآجالها كفاية لها تتقوَّت به، وما تحتاج إلى صيد الأحياء منها، وحمل المخاطرة على أنفسها في الطلب والانتهاك والمحاربة والتعرض لأسباب المنايا، وذلك أن الأسود والنمور والفهود والذئاب وغيرها من أصناف السباع الآكلة اللحوم لا تتعرض للفيلة والجواميس والخنازير ما دامت تجد من جِيَفها ما يقوتها ويكفيها إلا عند الاضطرار وشدة الحاجة؛ لأن لها أيضًا إشفاقًا على أنفسها كما يكون لغيرها من سائر الحيوانات.

فلما جئتم أنتم يا معشر الإنس وانتزعتم منها قطعان الغنم والبقر والجمال والخيل والبغال والحمير، وأحرزتموها ولم تتركوا منها في البراري والقفار والآجام واحدًا منها عدمت السباع جِيَفها، فاضطرت إلى صيد الأحياء منها وحلَّ لها ذلك كما حلَّتْ لكم المَيْتة والدم ولحم الخنزير عند الاضطرار.

وأما الذي ذكرتَه من قلة رحمتنا عليها وقساوة قلوبنا، فلسنا نرى ما تشكو منَّا هذه البهائم كما تشكو منكم ومن جوركم ومن ظلمكم وتعديكم عليها، وأن الذي ذكرتَ

بأنَّا نقبض عليها بمخالب حداد وأنياب صلاب ونخرق جلودها ونشق أجوافها ونكسر عظامها ونشرب دماءها ونأكل لحومها، فكذا أنتم تفعلون بها وتذبحونها بسكاكين حداد وتسلخون جلودها وتشقون أجوافها وتكسرون عظامها بالسواطير والكيان ونار الطبخ وحر الشوي زيادة على ما نفعل نحن بها.

وأما الذي ذكرتَ من ضررنا على الحيوانات، فالقول كما قلت ولكن لو فكرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك بأن ككل ذلك صغير حقير في جنب ما تفعلون أنتم بها من الضرر والجور والظلم كما ذكر زعيم البهائم في الفصل الأول.

وأما ضرر بعضكم لبعض وضرب بعضكم لبعض بالسيوف والسياط والسكاكين والطعن بالرماح والزوبينيات والضرب بالدبابيس والكِلَل وقطع الأيدي والأرجل والحبس في المطامير والسرقة واللصوصية والغش والخيانة في المعاملة، والغمز والسعاية والمكر والحيل في أسباب العداوة، وما شاكل هذه الخصال ممَّا لا تفعله السباع من ذلك بالحيوانات، ولا بعضها ببعض، ولا تعرفه فيزيد على ذلك كله.

وأما ما ذكرتَ من قلة منافعها لغيرها فلو فكرتَ واعتبرتَ لعلمتَ وتبيَّن لك بأن النفع منَّا لكم بيِّن ظاهر مما تنتفعون به من جلودنا وشعورنا ووبرنا وأصوافنا، ومما تنتفعون به من صيد الجوارح منَّا، وقد سخَّرتموها، ولكن أخبِرْنا أيها الإنسي أيُّ منفعة منكم لغيركم من الحيوانات، فأمَّا الضرر فهو ظاهر بيِّن؛ إذ قد شاركتمونا في ذبح هذه الحيوانات وأكل لحمانها والانتفاع بجلودها وشعورها، وبخلتم عليها بالانتفاع بجِيَفكم وقد دفنتموها تحت التراب حتى لا تنتفع بكم أحياءً ولا أمواتًا.

وأما الذي ذكرتَ من غارات السباع على الحيوانات وقبضها عليها وقتلها، فإن ذلك كله إنما فعلتْه السباع بعدما رأتْ أن بني آدم يفعلون بعضهم ببعض منذ عهد قابيل وهابيل، وإلى يومنا هذا نرى كل يوم من القتلى والجرحى والصرعى في الحروب والقتال مثل ما شوهد في أيام رستم وإسفنديار، وأيام جمشيد وتُبَّع، وأيام الضحاك وأفريدون، وأيام سيواس ومنوجهر، وأيام دارا والإسكندر، وأيام بخت نصر وآل داود وآل بهرام وآل عدنان وأيام قسطنطين وأهل بلاد اليونان وأيام عثمان ويزدجر وأيام بني العباس وبني مروان، وهلم جرًّا إلى يومنا هذا، نرى في كل سنة وشهر ويوم وقعة من بني آدم بعضهم على بعض ومع بعض، وما يحدث فيها من أسباب الشرور والبلايا والقتل والجراح والمُثْلة والنهب والسبْي ما لا يُقدَّر ولا يُعَدُّ، ثم الآن جئتم تفتخرون علينا وتعيرون السباع أنها شر خلقة في الأرض، أما تستحون من هذا القول الزور والبهتان

علينا؟ ومتى رأى الإنس أن السباع قد فعلتْ بعضها ببعض مثل ما تعملون أنتم بعضكم ببعض في كل يوم؟

ثم قال زعيم السباع لزعيم الإنس: لو تفكرتم يا معشر الإنس في أحوال السباع واعتبرتم تصاريف أمورها لعلمتم وتبيَّن لكم أنها خير منكم، وأفضل.

قال زعيم الإنس: كيف ذلك؟ دلَّنا عليه! قال: نَعَم، أليس خياركم الزُّهَّاد والعُبَّاد والرُّهْبان والأَحْبار والسُّيَّاح؟ قال: نَعَم، قال: أليس إذا تناهَى واحد منكم في الخيرية والصلاح خرج من بين أظهُرِكم وهرب منكم وذهب يأوي إلى رءوس الجبال والتلال وبطون الأودية والسواحل والآجام مأوى السباع، ويخالطها في أماكنها في الكهوف والمغارات، ويعاشرها في أوطانها ويجاورها في أكنافها ولا تتعرض له السباع؟ قال: بَلَى، كما قلتَ كذا نقول، قال: فلو لم تكن السباع أخيارًا لما جاورها أخياركم وعاشرها الصالحون منكم؛ لأن الأخيار لا يعاشرون الأشرار، بل يفرون منهم وينفرون عنهم، فهذا دليل على أن السباع صالحة، لا كما زعمتم أنها شرُّ خلْقِ الله، فهذا القول الذي ذكرتم زورًا وبهتانًا عليها، ودليل آخَر أن السباع صالحة لا كما زعمتَ هو أن مِن سُنَّة ملوككم الجبابرة إذا شكُّوا في الصالحين منكم والأخيار من أبناء جنسكم يطرحونهم بين السباع، فإن لم تأكله علموا بأنه من الأخيار؛ لأنه لا يعرف الأخيار إلا الأخيار، كما قال الشاعر:

يعرفه الباحث عن جنسه وسائر الناس له منكِرٌ

واعلم أيها الإنسي أن في السباع أخيارًا وأشرارًا، وأن الأشرار منها لا تأكل الأشرار، كما يأكل الأشرار الأشرار من الإنس، كما ذكر الله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. أقول قولي هذا، وأستغفر الله لي ولكم.

فلما فرغ زعيم السباع من كلامه قال حكيم من الجن: صدق هذا القائل، إن الأخيار يهربون من الأشرار، ويأنسون بالأخيار، وإن كانوا من غير جنسهم، وإن الأشرار أيضًا يبغضون الأخيار ويهربون منهم ويلجئون إلى أبناء جنسهم من الأشرار، فلو لم يكن بنو آدم أكثرهم أشرارًا لما هرب أخيارهم من بين ظهرانَيْهِم إلى رءوس الجبال والآجام ومأوى السباع، وهي من غير جنسهم ولا تُشبِههم في الصورة، ولا في الخِلْقة إلا في أخلاق النفوس من الخيرية والصلاح والسلامة، قالت الجماعة كلها: صدق الحكيم فيما قال، وذكر وأخبر، فخَجِلتْ جماعة الإنس عند ذلك، ونكست رءوسها حياءً وخجلًا مما سمعتْ

من التوبيخ والتعريض، وانقضى المجلس ونادى منادٍ: انصرفوا مكرمين لتعودوا غدًا آمنين مطمئنين.

فصل

ولما كان من الغد جلس الملك مجلسه وحضرتِ الطوائف كلها على الرسم واصطفَّتْ، فنظر الملك إلى جماعة الإنس وقال: قد سمعتم ما جرى أمس، وما ذكرتم وسمعتم الجواب عما قلتم، فهل عندكم شيء آخر غير ما ذكرتم بالأمس؟ فقام عند ذلك الزعيم الفارسي وقال: نَعَم أيها الملك العادل، إن لنَّا مناقب أُخَر وفضائل جمَّة وخصالًا عدة تدل على صحة ما نقول وندَّعي، قال الملك: هاتِ واذكر منها شيئًا! قال: نَعَم، ثم قال: الحمد لله الذي اختلفتِ الحكماء في أسمائه واتفقتْ في وجوده وقِدَمِه، الذي أوجد الخلائق بقدرته، وخص من بينهم آدم وأولاده برحمته وشرَّفهم تشريفًا بخلعة الإيمان ولباس الكرامة من بين سائر الحيوانات، وألْهمهم طريق الهدى كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾، والصلاة على خير خَلْقِه وصفوة أنبيائه محمد وآله.

أما بعد، فاعلم أيها الملك أن منَّا الملوك والأمراء والخلفاء والسلاطين، وأن منَّا الرؤساء والوزراء والكُتَّاب والعمال وأصحاب الدواوين والحُجَّاب والقُوَّاد والنُّقَباء والخواص وخدم الملوك وأعوانهم من الجنود، ومنَّا أيضًا التجار والصناع وأصحاب الزروع والنسل، ومنَّا أيضًا الدهاقين والأشراف والأغنياء وأرباب النِّعَم وأصحاب المروءات، ومنَّا أيضًا الأُدَباء وأهل العلم والوَرَع وأهل الفَضْل، ومنَّا أيضًا الخُطَباء والشُّعَراء والفُصَحاء والمتكلِّمون والنَّحْوِيون وأصحاب الأخبار ورواة الحديث والقُرَّاء والعُلَماء والفُقَهاء والقُضاة والحُكَّام والعُدُول والمُزكُّوْن والمذكرون والحكماء والمهندسون والمنجِّمون والطبيعيون والأطباء والعرافون والمعزِّمون والكَهَنة والمعبِّرون والكيميائيون وأصحاب الطلسمات وأصحاب الأرصاد وأصناف أُخَر يطول شرحها، وكل هذه الطوائف والطبقات لهم أخلاق وسجايا وطبائع وشمائل ومناقب وخصال حسنة ومذاهب حميدة وعلوم وصنائع حسان مختلفة متفننة، وكل هذه لنا وغيرنا من الحيوان بمعزل عنها، فهذا دليل بأننا أرباب لها وهي عبيد لنا، وفي الجملة قوام العالَم بنا وبوجودنا؛ إذ هذه الجملة التي ذكرتُ من الصنائع واختلاف الأشخاص صار سببًا لقوام العالم وبقائه من غير شك.

فصل

فلما فرغ زعيم الإنس من كلامه نطق البَبْغاء وقال: الحمد لله خالق السموات المسموكات والأرضين المدحوَّات والجبال الراسيات والبحار الزاخرات والبراري والقفار والرياح الذاريات والسحب المنشآت والقطر الهاطلات والشجر والنبات والطير الصافات، كلٌّ قد علم صلواته وتسبيحه.

ثم قال: اعلموا — رحمكم الله — أن هذا الإنسي قد ذكر أصناف بني آدم وعدَّ طبقاتهم، فلو أنه تفكَّر أيها الملك فعادل واعتبر كثرة أجناس الطيور وأنواعها، لعلم وتبيَّن له من كثرتها ما يصغر ويقِلُّ عنده أصناف بني آدم وعدد طبقاتهم في جنب ذلك، كما قد تقدم ذكره في فصلٍ مِن هذا الكتاب، كما قال شاه مرغ للطاووس من خُطَباء الطيور وفصحائها.

ولكن خذ الآن أيها الإنسي إزاء كل ما ذكرتَ وافتخرتَ به بقولك قولًا آخَر معكوسًا، وبدل كل حسن نسبتَ أصنافًا أُخَر قبيحة، ونحن بمعزل منها، وذلك أن عندكم الفراعنة والنماردة والجبابرة والفَسَقة والمشركين والمنافقين والملحدين والمارقين والناكثين والخوارج وقُطَّاع الطريق واللصوص والعيارين والطرَّارين، ومنكم أيضًا الدجالون والباغون والطاغون والمرتابون.

ومنكم أيضًا القَوَّادون والمخانيث والمؤاجرون واللواطة والسحاقات والبَغَايا، ومنكم أيضًا الغمَّازون والكذَّابون والنبَّاشون، ومنكم أيضًا السُّفَهاء والجُهَّال والأغبياء والناقصون، وما شاكل هذه الأوصاف والأصناف والطبقات المذمومة أخلاقُ أهلِها، الردية طباعُهم، القبيحةُ سيرتُهم وأفعالُهم، السيِّئةُ سِيَرُهم وأعمالُهم المذمومة الجائرة، ونحن بمعزل عنها كلها، ونشاركهم في أكثر الخصال المحمودة والسِّيَر العادلة؛ وذلك أن أول كل شيء مما ذكرتَ وافتخرتَ به أن منكم الملوك والرؤساء ولهم أعوان وجنود ورعية.

أما علمتَ بأن لجماعة النحل ولجماعة النمل ولجماعة الطيور ولجماعة السباع رؤساء وأعوانًا وجنودًا ورعيةً، وأن رؤساءها وملوكها أحسن سياسةً وأشد رعايةً من ملوك بني آدم بها، وأشد تحننًا عليها ورأفةً بها وشفقةً عليها.

بيان ذلك أن أكثر ملوك الإنس ورؤساءها لا ينظرون في أمر الرعية وجنودهم وأعوانهم إلا لجرِّ منفعة منها أو دفع مضرة عنها أو إلى نفس مَن يهواه لشهواته كائنًا من كان قريبًا أو بعيدًا، ولا يفكِّر بعد ذلك في واحد، ولا يهمُّه أمرُه كائنًا مَن كان مِن قريب أو بعيد.

وليس هذا من فعل الملوك والفضلاء، ولا عمل الرؤساء ذوي السياسة الرحماء، بل من سياسة الملك وشرائطه وخصال الرياسة أن يكون الملك والرئيس رحيمًا رءوفًا برعيته مشفقًا متحننًا على جنوده وأعوانه اقتداءً بسنة الله — تعالى — الجواد الكريم الرءوف الرحيم لخلقه وعباده، كائنًا مَن كان الذي هو رئيس الرؤساء وملك الملوك، وملوك أجناس الحيوانات ورؤساؤهم هم بسُنَّة الله — تعالى — أحسن اقتداءً من ملوك الإنس ورؤسائهم.

وذلك أن ملك النحل ينظر في أمر رعيته، ويتفقد أحوالهم وأحوال جنوده وأعوانه لا لهوًى في نفسه وشهواتها وجر المنفعة إليها ودفع المضرة عنها أو إلى نفس مَن يهواه لشهواته، بل يفعل ذلك رأفة ورحمة لرعيته وشفقة وتحننًا لهم، وعلى جنوده وأعوانه.

وهكذا يفعل ملك النمل وملك الكُرْكِي في حراسته وطيرانه وملك القطا في وروده وصدوره.

وهكذا حكم سائر الحيوانات التي لها رؤساؤها ومديروها لا يطلبون من رعاياهم عوضًا ولا جزاءً فيما يسوسونهم كما لا يطلبون من أولادهم برًّا ولا صلةً ولا مكافأة لهم، كما يطلب بنو آدم من أولادهم البر والمكافأة في تربيتهم لهم، بل نجد كل جنس من الحيوانات التي تنزو وتسفد وتحمل وترضع وتربِّي أولادها، والتي تسفد وتبيض وتحضن وتزق الفراخ والأولاد وتربِّي أولادها لا تطلب من أولادها برًّا ولا صلةً ولا مكافأة، ولكنها تربِّي أولادها تحننًا عليها وشفقة ورحمة بها ورأفة لها، كل ذلك اقتداءً بسنة الله تعالى؛ إذ خلق عبيده وأنشأهم وربَّاهم وأنْعَم عليهم وأحسن إليهم وأعطاهم من غير سؤال منهم، ولا يطلب منهم جزاءً ولا شكورًا، ولو لم يكن من لؤم طباع الإنس وسوء أخلاقهم وسيرتهم الجائرة وعاداتهم الرديئة وأعمالهم السيئة وأفعالهم القبيحة ومذاهبهم الضالة وكفرهم بالنعم لما أمرهم الله — تعالى — بقوله: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾. كما لم يأمر أولادنا؛ إذ لا يكون منهم العقوق والكفران، وإنما توجَّه الأمر والنهي والوعد والوعيد إليكم يا معشر الإنس دوننا؛ لأنكم عبيد سوء يقع منكم الخلاف والمكر والعصيان فأنتم بالعبودية أولى منَّا، ونحن بالحرية أولى منكم، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب لنا، ونحن عبيد لكم، لولا الوقاحة والمكابرة وقول الزور والبهتان؟!

ثم لَمَّا فرغ الببغاء من كلامه قالت الجماعة: صدق هذا القائل في جميع ما ذكر وأخبر به، فخجلت جماعة الإنس عند ذلك، ونكسوا رءوسهم من الحياء والخجل لما توجَّه عليهم من الحكم، ولم يمكن الإنس أن ينطقوا بعد ذلك.

ولما بلغ الببغاء من كلامه إلى هذا الموضع قال الملك لرئيس الحكماء من الجن: مَن هؤلاء الملوك الذين ذكرهم هذا القائل وأثنى عليهم ووصف شدة رحمتهم وإشفاقهم على رعيتهم وتحننهم ورأفتهم لجنودهم وأعوانهم وحسن سيرتهم، أنا أظن أن في ذلك رمزًا من الرموز وسرًّا من الأسرار، عرِّفْني ما حقيقة هذه الأقاويل وإشارة هذه المرامي، قال: سمعًا وطاعةً.

فصل

قال حكيم الجن: اعلم أيها الملك أن اسم الملوك مشتق من اسم الملك، واسم الملك من أسماء الملائكة، وذلك أنه ما من جنس من هذه الحيوانات ولا نوع منها ولا شخص ولا كبير ولا صغير إلا وقد وكَّل الله — تعالى — به ملائكة تربِّيه وتحفظه وتراعيه في جميع تصرفاته، وهي أشد رحمة ورأفة وتحننًا وشفقة من الوالدات لأولادها الصغار ونتاجها الضعيفة.

قال الملك الحكيم: ومِن أين للملائكة هذه الرحمة والرأفة والتحنن والشفقة التي ذكرتَ؟

قال: من رحمة الله — تعالى — ورأفته بخلقه وشفقته وتحننه على بريته، وكل رحمة ورأفة من الملائكة ومن الوالدات والآباء والأمهات ورحمة الخلق بعضهم على بعض فهي جزء من ألْف ألْف جزء من رحمة الله — تعالى — ورأفته بخلقه وشفقته وتحننه على عباده.

ومن الدليل على صحة ما قلنا وحقيقة ما وصفنا أن ربهم لما أبداهم وأبدعهم وخلقهم وسوَّاهم وتمَّمهم وربَّاهم وكَّل بحفظهم الملائكة الذين هم صفوته من خلقه، وجعلهم رحماء كرماء بَرَرة، وخلق لهم المنافع والمرافق في طريق الهياكل العجيبة والصور والأشكال الطريفة والحواس الدرَّاكة اللطيفة وألْهمهم دفع المضارِّ وجرَّ المنافع، وسخَّر لهم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره، ألا له الخلق والأمر؟ ويدبِّرهم في الشتاء والصيف في البر والبحر والسهل والجبل، وخلق الأقوات من الشجر والنبات متاعًا لهم إلى حين وأسبغ عليهم نعمته ظاهرة وباطنة، ولو عددت لما أحصيت، وكل هذه دلالة وبراهين على شدة رحمة الله ورأفته وتحننه وشفقته على خلقه.

قال الملك: فمَن رئيس الملائكة المقرَّبين الموكَّلين ببني آدم وحفظهم ومراعاة أمرهم، قال الحكيم: هي النفس الناطقة الإنسانية الكلية التي هي خليفة الله في أرضه، وهي التي

قُرِنَتْ بجسد آدم لما خُلق من التراب وسجدت له الملائكة كلهم أجمعون، وهي النفوس الحيوانية المنقادة لطاعة النفس الناطقة الباقية إلى يومنا هذا في ذرية آدم، كما أن صورة الجسد الجسمانية باقية في ذريته إلى يومنا هذا، وبها ينشئون، وبها ينمون، وبها يفوزون، وبها يُجازَوْن، وبها يؤاخذون، وإليها يُرجَعون، وبها يُعرَفون يوم القيامة، وبها يُبعثون، وبها يدخلون الجنة، وبها يصعدون إلى عالم الأفلاك — أعني صعود النفس الناطقة التي هي خليفة الله في أرضه — وأبى إبليس عن سجدة لآدم، وهي القوة الغضبية والشهوانية والنفس الأمَّارة بالسوء.

ليعلم المَلِك جميع ذلك؛ لأن أكثر كلام الله — تعالى — وكلام أنبيائه وأقاويل الحكماء رموز لسِرٍّ من الأسرار مخفيًّا عن الأشرار، وما يعلمها إلا الله — تعالى — والراسخون في العلم، وذلك أن القلوب والخواطر ما كانت تحمل فهْم معاني ذلك؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «كلِّموا الناس على قدْر عقولهم.» وإفشاء سرِّ الربوبية كفر.

وأما الخواص من الحكماء الذين هم الراسخون في العلم فهم لا يحتاجون إلى زيادة بيان؛ إذ هم مطَّلِعون على حقائق جميع الأسرار والمرموزات؛ من ذلك قول الله تعالى: ﴿عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾، وقوله: ﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾، وقوله: ﴿وَالطُّورِ * وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ﴾، وقوله: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾، وقوله: ﴿فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، وقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾، وقوله: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾، وقوله: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾، وقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، وقوله: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾، وقوله: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَى﴾، وقوله: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ﴾، وقوله: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾، وقوله: ﴿يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾، وقوله: ﴿كهيعص﴾، وقوله: ﴿طه * مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى﴾، وقوله: ﴿عسق﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾، وقول النبي عليه السلام: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر.» وقوله: «صوموا تصحوا، وسافروا تغنموا.» وقوله عليه الصلاة والسلام: «شاوروهن وخالفوهن.» وقوله عليه الصلاة والسلام: «الجنة تحت أقدام الأمهات.»

ونظائر ذلك من الآيات والأخبار تحت ذلك سرٌّ من الأسرار التي لا يجوز أن تُكشف على العوام والجُهَّال، سيما في آخر الزمان، فلهذا الغرض ألبسوا حقائق الأشياء بلباس غير ما يليق بذلك حسب فهم عامة البشر، لكن الخواص والحكماء يعلمون الغرض والحقيقة في ذلك، ويخفون عن الأشرار والأجلاف.

فمَن مَنَح الجُهَّال علمًا أضاعه ومَن مَنَع المستوجِبِين فقد ظَلَم

ثم قال الملك: بارك الله فيك من حكيمٍ، ما أعلمك! ومن عالم، ما أفهَمَك! وجزاك الله خيرًا، زدني بيانًا آخَر، فقال: نَعَم.

ثم قال الملك للحكيم: لِمَ لا تُدرك الأبصار الملائكة والنفوس؟ قال: لأنها جواهر شفَّافة نورانية، ليس لها لون ولا جسم، ولا تدركها الحواس الجسمانية مثل الشم واللمس والذوق، وقُلْ تَرَاها الأبصارُ القوية اللطيفة مثل أبصار الأنبياء والرسل وأسماعهم، فإنهم بصفاء نفوسهم وانتباههم من نوم الغفلة واستيقاظهم من رقدة الجهالة وخروجهم من ظلمات الخطايا قد انتعشت نفوسهم، فصارت مشاكلة لنفوس الملائكة تراها وتسمع كلامها وتأخذ منها الوحي والأنباء وتؤدِّي إلى أبناء جنسهم من البشر بلغات مختلفة لمشاكلتهم إياهم بأجسادهم، قال الملك: جزاك الله خيرًا، تمِّم كلامَك يا ببغاء.

فصل

ثم قال الببغاء: أيها الإنسي، أمَّا الذي ذكرتَ بأنَّ منكم صناعًا وأصحاب حرف، فليس ذلك بفضيلة لكم دون غيركم، ولكن قد شارككم فيها بعض أصناف الطيور والهوام وغير ذلك من الحيوانات.

وبيان ذلك أن النحل هي من الحشرات وهي في اتخاذها البيوت وبناء منازل الأولاد أحذق وأعلم وأحكم من صُنَّاعكم وأجود وأحسن من بناء المهندسين والبنَّائين منكم، وذلك أنها تبني منازلها طبقات مستديرات كالتراس بعضها فوق بعض من غير خشب ولا لبن ولا آجُرٍّ ولا جصٍّ، كأنها غُرَف من فوقها غُرَف، وتجعل تقدير بيوتها مسدسات متساويات الأضلاع والزوايا لما فيها من إتقان الصنعة وإحكام البنية، ولا تحتاج في عمل ذلك إلى قراءة كتب الهندسة ولا إلى آلة البركار والمسطرة كما تحتاجون إلى بركار

تُديرون بها، وإلى مسطرة تخطون بها، وإلى شاقول تدلون بها، وإلى كونيا تقدرون بها، كما يحتاج البنَّاء إليها من بني آدم.

ثم إنها تذهب في الرعي وتجمع الشمع من ورق الأشجار والنبات بأرجلها والعسل من زهر النبات ونَوْر الأشجار ووردها تجمعه بمشافيرها ولا تحتاج في ذلك إلى زنبيل ولا إلى سلة ولا ملقطة ولا مكتل تجمعه فيها أو آلة أو أدوات تغرفه بها كما يحتاج البناءون منكم إلى آلات وأدوات مثل الفأس والمسحاة والراقود والمسائح وما شاكلها.

وهكذا أيضًا العنكبوت وهي من الهوام في نسج شبكتها أولًا وتقريرها هندامها هي أعلم وأحذق من الحاكة والنساجين منكم، وذلك أنها تمد عند نسجها شبكتها أولًا خطًّا من حائط إلى حائط أو من شجرة إلى شجرة أو من غصن إلى غصن، أو من جانب نهر إلى جانب آخَر من غير أن تمشي على الماء أو تطير في الهواء، ثم تمشي على ذلك الذي تمده أولًا، وتمد من شبكتها أولًا خطوطًا مستقيمة كأنها أطناب الخيم المضروبة، ثم تنسج لحمتها على الاستدارة وتترك وسطها دائرة مفتوحة حتى تتمكن فيها لصيد الذباب، وكل ذلك تفعل من غير مغزل لها ولا مفتل ولا كاركاة ولا مشط ولا أدوات مثل ما يفعل الحائك والنساج منكم فيما يحتاجون إليه من الآلات والأدوات المعروفة المشهورة في صناعتهم.

وهكذا أيضًا دودة القز وهي من الهوام وهي أحذق في صنعتها وأحكم من صُنَّاعكم، فمِن ذلك أنها إذا شبعتْ من الرعي طلبت مواضعها بين الأشجار والشوك ومدَّت من لعابها خيوطًا دقاقًا ملسًا لزجة متينة، ونسجتْ هناك على أنفسها كِنًّا كشبه كيس ليكون لها حرزًا من الحر والبرد والرياح والأمطار ونامت إلى وقت معلوم.

كل ذلك تفعله من غير تعليم من الأستاذين ولا تعليم من الآباء والأمهات بل إلهامًا من الله — تعالى — وتعليمًا منه، وكل ذلك يفعل من غير حاجة إلى مغزل ومفتل أو مخيط أو مقص كما يحتاج الخياطون والرفاءون والنساجون.

وهكذا الخطاف وهو من الطير يبني لنفسه منزلًا ولأولاده مهدًا معلقًا في الهواء تحت السقوف من الطين من غير حاجة إلى سلم يرتقي عليه أو راقود يحمل الطين عليه أو عمود يسند بيته إليه، ولا يحتاج إلى آلة من الآلات أو الأدوات.

وإذا عَميتْ أولادُها تحمل من الطين حشيشة تُسمى الماميراف تحكُّ بها عين الأولاد فيُضيء بصرُها، كل ذلك تعليم من الله — تعالى — لا مِن البشر، وأنتم محتاجون إلى

الأستاذين والمعلِّمين في أدنَى صنعة وأخس عمل، وأنتم من تلقاء أنفسكم لا تقدرون على عمل من غير تعلُّم مدة من الزمان.

وهكذا أيضًا الأرضة، وهي من الهوام تبني على أنفسها بيوتًا من الطين الصرف شبه الأزج والأزقة من غير أن تجمع الترب أو تبلَّ الطين أو تستسقي الماء، فقولوا أيها الحكماء مِن أين لها ذلك الطين، ومِن أين تجمعه، وكيف تحمله إن كنتم تعلمون؟

وعلى هذا المثال حكم أجناس الطيور والحيوانات في اتخاذها المنازل والأوكار والأعشاش وتربية أولادها تجدها أحذق وأعلم وأحكم من عمل الإنس، فمن ذلك تربية النعامة — وهي مركَّبة من طائر وبهيمة — لفراريخها؛ وذلك أنها إذا جمعتْ لها بيضًا عشرين أو ثلاثين أو أربعين قسمتْها ثلاثة أقسام؛ منها ما تدفنه في التراب وثلثًا تتركه في الشمس وثلثًا تحضنه، فإذا خرجتْ فراريخها كسرت ما كان في الشمس وسقتْها ما كان فيها من تلك الرطوبات التي فيها ممَّا ذوَّبتْها الشمس ورقَّقتْها، فإذا اشتدَّتْ فراريخها وقويتْ أخرجتِ المدفونَ منها وفتحت لها ثقبًا كي يجتمع فيه الذباب والبق والهوام والنمل والحشرات، ثم تطعمها فراريخها، حتى إذا قويت عَدَتْ ولعبتْ ورَعَتْ.

فقل أيها الإنسي أي نسائكم تحسن مثل هذا في تربية أولادها إن لم تكن القابلة تشيلها وتقمطها وداية تعلِّمها كيف تقطع سرَّة ولدها وتقمطه وتدهنه وتكحله وتسقيه وتنومه ولا تعلم شيئًا ولا تعرفه.

وكذلك أيضًا حكم أولادكم في الجهالة وقلة المؤنة يوم يولدون ولا يعلمون من مصالح أمورهم ولا يعقلون شيئًا من جر منفعة ولا دفع مضرة إلا بعد أربع سنين أو سبع أو عشر يحتاجون أن يعلموا كل يوم علمًا جديدًا وأدبًا مستأنفًا إلى آخر العمر يوم الممات.

ونجد أولادنا إذا خرج أحدهم من الرحم أو من البيض يكون معلَّمًا أو مُلهَمًا كل ما يحتاج إليه من أمر مصالحه ومضارِّه ومنافعه، لا يحتاج إلى تعليم الآباء والأمهات.

فمِن ذلك فراريخ الدجاج والدراج والقياج والطيهوج وما شاكلها، فإنك تجدها تنقشر عنها البيضة وتخرج وتعدو من ساعتها أو تلتقط الحب وتهرب من المُطالب لها حتى ربما لا تُلحَق.

كل ذلك من غير تعليم من الآباء والأمهات بل وحيًا وإلهامًا من الله — تعالى — كل ذلك رحمة منه لخلقه وشفقة ورأفة وتحننًا.

وذلك أن هذا الجنس من الطيور لَمَّا لم يكن الذكر يُعاوِن الأنثى في الحضانة وتربية الأولاد كما يُعاون باقي الطيور كالحمام والعصافير وغيرهما أكثر الله عدد فراريخها وأخرجها مكتفية مستغنية من تربية الآباء والأمهات من شرب اللبن أو زق الحبوب والغذاء مما يحتاج إليه غير هذا الجنس من الحيوان والطيور، وكل ذلك عناية من الله — تعالى وتقدَّس — وحسن نظر منه لهذه الحيوانات التي تقدَّم ذكرُها.

فقل لنا أيها الإنسي أيُّهما أكرم عند الله الذي عنايته به أكثر ورعايته به أتم، فسبحان الله الخالق الرءوف الرحيم بخلقه الودود الشفيق الرفيق بعباده، ونحمده ونسبحه في غُدُوِّنا ورَوَاحِنا ونقدِّسه في ليلنا ونهارنا، فله الحمد والمنُّ والشكر والفضل والثناء والآلاء والنعماء، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأحسن الخالقين.

وأما الذي ذكرتَ بأن منكم الشعراء والخطباء والمتكلمين والمذكِّرين وما شاكلهم، فلو أنكم فهمتم منطق الطير وتسبيح الحشرات والهوام وتهليلات البهائم وتذكار الصرصر ودعاء الضفدع ومواعظ البلابل وخطب القنابير وتسبيح وتكبير الكراكيِّ وأذان الديك وما يقول الحمام في لحنه وقراءة القماري ونعيب الغراب الكاهن من الزجر وما تصف الخطاطيف من الأمور وما يُخبِر الهدهد وما يقول النمل وما يزعم النحل ووعيد الذباب وتحذير البق وغيرها من الحيوانات ذوي الأصوات والطنين والزمير لعلمتم معشر الإنس وتبيَّن لكم أن في هذه الطوائف خطباء وفصحاء ومتكلمين وواعظين ومذكرين ومسبحين مثلما في بني آدم، فلماذا افتخرتم علينا بخطبائكم وشعرائكم ومَن شاكلهم؟!

وكفى دلالة وبرهانًا على ما قلتُ وذكرتُ قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾، فنَسَبَكم إلى الجهل وقلة العلم والفهم بقوله: ﴿لَا تَفْقَهُونَ﴾، ونَسَبَنا إلى العلم والفهم والمعرفة بقوله تعالى: ﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾، ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، قالها على سبيل التعجُّب؛ لأنه يعلم كل عاقل أن الجهل لا يستوي مع العلم لا عند الله ولا عند الناس، فبأي شيء تفتخرون علينا يا معشر الإنس وتدَّعون أنكم أرباب ونحن عبيد لكم مع هذه الخصال التي فيكم كما بيَّنَّا قبلُ غير قول الزور والبهتان؟

فأما الذي ذكرتَ من أمر المنجِّمين والرَّاقِين منكم، فاعلموا أن لهم تمويهات وتوهيمات وتلبيسات ورزقًا رقيقًا ينفق على الجهلاء من العوام والخواص والنساء والصبيان والحَمقَى، ويخفى عليكم أيضًا، وعلى كثير من العقلاء والأدباء، وذلك أن أحدهم يخبر بالكائنات قبل كونها ويرجم بالغيب ويرجف به من غير معرفة صحيحة

ودلائل عقلية واضحة وبراهين مثبتة، فيقول بعد كذا وكذا شهرًا وكذا وكذا سنة في بلد كذا وكذا يكون كيت وكيت، وهو جاهل لا يدري أي شيء يكون في بلده وقومه وجيرانه، وأي شيء يكون ويحدث عليه في نفسه أو في ماله أو في أولاده أو غلمانه أو مَن يهمُّه أمرُهم، وإنما يرجم بالغيب في مكان بعيد أو في زمان طويل لئلا يقع عليه الاعتبار ويتبيَّن صِدْقه وكذبه وتمويهه ومخرقته.

ثم اعلم أيها الإنسي أنه لا يغتر بقول المنجِّم إلا الطغاة والبُغاة من الملوك والجبابرة منكم والفراعنة والنماردة والمغرور بعاجل شهواتها المنكرون أمر الآخرة ودار المعاد الجاهلون بالعلم السابق والقَدَر المحتوم مثل نمرود الجبار وفرعون ذي الأوتاد وثمود وعاد الذين طغوا في البلاد فأكثروا فيها الفساد من قتل الأطفال، يقول المنجمون الذين لا يعرفون خالق النجوم ومدبرها، بل يظنون ويتوهمون أن أمور الدنيا تدبِّرها الكواكب السبعة والبروج الاثنا عشر، ولا يعرفون المدبِّر الذي فوق الكل الذي هو رب الأرباب ومسبب الأسباب، ومالك يوم الدين، وقد أراهم الله قدرتَه مرة بعد أخرى ونفاذ أوامره ومشيئته في دفعات، وذلك أن نمرود الجبار أخبره المنجمون بمولود في مملكته في سنة من السنين بدلائل القرانات وأنه يتربَّى ويكون له شأن عظيم، ويخالف دين عبدة الأصنام.

فقال لهم: في أي بيت يكون؟ وفي أي موضع يتربَّى؟ وفي أي يوم يولد؟ فلم يدروا، ولكن أشار وزراؤه وجلساؤه بأن يقتل كل مولود يولد في تلك السنة ليكون هو في جملة مَن قد قُتل، وظنوا أن ذلك يمكن، وذلك لجهلهم بالعلم السابق والقضاء المحتم والمقدور الواقع الذي لا بد أن يكون، ففعل ما أشاروا به عليه فيما وقع، وخلَّص الله — تعالى — إبراهيم خليلَه من كيدهم، ونجَّاه من حيلتهم وما دبَّروا من مكرهم.

وهكذا فعل فرعون بأولاد بني إسرائيل لَمَّا أخبره المنجم بمولد موسى — عليه السلام — فنجَّى الله كليمَه من كيدهم ومكرهم لما أراد من بلوغ أمره، ورأى فرعون وهامان وجنودهما ما كانوا يحذرون، وعلى هذا المثال والقياس تجري أحكام النجوم، لم ينفعهم ذلك من قضاء الله وقدره.

ثم أنتم يا معشر الإنس لا تزدادون إلا غرورًا بقول المنجمين وطغيانًا، ولا تعتبرون ولا تتفكرون ولا تتنبَّهون من جهالاتكم.

ثم جئتم الآن تفتخرون علينا بأن منكم منجمين وأطباء ومهندسين وحكماء متفلسفين؟ فلما بلغ الببغاء إلى هذا الموضع من كلامه قال الملك: أحسَنَ الله جزاك، نِعْمَ ما قلتَ وبيَّنتَ!

فصل

ثم قال الملك لزعيم الجوارح: أخبِرْنا ما الفائدة والعائدة في معرفة الكائنات قبل كونها بالدلائل، وما يخبر عنه أهلها بفنون الاستدلالات الزجرية والكهانية والنجومية والفأل والقرعة وضرب الحصى والنظر في الكفِّ وما شاكل هذه الاستدلالات إذا كان لا يمكن دفعُها ولا المنْع لها ولا التحرُّز منها مما يُخاف ويُحذر من المناحس وحوادث الأيام ونوائب الحدثان في السنين والأزمان؟

قال الزعيم: نَعَم، يمكن دفْع ذلك والتحرُّز منه أيها الملك، ولكن لا على الوجه الذي يَطلب ويَلتمس أهل صناعة النجوم وغيرهم من الناس، قال: كيف ذلك؟ وعلى أي وجه ينبغي أن يُلتمس ويُدفع ويحترز منه؟

قال الزعيم: بالاستغاثة برب النجوم وخالقها ومدبِّرها، قال: كيف تكون الاستغاثة به؟ قال: باستعمال سُنَن النواميس الإلهية وأحكام الشرائع النبوية من الدعاء والبُكاء والتضرُّع والصوم والصلاة والصدقات والقرابين في بيوت الصلوات، والعبادات وصدق النيات وإخلاص القلوب، والسؤال لله — تبارك وتعالى — بدفعها وبصرفها عنهم كيف شاء، أو يجعل لهم في ذلك خيرة وصلاحًا؛ لأن الدلائل النجومية والزجرية إنما تُخبِر عن الكائنات قبل كونها مما سيفعله رب النجوم وخالقها ومدبرها ومصوِّرها والاستغاثة برب النجوم، والقوة التي فوق الفلك وفوق النجوم أولى وأحرى وأوجب من الاستغاثة بالاختبارات النجومية الجزوية على دفع موجبات الأحكام الكائنات مما أوجبها بأحكام القرانات والأدوار وطوالع السنين والشهور وغير ذلك في المواليد.

قال الملك: فإذا استعملت سُنَن النواميس على شرائط ما ذكرتُ ودعوا الله يرفع عن أهلها ما هو في المعلوم أنه لا بد كائن، قال: لا بد من كون ما هو في المعلوم، ولكن ربما يَدفَع الله عن أهلها شرَّ ما هو كائن، ويجعل لهم فيها خيرة وصلاحًا، ويجعلهم في حيِّز السلامة.

قال الملك: كيف يكون ذلك؟ بيِّن لي! قال: أيها الملك، أليس النمرود الجبار لما أخبره منجِّموه بالقران يدل على أنه سيولد في الأرض مولود يُخالِف دينُه دينَ عَبَدَة الأصنام، وكانوا يعنون به إبراهيم خليل الرحمن؟

قال: نَعَم، قال: أليس النمرود خافَ على دِينِه ومملكته ورعيته وجنوده فسادًا ومناحس؟

قال: نَعَم، قال: أَلَيْس لو أنه سأل رب النجوم وخالقها أن يجعل له ولرعيته ولجنوده فيه خيرة وصلاحًا كان الله — تعالى — يوفِّقه للدخول في دين إبراهيم هو وجنوده ورعيته، وكان في ذلك خيرة لهم وصلاح؟ قال: نَعَم، قال: وهكذا أيضًا فرعون، لَمَّا أخبَرَه منجِّموه بمولد موسى — عليه السلام — لو أنه سأل ربه أن يجعله مباركًا عليه وقرَّة عين له، وكان يدخل في دينه، أليس كان صلاحًا له ولقومه وجنوده كما فعل بامرأته وأحب الناس إليه وأخصهم به، وهو الرجل الذي ذكره الله تعالى في القرآن ومَدَحَه وأثنى عليه: فقال رجل من آل فرعون يكتم إيمانه أتقتلون رجلًا أن يقول ربي الله، إلى قوله تعالى: ﴿فَوَقَاهُ اللهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ﴾، أوَليس قومُ يُونُس — عليه السلام — لَمَّا خَافُوا ما أظلَّهم من العذاب دَعَوْا ربهم الذي هو رب النجوم وخالقها ومدبرها، فكشف عنهم العذاب، فإذا قد تبيَّنت فائدة علم النجوم والأخبار بالكائنات قبل كونها وكيفية التحرز منها أو دفعها أو الخيرة والصلاح فيها، ومن أجل هذا أوصى موسى — عليه السلام — بني إسرائيل، فقال لهم: متى خِفْتم من حوادث الأيام ونوائب الحدثان من الغلاء والقحط والفتن والجدب أو غلبة الأعداء ودولة الأشرار ومصائب الأخيار، فارجعوا عند ذلك بالتضرع والدعاء وإقامة سنة التوراة من الصلاة والزكاة والصدقات والقرابين والندم والتوبة والبكاء والتضرع إلى الله تعالى، فإنه إذا علم صِدْق قلوبكم ونياتكم صرف عنكم ما تحذرون وكشف عنكم ما تخافون وما أنتم عليه وبه مبتلون.

وعلى هذا المثال جَرَتْ سُنَّة الأنبياء والرسل — عليهم السلام — من لدُنْ آدم أبو البشر إلى محمد، عليهما الصلاة السلام والتحية والرضوان.

فعلى مثل هذا ينبغي أن تُستعمَل أحكام النجوم والأخبار بالكائنات قبل وجودها وما يدل عليها من حوادث الأيام ونوائب الزمان، لا على ما يستعمله المنجمون ومَن يغترُّ بقولهم بأن يختاروا طالعًا جزويًّا ويتحرزوا إليها من موجبات أحكام الكل بالجزء، وكيف لا يجوز أن يستعمل بقوة رب الفلك على الفلك، كما فعل قوم يونس — عليه السلام — والمؤمنون من قوم صالح وقوم شعيب.

وعلى هذا المثال ينبغي أن تكون مداواة المرضى والأعلال بالرجوع إلى الله — تعالى — أولًا بالدعاء والسؤال له والرجاء منه أن يفعل بهم مثل ما ذكرت في أحكام النجوم من الكشف والدفع والصلاح في ذلك، كما بيَّن الله — تعالى — عن إبراهيم حيث يقول: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾،

ولا ينبغي أن يكون الرجوع إلى أحكام الأطباء الناقصة في الصناعة الجاهلة بأحكام الطبيعيات الغافلة عن معرفة رب الطبيعة ولطفه في صنعته.

وذلك أنك ترى أكثر الناس يفزعون عند ابتداء مرضهم إلى الطبيب، فإذا طال بهم العلاج والمداواة ولم ينفعهم ذلك وأيسوا منهم ومن مداواتهم رجعوا عند ذلك إلى الله — تعالى — ودَعَوْا دعوة المضطرين، وربما يكتبون الرقاع ويلصقونها في حيطان المساجد والبِيَع وأساطينها ويدعون على أنفسهم وينادون بالشهرة والنكال، وقولهم: رحم الله مَن دعا للمُبتَلَى كما يفعل بالمشهورين، هذا جزاء من سرق أو قطع أو عمل ما يشبهه، ولو أنهم رجعوا إلى الله — تعالى — في أول الأمر ودَعَوْه في السر والإعلان لكان خيرًا لهم وأصلح من الشهرة والنكال.

فعلى مثل هذا يجب أن تُستعمَل أحكام النجوم في دفع مضار النكبات والتحرز من موجبات أحكامها، وما يدل عليها من الحوادث لا على مثل ما يستعمله المنجمون من الاختبارات بطوالع جزئيات ليتحرزوا بها من موجبات أحكامها الكائنات التي توجبها طوالع السنين والشهور والاجتماعات والاستقبالات والاختيارات للأوقات الجيدة لاستجابة الدعاء وطلب الغفران والمسألة إلى الله — تعالى — بالكشف لما يخافون ويحذرون بأن يصرف عنهم كيف شاء بما شاء، كما ذكروا أن مَلِكًا أخبره منجِّموه بحادث كائن في وقت من الزمان يُخاف منه هلاكًا على بعض أهل المدينة، فقال لهم: مِن أي وجه يكون، وبأي سبب؟ فلم يدروا تفصيلًا، ولكن قالوا: من سلطان لا يُطاق، فقال لهم: متى يكون ذلك؟ فقالوا: في هذه السنة في شهر كذا، فشاور الملك أهل الرأي كيف التحرز منه، فأشار عليه أهل الدِّين والوَرَع والمتألِّهون بأن يخرج وأهل المدينة كلهم إلى خارج المدينة فيدعون الله أن يصرف عنهم ما أخبرهم به المنجمون مما يخافون ويحذرون، فقَبِل الملك مشورتهم وخرج في ذلك الشهر الذي يخافون كون الحوادث فيه، وخرج معه أكثر أهل المدينة، فدعوا الله أن يَصرِف عنهم ما يخافون، وباتوا تلك الليلة على حالهم، وبقي قوم في المدينة لم يكترثوا لما أخبرهم به المنجمون، وما خافوا وما حذروا منه جاء بالليل مطر عظيم وسيل العرم، وكان بناء المدينة في مصبِّ الوادي، فهلك مَن كان في المدينة بائتًا، ونجا من كان قد خرج وكان بائتًا في الصحراء، فمثل هذا يندفع من قوم ويصيب قومًا، وأما الذي لا يندفع وما لا بد منه، ولكن يجعل الله لأهل الدعاء والصدقة والصلاة والصيام في ذلك خيرية وصلاحًا كما فعل بقوم نوح، فمَن آمَن منهم نجا وجعل لهم خيرية في ذلك، كما ذكر الله — تعالى — بقوله: ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا

الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ﴾، وأما متفلسفوكم الطبيعيون والمنطقيون والجدليون فإنهم عليكم لا لكم، قال الإنسي: وكيف ذلك؟ قال: لأنهم هم الذين يضلون بني آدم عن المنهاج المستقيم وصواب الطريق والدِّين وأحكام الشرائع بكثرة اختلافهم وفنون آرائهم ومذاهبهم ومقالاتهم، وذلك أن منهم من يقول بقِدَم العالَم، ومنهم مَن يقول بقِدَم الهَيُولَى، ومنهم مَن يقول بقِدَم الصورة، ومنهم مَن يقول بعِلَّتَيْن اثنتين، ومنهم مَن يقول بثلاث، ومنهم مَن يقول بأربع، ومنهم من قال بخَمْس، ومنهم مَن قال بسِتٍّ، ومنهم مَن قال بسَبْع، ومنهم مَن قال بالصانع والمصنوع معًا، ومنهم مَن قال بلا نهاية، ومنهم مَن قال بالتناهي، ومنهم مَن قال بالمَعَاد، ومنهم مَن قال بالإنكار، ومنهم من أقرَّ بالرسل والوحي، ومنهم مَن أنكر، ومنهم مَن شك وارتاب وتحيَّر، ومنهم مَن قال بالعقل والبرهان، ومنهم مَن قال بالتقليد من الأقاويل المختلفة والآراء المتناقضة التي بنو آدم بها مبتَلَوْن، وفيها متحيِّرون متبلبِلون شاكُّون، وفيها مختلفون، ونحن كلنا مذهبنا واحد وطريقتنا واحدة، وربنا واحد، ولا نشرك به شيئًا نسبِّحه في غُدُوِّنا ونقدِّسه في رَوَاحنا، لا نريد لأحد منَّا سوءًا، ولا نُضمِر له شرًّا ولا نفتخر على أحد من خلق الله — تعالى — راضون بما قسمه الله — تعالى — إنا خاضعون تحت أحكامه لا نقول: لَمَ وكَيفَ ولماذا فَعَل ودبَّر، كما يقول المعترضون على ربهم في أحكامه وتدبيره وصنعه.

فأما الذي ذكرتَ من أمْرِ المهندسين والمُسَّاح منكم وافتخرتَ به، فلعمري إن لهم التعاطي في البراهين التي تدقُّ عن الفهْم، وتبعد عن التصوُّر لما يدَّعون فيها، ولكن أكثرهم لا يعقلون لتركهم تعلُّم العلوم الواجب تعلُّمها ولا يَسَعُهم الجهل بها، يربون على ما يدَّعون من الفضولات التي لا يحتاج إليها؛ وذلك أن أحدهم يتعاطى مساحة الآجام والأوتاد ومعرفة ارتفاع رءوس الجبال وعمق قعر البحر وتكسير البراري والقفار وتركيب الأفلاك ومراكز الأثقال وما شاكل ذلك، وهو مع ذلك كله جاهل بكيفية تركيب جسده ومساحة جثته ومعرفة طول مصارينه وأمعائه وسعة تجويف صدره وقلبه ورئته ودماغه وكيفية خلقة معدته وأشكال عظامه وتركيب هندام مفاصل بدنه وما شاكل هذه الأشكال التي معرفته بها أسهل، وفهمه لها أقرب وعلمها بها أوجب والتفكر فيها أنفع والاعتبار بها أهدى وأرشد إلى معرفة ربه وخالقه ومصوره، كما قال النبي ﷺ: «مَن عَرَف نفسَه فقد عَرَف ربَّه.»

ومع جهله بهذه الأشياء أيضًا ربما يكون تاركًا للعلم بكتاب الله وفهْم أحكام شريعته ودينه ومفروضات سُنَن مذهبه، ولا يَسَعُه تركُها ولا الجهل بها.

وأما افتخاركم بأطبائكم والمُداوِين لكم، فلعمري إنكم محتاجون إليهم ما دامتْ لكم البطون الرحبة والشهوات المؤذية والنفوس الشَّرِهة والمأكولات المختلفة وما يتولد منها من الأمراض المزمنة والأسقام المُؤلِمة والأوجاع المهلكة تلجئكم إلى باب الأطباء، ولنِعْمَ مَا قيل في الشعر:

إن الطبيب بطبه ودوائه لا يستطيع دفاع مكروه أتى

فزادكم الله أطباء؛ لأنه لا يُرى على باب دكان الطبيب إلا كل عليل مريض سقيم، كما لا يُرى على باب دكان المنجم إلا كل منحوس أو منكوب أو خائف، لا يزيده المنجم إلا نحسًا على نحس، يأخذ قطعة ولا يقدر على تعجيل سعادة ولا تأخير منحسة إلا زخرف القول غرورًا تخمينًا وحزرًا بلا يقين ولا برهان.

وهكذا حكم المتطببين منكم يزيدون العليل سقمًا والمريض عذابًا بالحمية مِن تناول أشياء ربما يكون شفاء العليل في تناولها، وهو ينهاه ويمنعه منها لجهله، ولو تركه مع حكم الطبيعة لعله كان أسرع لبرئه وأنجح لشفائه، فافتخارك أيها الإنسي بأطبائكم ومنجميكم هو عليكم لا لكم.

فأما نحن فغير محتاجين إلى الأطباء والمنجمين؛ لأنا لا نأكل إلا قوت يوم وبُلْغة يوم من لون واحد وطعام واحد، فلا تعرض لنا الأمراض المختلفة والأعلال المتفننة، ولا نحتاج إلى الأطباء ولا إلى الشراب والدرياقات وفنون المداوات مما تحتاجون أنتم إليه، فهذه الأحوال كلها التي هي بالأحرار والأخيار أشبه والكرام أولى، وتلك بالعبيد والأشقياء أولى، وبهم ألْيَق، فمِن أين زعمتم أنكم أرباب لنا ونحن لكم عبيد بلا حجة ولا برهان إلا قول الزور والبهتان.

وأما تُجَّاركم ورؤساؤكم ودهاقينكم الذين ذكرتم وافتخرتم بهم، فلا فخر لكم ولا لهم؛ إذ كانوا هم أسوأ حالًا من العبيد الأشقياء والفقراء الضعفاء؛ وذلك أنك تراهم طول نهارهم مشغولي القلب متعوبي الأبدان مغمومي النفوس مُعذَّبي الأرواح فيما يبنون ما لا يسكنون ويغرسون ما لا يجنون، ويجمعون ما لا يأكلون، ويعمرون الدور ويخربون القبور، أكياس في أمور الدنيا بُلْهٌ في أمور الآخرة، يجمع أحدُهم الدينارَ والمتاع، ويبخل أن يُنفِق على نفسه ويتركه لزوج امرأته أو لزوج ابنته أو لزوجة ابنه ولوارثه كادُّون لغَيْرِهم، مُصلِحون أمورَ سواهم، لا راحة لهم إلى الممات.

وأما تُجَّاركم فيجمعون من حرام وحلال ويبنون الدكاكين والخانات ويملئونها من الأمتعة ويحتكرونها ويضِنُّون بها على أنفسهم وجيرانهم وأحبابهم، ويمنعون الفقراء والمساكين حقوقهم، ولا ينفقون حتى تذهب جملة واحدة إما في حرق أو غرق أو سرقة أو مصادرة سلطان جائر أو قطع طريق وما شاكل ذلك، ويبقى هو بحزنه ومصيبته معاقبًا بما كسبتْ يداه، فلا زكاة أخرج، ولا صدقة أعطى، ولا يتيمًا برَّ، ولا معروفًا لضعيف أسدى، ولا صلة لذي رحم، ولا إحسانًا إلى صديق، ولا تزوَّد للمعاد، ولا قدَّم للآخرة.

والذين ذكرتَهم من أرباب النعم وأهل المروءات فلو كانت لهم مروءة كما ذكرتَ لكان لا يَهنِيهم العيشُ إذا رَأَوْا فقراءهم وجيرانهم واليتامى من أولاد إخوانهم والضعاف من أبناء جنسهم جياعًا عراة مرضى زَمْنَى مفاليج مطروحين على الطريق يطلبون منهم كسرة ويسألونهم خِرْقة وهم لا يلتفتون إليهم ولا يرحمونهم ولا يفكرون فيهم، فأي مروءة لهم وأي فتوة فيهم؟ وكيف تَهنِيهم لذَّاتُهم، إلا أنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلًا؟!

وأما الذين ذكرتَهم من الكُتَّاب والعُمَّال وأصحاب الدواوين وافتخرتَ بهم فهكذا يليق بكم الافتخار بالأشرار الذين يهتدون إلى أسباب الشرور ما لا يهتدي غيرهم ويصلون إلى ما لا يصل إليه سواهم لدقة أفهامهم وجودة تمييزهم ولُطْف مَكَايِدهم وطول ألسنتهم ونفاذ خطابهم في كتبهم يكتب أحدهم إلى أخيه وصديقه زخرفًا من القول غرورًا بألفاظ مسجعة وكلام حلو وخطاب فصيح يُغرِيه وهو من ورائه في قَطْع دابِره والحيلة في إزالة نعمته والوصول إلى أسباب نكايته وتدوين الأعمال في مصادراته وتأويلات الأخذ لماله.

وأما قُرَّاؤكم وعُبَّادكم الذين تظنون أنهم أخياركم وترجون استجابة دعائهم وشفاعتهم لكم عند ربهم فهم الذين غرُّوكم بإظهارهم الورع والخشوع والتقشُّف والنسك من حذْف الأسْبِلة وتقصير الأكمام وتشمير الإزار والسراويل ولبس الخشن من الصوف والشعر والمرقَّعات وطول الصمت وكثرة التنسك وترك التفقُّه في الدِّين وتعلُّم أحكام الشرائع وسنن الدين وترك تهذيب النفس وإصلاح الخلق، واشتغلوا بكثرة السجود والركوع بلا علم حتى ظهر أثر السجود على جباههم والنفثات على رُكَبهم، وتركوا الأكل والشرب حتى جفَّتْ أدمغتهم ونَحَلَتْ شفاهُهُم وأنْحَلَتْ أبدانُهم وتغيَّرتْ ألوانُهم وانْحَنَتْ ظهورُهم، وقلوبُهم مملوءة بغضًا وحقدًا وجفاءً لِمَن ليس مثلهم، ونفوسُهُم مملوءة وساوس وخصومة مع ربهم بضمائرهم لِمَ خلق إبليس والشياطين والكفار والفراعنة والفُسَّاق والفُجَّار والأشرار ولِمَ ربَّاهم ورزقهم ويُمكِّنهم ويُمهِلهم ولا

يُهلِكهم، ولماذا فعل هذا، وما شاكل هذه المحاولات والخرافات والوساوس التي قلوبهم مملوءة منها، ونفوسُهم شاكَّة متحيِّرة، فهم عند الله أشرار، وإن كانوا عندكم أخيار، فهؤلاء وإن كانوا بالصورة الظاهرة إنسان ففي الصورة المعنوية ليسوا كذلك، فأي افتخار لكم بهم؟! وإنما هم عارٌ لكم.

وأما فقهاؤكم وعلماؤكم فهم الذين يتفقهون في الدِّين طَلَبًا للدنيا وابتغاءً للرياسة والولاية والقضاء والفتاوى بآرائهم وقياساتهم، فيحللون تارةً ويحرمون تارةً بتأويلاتهم ويتبعون ما تشابه ويتركون حقيقة ما أنزل الله من الآيات المحكمات، فنبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، ويتبعون ما تتلو الشياطين على قلوبهم من الخيالات.

كل هذا طلبًا للدنيا وتكسُّبًا للرياسة من غير ورع ولا تقوى من الله تعالى، فأولئك هم وَقود النار في الآخِرة أو يتوبون إلى الله ويستغفرونه، فأي فخر لكم؟!

وأما قضاتكم وعُدُولكم والمزكُّون لكم فأدهى وأظلم وأبطر، وهم أشرُّ سِيرةً من الفراعنة والجبابرة؛ وذلك أنك تَجِد الواحِدَ منهم قبلَ الولاية قاعدًا بالغداة في مسجده حافظًا لصلاته مقبلًا على شأنه يمشي بين جيرانه على الأرض هونًا حتى إذا وَلِي الحكمَ والقضاء تراه راكبًا بغلة فارهة، وحمارًا مصريًّا بسرج ومركب وغاشية يحملها السودان وخفاقين تنجر في الأرض، قد ضمن القضاء من السلطان الجائر بشيء يؤدِّيه إليه من أموال اليتامى ومال الوقوف، وصَالَحَ عدوًّا له بشيء من السحت والبراطيل، فقَبِل منهم الرشوة، ويرخص لهم في الجنايات وشهادات الزور وترك أداء الأمانات والودائع، فأولئك هم الذين وُبِّخوا في التوراة والإنجيل والفرقان، أبالله تغترُّون وعليه تجرءون؟

وأما خلفاؤكم الذين تزعمون أنهم ورثة الأنبياء — عليهم السلام — فكفَى في وصْفِهم ما قال الله — تعالى — وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِن نبوَّة إلا ونَسَخَتْها الجبروتية، ويُسمَّوْن باسم الخلافة، ويَسِيرون بسيرة الجبابرة، وينهَوْن عن منكرات الأمور، ويرتكبون هم منها كل محظور، ويقتلون أولياء الله وأولاد الأنبياء — عليهم السلام — ويَسبُونَهم ويَغصِبونهم على حقوقهم، ويشربون الخمر ويبادرون إلى الفجور، واتخذوا عباد الله خولًا وأيامهم دولًا وأموالهم مغنمًا، فبدَّلوا نعمة الله كفرًا، واستطالوا على الناس افتخارًا، ونسُوا أمرَ المعاد، وباعوا الدِّين بالدنيا والآخرة بالأولى، فويلٌ لهم مما كسبت أيديهم، وويلٌ لهم مما يكسبون؛ وذلك أنه إذا وَلِي أحد منهم ابتدأ أولًا بالقبض على مَن تقدَّمتْ له حرمة لآبائه وأسلافه وأزال نعمته، وربما قتل أعمامَه وإخوانَه وأبناء عمِّه وأقرباءه، وربما كحلهم أو حبسهم ونفاهم أو تبرَّأ منهم، كل ذلك يفعلون بسوء

ظنهم وقلة يقينهم؛ مخافة أن يفوتهم المقدور أو رجاء أن ينالوا ما ليس في المقدر، كل ذلك حرصًا على طلب الدنيا وشدة الرغبة فيها وشحًّا عليها وقلة الرغبة في الآخرة، وقلة اليقين بجزاء الأعمال في المعاد، وليست هذه الخصال مِن شيم الأحرار ولا فعل الكرام، فافتخارك أيها الإنسي على الحيوان بذكر ملوككم وأمرائكم وسلاطينكم عليكم لا لكم، وادعاؤكم علينا العبودية ولأنفسكم الربوبية صار باطلًا وزورًا وبهتانًا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، إنه هو الغفور الرحيم.

فصل

فلما فرغ الببغاء من كلامه قال الملك لمَن حوله من حكماء الجن والإنس: أخبروني مَن الذي يحمل إلى الأَرَضة ذلك الطين الذي تبني به على نفسها تلك الآزَاجُ والعُقُود شبه الرواق والدهاليز، وهي دابة ليس لها رجلان تعدو بهما ولا جناحان تطير بهما؟

فقال الحكيم الخبير من العبرانيين: نَعَم أيها المَلِك، سمعنا أن الجن تحمل إليها ذلك الطين مكافأة لها على ما أَسْدَتْ إِلَيْها من الإحسان في اليوم الذي أَكَلَتْ منسأةَ سليمان بن داود — عليه السلام — فخرَّ وعلِمَتِ الجن بموته، فهَرَبَتْ ونَجَتْ مِن العذاب الأليم.

فقال الملك لمَن حوله من علماء الجن: ماذا تقولون فيما ذكر الإنسي؟

فقالوا: لسنا نَعرِف هذا الفعل من الجن؛ لأنه لو كانت الجن تحمل إليها التراب والطين والماء فهي بعدُ إذن في العذاب المُهِين؛ لأن سليمان لم يكن يسومها شيئًا غير حَمْل الماء والتراب في اتخاذ البنيان.

فقال الحكيم اليوناني: عندنا أيها الملك من ذلك علم هو غير ما ذكر هذا العبراني، فقال الملك: أخبرني ما هو؟ قال: نَعَم، اعلم أيها الملك أن هذه الدابة دابة ظريفة الخِلْقة عجيبة الطبيعة، من ذلك أن طبيعتها باردة جدًّا وبدنها متخلخل منتفخ المسام يتداخلها الهواء ويتجمد من شدة برد كبيعتها ويصير ماء ويرشح على ظاهر بدنها ويَقَع عليها غبار الهواء دائمًا فيبتلُّ ويجتمع شبه الوسخ، فهي تجمع ذلك من بدنها وتبني على نفسها تلك الآزاج كِنًّا لها من الآفات ولها مشفران حادَّان شبه المشراطين تَقرِض بهما الحَبَّ والخشب والثَّمَر والنبات وتنقب الآجُرَّ والحجارة.

فقال الملك للصرصر: هذه الدابة من الهوام، وأنت زعيمها، فماذا ترى فيما قال اليوناني؟ فقال الصرصر: صدق فيما قال، ولكن لم يتمم ولم يفرغ من الوصف، فقال الملك: تمِّمْه أنت، فقال: نعم.

إن الخالق — تعالى — لما قدَّر أجناس الخلائق وقسم بينها المواهب والعطايا عدل في ذلك بينها بحكمته ليتكافئوا ويتساوَوْا عدلًا منه وإلْهَامًا وإنصافًا بها، سبحانه وبحمده، فمِن الخلْق ما قد وَهَبَ له جثة عظيمة وبنية قوية ونفسًا ذليلة مهينة مثل الجمل والفيل، ومنها ما قد وهب له نفسًا قوية عزيزة عليمة حكيمة وبنية صغيرة ليتكافأ في المواهب والعطايا عدلًا من الخالق الوهاب وحكمة.

فقال الملك للصرصر: زِدْني في البيان، قال: نعم، ألا ترى أيها الملك إلى الفيل مع كِبَر جثته وعظيم خلقته كيف هو ذليل النفس منقاد للصبي الراكب على كتفه يُصرِّفه كيف شاء؟ ألم تَرَ إلى الجمل مع عظم جثته وطول رقبته كيف ينقاد لَمن جَذَب خطامه ولو كانت فأرة أو خنفساء؟ ألم تَرَ إلى الجرادة في الحشرات الصغار التي هي أصغر منها إذا ضَرَبَتِ الفيل بحُمَتِها كيف تَقتُلُه وتُهلِكه؟ وكذلك الأرضة وإن كانت لها جثة صغيرة وبنية ضعيفة فإن لها نفسًا قوية، وهكذا حكم سائر الحيوانات الصغار الجثة مثل دودة القز ودودة الدرة وزنابير النحل، فإن لها أنفسًا علَّامة حكيمة وإن كانت أجسادها صغارًا وبنيتها ضعيفة.

قال الملك: ما وجْه الحِكْمة في ذلك؟ قال: لأن الخالق — تعالى — علم بأن البنية القوية والجثة العظيمة لا تصلح إلا للكَدِّ والعمل الشاقِّ وحمل الأثقال، ولو قَرَن بها أنفسًا كبارًا لما انقادَتْ للكَدِّ والعمل الشاقِّ، ولأَبَتْ وأنِفَتْ ولجَّتْ وشَمَسَتْ وامتنعت، فسبحان الخالق العالم بمصالح خلقه. وأما الجثث الصغار والأنفس الكبار العلَّامة فإنها لا تصلح إلا للحذْق في الصنائع مثل أنفُس النَّحْل ودودة القز ودودة الدرة وأمثالها.

قال الملك: زِدْني في البيان، قال: نَعَم، إن الحذق في الصناعة هو أن لا يدري كيف عملها الصانع، ومِن أي شيء عملها، وبأي شيء يعمل، مثل صناعة النحل؛ لأنه لا يدري كيف تبني منازلها وبيوتها مسدسات من غير بركار ولا مسطرة ولا أدوات أُخَر، ولا يُدرى من أين تجمع العسل والشمع، وكيف تعمله، وكيف تميِّزه، فلو كانت لها جثة كبيرة لبان ذلك وشوهد ورُئِي وأُدْرك، وهكذا حكم دودة القز لو كانت لها جثة عظيمة لرُئِيَ كيف تمدُّ ذلك الخيط الدقيق وتغزله وتفتله، وهكذا بناء الأرضة لو كانت لها جثة عظيمة لرئي كيف تبلُّ ذلك الطين وكيف تبني، وأُخبِرك أيها الملك أن الخالق — تعالى — قد أرى الدلالة على قدرته للحكماء من بني آدم المنكِرة إيجاد العالم لا من هَيُولَى موجودة، من صناعة النحل باتخاذها البيوت من الشمع وجمعها العسل من غير هَيُولَى موجودة.

قال الملك: زعمتِ الإنس بأنها تجمع من زهر النبات وورق الشجر، قال: فلِمَ لا يَجمَعون هم منها شيئًا مع زعمهم بأن لهم العِلْم والقُدْرة والحكمة والفلسفة؟ وإن كانت تجمع ذلك من وجه الأرض أو مِن الماء أو مِن وجْه الهواء، فلِمَ لا يَرَوْن منها شيئًا؟ ولا يدرون كيف تجمع ذلك وتحمله وتميِّزه وتبني وتخزن؟ وهكذا أرى الخالقُ قدرتَه لجبابرتهم الذين طَغَوْا وبَغَوْا لما كثرت نِعَم الله — تعالى — لديهم مثل نمرود الجبار قتله أصغر جثة من الحشرات، وهكذا فرعون لما طغى وبغى على موسى أرسل عليه جنود الجراد وأصغر من الجراد القُمَّل وقهره، فلم يَعتَبِر ولم ينزجر، وهكذا لما جمع الله لسليمان — عليه السلام — المُلْك والنبوَّة وشيَّد مُلْكه وسخَّر له الجن والإنس وقهر ملوك الأرض وغلَبَهم شكَّتِ الجن والإنس في أمرِه، وظنَّت أن ذلك بحيلة منه وقوة وحول له، مع أنه قد نفى هو ذلك عن نفسه بقوله: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾، فلم ينفعهم قولُه ولم يَزَلِ الشك من قلوبهم في أمره حتى بعث الله هذه الأرضة فأكَلَتْ منسأتَه وخرَّ على وجهه في محرابه، فلم يَجسُر على ذلك أحد من الجن والإنس هيبة منه وإجلالًا، وبيَّن الله قدرته ليكون عِظَة للوكهم الجبابرة الذين يفتخرون بكبر أجسادهم وعظم جثتهم وشدة صولتهم، ومع هذه كلها لا يتعظون ولا ينتبهون ولا يُزجرون، بل يلحُّون ويتمرَّدون ويفتخرون علينا بملوكهم الذين هم صَرْعَى بأيدي صغارنا والضعفاء من أبناء جنسنا!

وأما دودة الدرة فهي أصغر حيوان البحر بنية وأضعفها قوة وألْطَفها جثة وأكبرها نفسًا وأكثرها علمًا ومعرفة، وذلك أنها تكون في قعر البحر مُقبِلة على شأنها في طلب قُوتِها، حتى إذا حان وقت من الزمان صعدت من قعر البحار إلى سطح الماء في يوم المطر فتفتح أُذُنَيْن لها شبه شفتين فيقطر فيهما من ماء المطر حبات، فإذا علمت بذلك ضمَّتْ تلك الشفتين ضمًّا شديدًا إشفاقًا أن يرشح فيها من ماء البحر المالح، ثم تنزل برفق إلى قعر البحار كما كانت بدءًا وتمكث هناك منضمة على الصدفتين إلى أن ينضج ذلك الماء فينعقد منه الدر، فأي علماء الإنس يعمل مثل هذا خبِّروني إن كنتم صادقين!

وقد جعل الله — تعالى — في جِبِلَّة نفوس الإنس محبة لبس الحرير والديباج والإبريسم وما يُتَّخذ منها من اللباس الحَسَن الذي هو كله من لعاب هذه الدودة الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس، وجعل في ذوقهم ألذَّ ما يأكلون العسل الذي هو بصاق أضعف الحيوانات الصغيرة الجثة الضعيفة البنية الشريفة النفس الحاذقة في الصنعة، وأحسن ما يُوقِدون في مجالسهم الشمع الذي هو فضلة من فضالة

النحل، وجعل أيضًا أفخر ما يتزيَّنون به الدر الذي يخرج من جوف هذه الدودة الصغيرة الجثة الشريفة النفس ليكون دلالة على حكمة الصانع الخالق الحكيم ليزدادوا به معرفة ولنعمائه شكرًا وفي مصنوعاته فكرةً واعتبارًا، ثم هم مع هذه كلها معرضون غافلون ساهون لاهون طاغون باغون، وفي طغيانهم يتردَّدون، لأنعامه كافرون، ولآلائه جاحدون، ولصنعته منكرون، وعلى ضُعَفاء الخلق مفتخرون متعدُّون جائرون ظالمون.

فلما فرغ الصرصر وهو زعيم الهوام من كلامه قال الملك: بارك الله فيك من حكيم، ما أبلغك! ومن متقن، ما أحكمك! ومن خطيب، ما أفصحك! ومن موحِّد، ما أعرَفَك بربك! ومن ذاكر شاكر لأنعامه، ما أفضلك!

فصل

ثم قال الملك للإنسي: قد سمعتم ما قال وفهمتم ما أجاب، فهل عندكم شيء آخر؟ قالوا: نَعَم، خصال ومناقب تدل على أنهم عبيدنا ونحن أرباب، قال: وما هي؟ اذكرها! قال: وحدانية صورتنا وكثرة صُوَرِها واختلاف أشكالها، فإن الرياسة والربوبية بالوحدة أشبه والعبودية بالكثرة أشبه، فقال الملك للجماعة: ماذا تَرَوْن فيما قال وذكر؟ فأطرقتِ الجماعة ساعة مفكِّرة فيما قال.

ثم تكلَّم زعيم الطيور وهو الهزار داستان، قال: صدق أيها الملك فيما قال، ولكن نحن وإن كانت صُوَرنا مختلفة كثيرة فنفوسنا واحدة، وهؤلاء الإنس وإن كانتْ صورتهم واحدة فإن نفوسهم كثيرة مختلفة، قال الملك: وما الدليل على أن نفوسهم كثيرة مختلفة؟ قال: كثرة آرائهم واختلاف مذاهبهم وفنون دياناتهم، وذلك أنك تجد فيهم اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والمشركين ومَن عَبَدَ الأصنام والنيران والشمس والقمر والنجوم والكواكب وغيرها، وتجد أيضًا أهل الدِّين الواحد مختلفي المذاهب والآراء مثل سامري وغيابي وحالوتي ونسطوري ويعقوبي ومَلْكاني وشنوي ومانوي وخُرَّمي ومَزْدكي ويصاني وبهرمي وشمسي وخارجي ورافضي وناصبي وقدري وجهمي ومعتزلي وسُنِّي وجَبْري وما شَاكَلَ كل هذه المذاهب التي يُكفِّر أهلُها بعضُهم بعضًا، ويَلعَن بعضُهم بعضًا، ويَقتُل بعضُهم بعضًا، ونحن من هذه كلها برآء؛ مذهبُنا واحدٌ واعتقادُنا واحدٌ وكلُّنا موحِّدون مؤمنون مسلمون غير مشركين ولا منافقين ولا فاسقين ولا مرتابين ولا شاكِّين ولا متحيِّرين ولا ضالِّين ولا مضلِّين، نعرف ربَّنا وخالِقَنا ورازِقَنا ومُحيِينا ومميتنا فنسبِّحه ونُهلِّله ونُقدِّسه ونُكبِّره بكرة وعشيًّا، ولكن هؤلاء الأناس لا يفقهون تسبيحهم.

فقال الإنسي الفارسي: نحن أيضًا كذلك، إن ربنا واحد، وإلهنا وخالقنا ورازقنا واحد، ومحيينا ومميتنا واحد لا شريك له، فقال الملك: فلم تختلفون في الآراء والمذاهب والديانات والرب واحد؟ قال: لأن الديانات والآراء والمذاهب إنما هي طرق ومسالك ومحاريب ووسائل والمقصود واحد من أي الجهات توجَّهنا فثَمَّ وجه الله، قال: فلِمَ يَقتُلُ بعضُكم بعضًا إذ كانت الديانات كلها قصدها واحد، وهو التوجُّه إلى الله؟

فقال المستبصر الفارسي: نَعَم أيها الملك، ليس ذلك من جهة الدين؛ لأن الدين لا إكراه فيه، ولكن من جهة سُنَّة الدين الذي هو المُلْك، قال: وكيف ذلك؟ بيِّنْه لي. قال: إن الدين والمُلْك أَخَوَان تَوْأَمان لا يفترقان، ولا قوام لأحدهما إلا بأخيه، غير أن الدين هو الأخ المقدَّم، والمُلك هو الأخ المؤخَّر المُعقِب له، فلا بدَّ للمُلْك من دِين يَدِين به الناس، ولا بد للدِّين من مُلْك يأمر الناس بإقامة سننه طوعًا أو كرهًا، فلهذه العلة يَقتُل أهلُ الديانات بعضُهم بعضًا طلبًا للملك والرياسة، كل واحد يُريد انقيادَ الناس أجمع لسنة دينه وأحكام شريعته، وأنا أُخبِر الملك — وفَّقَه الله — لفهْم الحقائق وأذكره بشيء يقين لا شك فيه.

قال الملك: وما هو؟ قال: إن قتْل الأنفس سُنَّة في جميع الديانات والمِلَل والدُّوَل كلها، غير أن قتل النفس في سُنَّة الدين، وهو أن يقتل طالب الدين نفسه، وفي سنة الملك أن يقتل طالب الملك غيره.

فقال الملك: أما قتل الملوك غيرَها في طلب الملك فبيِّن ظاهر، وأما قتل طالب الدين نفسَه في سائر الديانات فكيف هو؟

قال: نَعَم، ألا ترى أيها الملك أن ذلك سُنَّة دين الإسلام كيف هو بيِّن ظاهر، وذلك قول الله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ﴾.

ثم قال: ﴿فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ﴾، وقال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾، وقال: ﴿إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا﴾، وقال في سنة التوراة: ﴿فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ﴾، وقال المسيح — عليه السلام — في الإنجيل: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللهِ﴾.

فقال: «استعدُّوا للقَتْل والصَّلْب إن كنتم تريدون أن تنصروني وتكونوا معي في ملكوت السموات عند أبي وأبيكم، وإلا فلستم في شيء منِّي، فقَبِلوا وقُتِلوا ولم يرتدُّوا عن دِين المسيح.

وهكذا يفعل البراهمة من أهل الهند، يَقتُلون أنفسَهم ويَحرِقون أجسادَهم طلبًا للدِّين ويَرَوْن ويعتقدون بأن أقرب قربان إلى الله — تعالى — أن يَقتُل التائبُ جسدَه ويحرق بدنَه ليكفِّر عن ذنوبه يقينًا منه بالمعاد.

وهكذا يفعل المانية والمثنوية، تمنع أنفسها من الشهوات وتحمل عليها كَدَّ العبادات حتى تقتلها وتخلِّصها من دار البلاء والهوان.

وعلى هذا القياس يوجد حكم سنن أهل الديانات في جعل قتل النفوس من فنون العبادات وأحكام الشرائع كلها وضعت لطب النفوس وطلب النجاة من نار جهنم والفوز بالوصول إلى نعيم الآخرة دار المعاد والقرار، وأُخبِر المَلِكَ وأذكِّره أن في أهل الديانات والمذاهب أخيارًا وأشرارًا، ولكن أشر الأشرار مَن لا يؤمن بيوم الحساب ولا يرجو ثواب الإحسان، ولا يخاف مكافأة السيئات ولا يقر بوحدانية الصانع الباري الحكيم الخالق الرازق المحيي المميت المعيد الذي يرجع إليه المرجع وإليه المصير.

فصل

ثم قال زعيم الهند: نحن بنو آدم أكثر من الحيوانات عددًا وأممًا وأجناسًا وأنواعًا وأشخاصًا، وأعرف بفنون تصاريف أحوال الزمان ومآربه وعجائبه.

قال المَلِك: وما يُدريك؟ قال: لأن الربع المسكون من الأرض يحوي على نحو سبعة عشر ألف مدينة مختلفة الأمم الكثيرة العدد التي لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، فمِن تلك الأمم التي لا تعد ولا تحصى أهل الهند وأهل الصين وأهل السند وأهل الزنج وأهل الحجاز وأهل اليمن وأهل الحبشة وأهل نجد وأهل بلاد النوبة وأهل مصر وأهل بلاد الصعيد وبلاد الإسكندرية وأهل برقة وأهل قيروان، وأهل البربر وأهل البوادي، وأهل طنجة وأهل بلاد الخالدات وأهل بلاد مردمانه وأهل كيوان وأهل بلاد كله وأهل بلاد الأندلس وبلاد الرومية وبلاد قسطنطينية، وبلاد دجلة وبلاد مقدونية وبلاد برجان وبلاد الصقالبة وبلاد أملاج وبلاد الأبواب، وبلاد أَذْرَبِيجَان وبلاد أرمينية وبلاد أهل الإسلام، وبلاد أهل الشام وبلاد أهل يونان وبلاد الديارات وبلاد العراق وبلاد خراسان وبلاد خوزستان وبلاد الجبال وبلاد جيلان وديلمان وطبرستان وبلاد جرجان وبلاد نيسابور وأهل كرمان وبلاد فارس وبلاد مُكران وبلاد كابُلستان ومولتان وبلاد سجستان وبلاد ما وراء النهر وبلاد غور وأستادان وباميان وصخارستان وكيلان وبلاد خوارزم وبلاد يأجوج ومأجوج وفرغانة وبلاد صعانيات وبلاد كيماك وبلاد خاقان وسيستان وبلاد جوجير وبلاد تبت وأهل

بلاد جاج وماجين وأهل بلاد الجزائر والسوادات والجبال والفلوات والسواحل هذه سوى القُرى والأعراب والأكراد وأهل البراري والبوادي والجزائر والغياض والآجام، وأهل هذه البلاد كلها أمم من الإنس من بني آدم مختلفة ألوانهم وألسنتهم وأخلاقهم وطباعهم وآراؤهم ومذاهبهم وصنائعهم وسيرتهم في دياناتهم لا يُحصِي عددَها إلا الله — تعالى — الذي خلقهم وأنبأهم ورزقهم ويعلم سرَّهم ونجواهم، ويعلم مستقرهم ومستودعهم، كلٌّ في كتاب مبين، فكثرة عدَدِهم واختلاف أحوالهم وفنون تصاريف أمورهم وعجائب مآربهم يدل على أنهم أفضل من غيرهم وأكرم من سواهم من أجناس الخلائق التي في الأرض من الحيوانات جميعًا، وأنهم أرباب والحيوانات عبيد لهم وخَوَل ومماليك، ولنا فضائل جمَّة أُخَر ومناقب شتَّى يطول شرحها، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فصل

فلما فرغ الإنسي من كلامه نطق عند ذلك الضفدع وقال: الحمد لله الكبير المتعال العلي الجبار العزيز الغفار الرحيم القهار، خالق الأنهار الجارية والبحار الزاخرة المرة المالحة البعيدة القرار الواسعة الأقطار ذوات الأمواج والهيجان، معدن الدر والمرجان، وهو الذي خلق في أعماق قرارها الظلمة وأمواجها المتلاطمة أصناف الخلائق ذوات الفنون والطوائف، فمنها ذوات الجثة العظام والهياكل الجسام قد أَلْبَس بعضَها الجلود الثخان والفلوس المنضدة الصلاب والأصداف المجعدة ومنها كثيرة الأرجل الدبابة.

ومنها ذوات الأجنحة الطيارة، ومنها ذوات البطون الخميصة المناسبة، ومنها ذوات الرءوس الكبار والأفواه المفتحة، والعيون البراقة والأشداق الواسعة، والأسنان القاطعة والمخالب الحِدَاد، والأجواف الرحبة والجلود المرصعة، والأذناب الطويلة، والحركات الخفيفة والسباحة السريعة.

ومنها صغار الجثة، مُلْس القُدُود بلا آلة ولا أدوات، ومنها قليلة الحركات والحس، كل ذلك لأسباب وعلل لا يعلم ولا يعرف كُنْهَ معرفتها إلا الله الذي خلقها وصوَّرَها ويُنشِئُها ويرزقها ويتمِّمها ويُكملها ويبلغها إلى أقصى مدى غاياتها ومنتهى نهاياتها ويعلم مستقرَّها ومستودعها، كلٌّ في كتاب مبين لا لمخافة غلط ولا احتراز من النسيان، لكن لوضوح وبيان.

ثم قال الضفدع: ذكر هذا الإنسي أيها الملك العادل أصناف بني آدم وعدَّد طبقاتهم ومراتبهم وافتخر بها على الحيوانات، فلو أنه رأى أجناس الحيوانات من حيوان الماء

وشاهد صور أنواعها وعجائب أشكال أشخاصها وطوائف فنون هياكلها، لعَايَنَ عجائب، ولصَغُر في عينه ما ذكر من كثرة أصناف بني آدم والأمم الكثيرة التي ذكر أنها في المدن والقرى والبراري والبلدان، وذلك أن في الرَّبع المسكون نحوًا من أربعة عشر بحرًا كبارًا؛ منها بحر الروم وبحر جرجان وبحر جيلان وبحر القُلزم وبحر فارس وبحر هند وبحر سند وبحر الصين، وبحر يأجوج ومأجوج وبحر الأخضر وبحر الغربي وبحر الشمال، وبحر الجنوب، وبحر الشرقي، وبحر الحبشة، وفي هذا الربع المسكون نحو من خمسمائة بحر صغار ونحو من مائتي نهر طوال مثل جيحون ودجلة وفرات ونيل مصر ونهر الكر والرس بأَذْرَبِيجَان وهارمند وسدسكتان وما شاكل هذه الأنهار، طُولُ كلٍّ واحد من مائة فرسخ إلى ألف فرسخ.

وأما الآجام والبطائح والغدران والأنهار الصغار والسواقي ما لا يُعَدُّ ولا يُحصَى، وفي كل هذه من أجناس السموك والسراطانات والكرازنك والسلاحف والكواسج والتماسيح والدلافين وأنواع أُخَر لا تعد ولا تُحصَى ولا يعلمها إلا الله، وقد قيل إنها تسعمائة صورة جنسية سواء أنواعها وأشخاصها، وإن في البر نحو خمسمائة صورة جنسية ونوعية من أجناس الوحوش والسباع والبهائم والأنعام والحشرات والهوام والطيور والجوارح وغيرها من الطيور الإنسية، وكل هذه الخلائق عبيد الله — تعالى — مماليك له خَلَقَهم بقدْرته وصوَّرهم برحمته وأنشأهم وربَّاهم ورَزَقَهم وحفِظَهم ورَعَاهم لا تَخفَى عليه خافية من أمرهم يعلم مستقرَّهم ومستودعهم، ثم قال الضفدع: فلو تأمَّلتَ واعتبرتَ فيما كان ذلك أيها الإنسي لعلمتَ وتبيَّن لك بأن افتخارك بكثرة بني آدم وعدد أصنافهم وطبقاتهم لا يدل على أنهم أرباب وغيرهم عبيد لهم بتة.

فلما فرغ الضفدع من كلامه، قال حكيم من الجن: ذهب عليكم يا معشر الإنس من بني آدم ويا معشر الحيوانات الأرضية وذوي الأجسام الثقيلة والجثة العظيمة الغليظة والأجرام ذوي الأبعاد الثلاثة من ساكني البحر والبر والجو وخَفَتْ عنكم معرفة كثرة الخلائق الروحانية والصور النورانية والأرواح الخفية والأشباح اللطيفة والنفوس البسيطة والصور المفارقة التي مسكنها في فسحة أطباق السموات وسريانها في فضاء سعة عالم الأفلاك من أصناف الملائكة الروحانيين الكروبين وحَمَلة العرش أجمعين وما في سعة كرة الاثنين من الأرواح النارية وما في سعة كثرة الزمهرير من قبائل الجن وإخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين، فلو أنكم يا معشر الإنس ويا معشر الحيوانات عرفتم كثرة أجناس هذه الخلائق التي ليست بأجسام ذوات أركان ولا أجرام ذوات

أبعاد، وعلمتم كثرة أنواعها وكثرة صورها وعدد أشخاصها وأشخاص أشكالها، لصغرت في أعينكم كثرة أجناس الحيوانات أجمع من الجسمانية والأنواع الجرمانية والأشخاص الجزوية؛ وذلك لأن مساحة كرة الزمهرير تزيد على مساحة سعة البر والبحر أكثر من عشرة أضعاف.

وهكذا سعة كرة الأثير تزيد على سعة كرة الزمهرير أكثر من عشرة أضعاف.

وهكذا سعة كرة فلك القمر تزيد على سعة كرة الجميع أضعافًا.

وهكذا نسبة فلك عُطَارد إلى فلك القمر، وعلى هذا المثال حكم سائر الأفلاك السبعة المحيطات بعضها ببعض إلى أعلى فلك المحيط، وكلها ممتلئ فضاؤها وفسحات سعتها من الخلائق الروحانية حتى إنه ليس فيها موضع شبر إلا وهناك جنس من الخلائق كما أخبر النبي — عليه السلام — فإنه سُئل عن قول الله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ قال عليه السلام: «ما في السموات السبع موضع شبر إلا وهناك مَلَك مقرَّب قائم أو راكع أو ساجد لله تعالى.»

ثم قال الحكيم: لو تفكَّرتم واعتبرتم يا معشر الحيوان والإنس فيما ذكرتُ لعلمتم أنكم أقلُّ الخلائق عددًا وأدونهم مرتبة ومنزلة.

فالافتخار بالكثرة أيها الإنسي لا يدل على أنكم أرباب وغيركم عبيد لكم، بل كلنا عبيد الله وجنوده ورعيته مسخَّر بعضنا لبعض كما اقتضتْ حكمتُه وأوجبتْ ربوبيتُه، فله الحمد على ذلك وعلى سابغ نعمته حمدًا كثيرًا.

فلما فرغ حكيم الجن من كلامه، قال الملك: سمعنا يا معشر الإنس ما ذكرتم وما افتخرتم به، وقد سمعتم منَّا الجواب، فهل عندكم بيان آخَر غير ما ذكرتموه، فأوردوه وبيِّنوه لنسمع إن كنتم صادقين.

فصل

فقام عند ذلك الخطيب الحجازي المكي المدني وقال: نَعَم أيها الملك، لنا فضائل أخرى ومناقب حِسَان تدل على أننا أرباب وهذه الحيوانات عبيد لنا، ونحن مُلَّاكها ومواليها.

قال الملك: ما هي؟ قال: مواعيد ربنا لنا بالبعث والنشور والخروج من القبور وحساب يوم الدين والجواز على الصراط ودخول الجنان من بين سائر الحيوانات، وهي جنة الفردوس وجنة النعيم وجنة عدن وجنة الخلد وجنة المأوى ودار السلام ودار المقام، ودار المتقين وشجرة طوبى وعين السلسبيل وأنهار من خمرة لذة للشاربين وأنهار من

عسل مصفًّى وأنهار من لبن وماء غير آسِنٍ وبالدرجات في القصور وتزويج الحور ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام والتنسُّم من ذلك الرَّوْح والريحان المذكور في القرآن في نحو من سبعمائة آية.

كل ذلك بمعزل عن هذه الحيوانات فهذا دليل على أنَّا أرباب، وهي عبيد لنا، ولنا مناقب أُخَر غير ما ذكرنا، أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

فقام عند ذلك زعيم الطيور وهو الهزار داستان فقال: نَعَم، لعمري إن الأمر كما قلت أيها الإنسي، ولكن اذكر أيضًا ما وُعدتم به معشر الإنس من عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وأحوال يوم القيامة وشدة الحساب والوعيد بدخول النيران وعذاب جهنم والجحيم والسعير ولظى وسَقَر والحُطَمة والهَاوية وسَرَابيل من قَطِران، وشرب الصديد وأكل شجرة الزَّقُّزم ومجاورة مالك الغضبان وجوار الشياطين مع جنود إبليس أجمعين.

وما هو مذكور في القرآن بجنب كل آية من الوعد آية من الوعيد، كل ذلك لكم دوننا ونحن بمعزل عن جميع ذلك، وكما لم نُوعَد بالثواب لم نُوعَد بالعقاب، وقد رضينا بحكم ربنا، لا لنا ولا علينا، كما رفع عنَّا حُسْن الوَعْد صَرَفَ عنَّا خوفَ الوَعِيد، فتكافَأَتِ الأدلة بيننا وبينكم، وتساوتِ الأقدار، فما لكم والافتخار؟

قال الحجازي: وكيف تساوتِ الأقدار بيننا وبينكم؟ فإنَّا على أي حالة كانت باقون أبد الآبدين ودهرَ الدَّاهِرين إنْ كنا مُطِيعين، فمَعَ الأنبياء والأولياء والأئمة والأوصياء والحُكَماء والأخيار والفضلاء والأبدال والزهاد والصالحين والعباد العارفين المستبصرين وأولي الألباب وأولي الأبصار وأولي النهى والمصطفَيْنَ الأخيار والذين هم بملائكة الله الكرام يتشبهون وإلى الخيرات يتسابقون وإلى لقاء ربهم يشتاقون، وفي جميع أوقاتهم عليه مقبلون، ومنه يسمعون وإليه ينظرون، وفي عظمته وجلالته يتفكرون، وفي جميع الأمور عليه يتوكلون، وإياه يسألون ومنه يطلبون وإياه يرجون ومن خشيته مشفقون.

ولو كنَّا مردودين إذن نتخلص بشفاعة نبينا محمد — عليه السلام — ونكون باقين في الجنة مع الحُور والغِلْمان والرَّوْح والريحان ولقاء الرحمن ونداء الذين أحسنوا الحسنى وزيادة في حقنا. قال تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾.

وأنتم يا معشر الحيوانات بمعزل عن جميع ذلك؛ لأنكم بعد المفارقة تفسدون وتَبْلَوْن وتفنَوْنَ ولا تبقَوْنَ، فهذا دليل على أننا أرباب وأنتم عبيد وخول لنا.

فقالت حينئذٍ زعماء الحيوانات وحكماء الجن بأجمعهم: الآن جئتم بالحق، ونطقتم بالصواب وقلتم الصدق؛ لأن بأمثال ما ذكرتم يفتخر به المفتخرون ومثل أعمالهم فليعمل العاملون.

وفي مثل سيرهم وأخلاقهم وآدابهم وآرائهم وعلومهم فليرغب الراغبون وفي ذلك فليتنافس المتنافسون.

ولكن خبِّرونا يا معشر الإنس عن أوصافهم، وبيِّنوا لنا سيرهم، وعرفونا طريق معارفهم ومحاسن أخلاقهم وصالح أعمالهم إن كنتم صادقين، ثم اذكروها إن كنتم بها عارفين.

فسكتتِ الجماعة حينئذٍ يتفكَّرون فلم يكن عند أحد منهم جواب، فقال واحد منهم: إن الجنة أُعِدَّتْ للمتقين.

فقام عند ذلك العالِم الخبير الفاضل الذكي المستبصِر الفارسي النسبة، العربي الدِّين، الحنفي المذهب، العراقي الآداب، العِبْراني المخبر، المسيحي المنهج، الشامي النُّسُك، اليوناني العلوم، الهندي البصيرة، الصوفي السير، الملكي الأخلاق، الربَّاني الرأي، الإلهي المعارف، الصمداني، فقال: الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين ولا عدوان إلا على الظالمين، وصلوات الله على خاتم الأنبياء وخلاصة الأصفياء محمد وآله أجمعين.

ثم قال: أيها الملك العادل، وأنتم معشر الجماعة الحضور، اعلموا أن لهؤلاء الذين هم أولياء الله وصفوته من خلقه وخيرته من عباده وبريته أوصافًا حميدة وأعمالًا زكية وعلومًا مفننة وصفات جميلة وأعمالًا زكية ومعارف ربانية وأخلاقًا ملكية وسيرة عادلة قدسية وأحوالًا عجيبة قد كلَّتِ الألسُنُ عن ذكرها، وقصرت أوصاف الواصفين عن كُنْهِ صفاتها وأكثر الذاكرون في وصْفِهم لهم، وأطَالَ الواعظون الخُطَب في مجالس الذكر عن بيان طريقتها ومحاسن أخلاقها طول الأزمان والدهور ولم يبلغوا كنه معرفتها، فكيف يأمر الملك العادل في حق هؤلاء الغرباء، وما جوابهم؟

فأمر الملك أن تكون الحيوانات بأجمعهم تحت أوامرهم ونواهيهم ويكونون مأمورين للإنس حتى يستأنف الدور.

ثم بعد ذلك حَكَم حُكْمًا آخَر، ثم بعد ذلك قام واحد من خُدَماء الملك ونَادَى منادٍ: ألَا قد سمعتم معشر الحيوانات بيان هؤلاء الإنس وقبلتم مقالاتهم ورضيتم بذلك، فانصرفوا آمنين في حفظ الله وأمانه.

ثم اعلم أيها الأخ أنَّا قد بيَّنَّا في هذه الرسالة ما هو الغرض المطلوب، ولا تظن بنا ظن السوء، ولا تَعْدُ هذه الرسالة من ملاعبة الصبيان ومخارفة الإخوان؛ إذ عادتنا جارية على أن نكسو الحقائق ألفاظًا وعبارات وإشارات، كيلا يخرج بنا عما نحن فيه، وفَّقكم الله لقراءتها واستماعها وفهم معانيها، وفتح قلوبَكم وشَرَح صدورَكم ونوَّر بصائِرَكم بمعرفة أسرارها، ويسَّر لكم العمل بها كمَا فَعَل بأوليائه وأصفيائه وأهل طاعته، إنه على ما يشاء قدير.

(وبمَنِّه وجُودِه ولُطْفِه وكرمه وفضله ورحمته تمَّتْ رسالة الحيوانات بعون خالق المخلوقات، وبمحمد وآله الأئمة الهُدَاة عليهم من الله أفضل السلام والصلاة، ويتلوها رسالة تركيب الجسد.)